بسام شمس الدين

غروب الشياطين

الجزء الثالث

لوحة الغلاف للفنانة التشكيلية د. آمنة النصيري

للتواصل مع الكاتب عبر البريد الالكتروني:

bassamshmsaldn@gmail.com

١

لازلت أذكر تلك الليلة، كيف لي أن أنساها! انسللنا بين الجنود، ونحن ندرك أن أبصارهم سوف تعود حين ينتهي مفعول التعويذة، بذل أبي جهداً جباراً، وهو يبعدنا عنهم، حمل شقيقتي الصغيرتين على كتفيه القويين، قدماه حافيتان، وإزاره انحسر إلى ركبتيه، كنت أرى ذلك في الظلام دون الجميع، أقصد هنا بالجميع، مريمة عروس أبي، وشقيقاتي، صفيه الكبرى التي غدت في عمر يسمح لها بالسير مثل كل النساء، دون أن يصدر عنها أي شكوى، على خلاف نعمة الأصغر التي ظلت تتبرم وتحاول أن تجثم لتلتقط أنفاسها الضعيفة.

إنها طفلة هزيلة نزقة رعديدة، لها ساقان رقيقتان مثل أعواد الفول، باتت تضع قدميها في الفراغ بتثاقل وكأنها نائمة، وصوت أبي يلسعها كسوط، وهو يحذرها من خطر التوقف عن السير، لا أظنها كانت تجهل معنى ذلك، لكنها خرجت مرتاعة من غرفة نومها، لتجد نفسها وسط ليل معتم بارد، يبدو أن أبي أحس بخيبة الأمل من التقدم والهروب، كان هو الآخر متعباً وساقاه ترجفان تحت ثقل الفتاتين، مع ذلك ظل يكابر ويمشي متلفتا حوله باحثا عن مأوى، كانت أقدامنا جميعا تصطك كالأسنان، في النهاية، جثمت شقيقتي نعمة رافضة التحرك، جثمنا قربها في موضع مكشوف مثل مؤخرة أبي وفخذيه الضامرين اللذين أراهما بوضوح. كان صوته متراخياً يفتقر إلى الحزم وهو يحثنا على مواصلة السير، عرفت أنه يرغب أن يضع حمولته ويلتقط أنفاسه، استلقى مستسلماً للحظات، ثم قفز واقفاً، وظل يتلفت حوله كأنما يروم تفحص المكان واستشراف الأخطار، قلت له وأنا أمسح العرق عن جبيني:

ـ مؤخرتك مكشوفة يا أبي.

راح يشد مئزره بالخيط المرتخي، واكتفى بالقول بلا وعي:

ـ سامحوني، لم ألحظ ذلك.

كان الليل شديد السواد، والجميع عداي لا يرون أكفهم، لهذا السبب بدت الحيرة على ملامح أبي، ذلك الرجل الذي وجد نفسه متورطاً وسط الظلام، تحيط به فتيات ضعيفات، وعروس صامتة تمشي في ليلة دخلتها، ارتخى خيط مئزره ثانية فقلت منبهاً باختصار:

ـ مؤخرتك.

رد بتوتر:

ـ دع مؤخرتي وشأنها، نحن في مأزق.

استوي يشد المئزر بجهد أكبر وبحركات حادة، ثم تأوه بدهشة، اقترب مني شاهرا إصبعه في وجهي كما لو كنت مذنباً وقال:

ـ هل ترى في الظلام يا ولد؟

أجبت بصوت مرتبك واهٍ كمن يدحض عن نفسه شبهة:

ـ قليلاً..

ـ بوركت يا بني، هذا سوف ينفعنا في تحديد الموضع الذي سنبيت فيه.

وصفت له المكان كما كنت أراه، فطق الإبهام والسبابة بفرح وقال بانبساط:

ـ نجونا، انتظروني لحظة.

لم يفسر كيف نجونا، غاب بعض الوقت ثم عاد، حثنا على السير في الاتجاه ذاته الذي جئنا منه، فانقدنا خلفه محتارين مخدرين بجهلنا كالعُمي، لا نجرؤ على السؤال أو الكلام رغم رغبتنا في الاستفسار عن خطته، أخيراً طلب مني أن أرشده إلى منطقة يعرفها في الهضبة، مليئة بالصخور والأشجار أو بالأحرى الشجيرات الصغيرة الكثيفة التي تترك تحتها فجوات خفية يمكن أن تكون ملاذاً آمناً في تلك الليلة على الأقل، كان يبدو مجنوناً وهو يقودنا نحو الهضبة الراسية فوق القرية، برر غيابه السابق أنه سار ناقشاً خطواته في إحدى الطرق ليضلل المتعقبين، أخذنا نسير وهو يمسك غصن شجرة سدر متشعب يسحبه وراءه ليطمس آثار أقدامنا، صعدنا إلى الهضبة الكبيرة باحثين عن الشجيرة المزعومة ذات التجويف التي تفترش مساحة كبيرة من الأرض، لا أعرف اسمها، حتى أبي لا يعرف، لكنه أكد وجودها وراهن على ذلك بقطع ذكره وهو أغلى عضو في جسده حسب قوله.

لم تضحك العروس لدعابته، بل قالت إن الرجال هم صنَّاع الدمار والحروب التي تحدث في الأرض، لذا كانت كراهيتها لهم في محلها، كانت غاضبة مجهدة تبحث عن شجيرة غريبة في ليلة دخلتها، لتتوارى أسفلها، فتشنا طويلاً دون أن نعثر عليها، عاد إزار أبي إلى الارتخاء، وراح يلقي اللوم على المحتطبات، بينما كنا في حال لا يوصف من اليأس والإعياء رأيت شجيرة صغيرة قريبة، فانفرجت أسارير أبي، وقفزنا نحوها في سباق محموم رغم قصر المسافة التي تؤدي إليها، لكن تجويفها كان صغيرا يتسع لشخص أو شخصين لا أكثر، صرنا ندور حولها بإحباط، ما لبث أن رمقني وشقيقاتي بنظرات حاقدة، لمحت في قسماته رغبة شريرة، أدركت أنه يود الانفراد وعروسه تحت الشجيرة، بدا

مرتبكاً متردداً، وكأنه يبحث عن ذريعة ليصرفنا، ما لبث أن قال بإعياء:

- ابحث يا بني وشقيقاتك عن شجيرة أخرى.

أجبت بعناد طفل:

- إنها شجيرتي، أنا عثرت عليها أولا.

- شكراً لك لأنك عثرت عليها، هذا كل ما يسعك الحصول عليه مقابل ذلك. أجاب بتوتر.

- كلا، إنها لي. قلت بإصرار.

- نحن اثنان وأنتم خمسة، هل تفهم يا بني؟

نطقها أبي بحدة مطعمة بالمصداقية، أخذ يهز رأسه بيقين شخص ماكر، فاحتويت أغصان الشجيرة الصغيرة بعناد، وهو أمسك بها من الطرف الآخر، بقيت شقيقاتي صامتات لا يشعرن بشيء، عدا صفية التي ظهر الخوف والقلق على ملامحها، بقيت العروس محايدة محتارة، لكنها وقفت في الجانب الذي وقف عليه زوجها، لم تتدخل حتى ظهرت مشاعل الجنود وعلت أصواتهم أسفل الهضبة، كان واضحاً أنهم قادمون نحونا، فهتفت بانفعال:

- لا خيار لدي، سأحولكم إلى أتانات.

- أليس بوسعك تحويلنا إلى أرانب أو طيور؟

تجاهلت سؤال أبي المتبرم، جعلت تقرأ تعويذة التحويل، ثم نفخت في جسدي وأجساد شقيقاتي، فتحولن إلى أتانات، بينما لم يطرأ على جسدي أي تحول، قالت وكأنها تتذكر:

- أووه، هذا بفعل التميمة التي تحملها.

اقتربت من أبي ونظرت إليه بيأس وقالت:

ـ سامحني يا سرحان، لا أعرف سوى هذه التعويذة.

نفخت في جسده فتحول إلى حمار أو أتان، لا أدري، زحفت الأضواء باتجاهنا سريعا، راسمة ضلال أجساد الجنود على أطراف الرابية التي نقف عليها، دخلنا بصعوبة تحت تلك الشجيرة الكثيفة الأغصان، بقينا منبطحين بسبب ضيق المساحة، ضمتني العروس إليها بقوة حابسة حركتي، سرعان ما غمر الضوء المكان، لمحنا من خلال الفروع المتشابكة بالأسفل أقدامهم تقترب باتجاهنا، سمعنا أحدهم يقول بعجب:

ـ كانت أغصان هذه الشجيرة تتحرك قبل لحظات.

ارتفع صوت آخر حاد:

ـ وإن يكن، كل الأغصان تتحرك بفعل الهواء.

ـ لقد توقف الاهتزاز، هذا غريب، سأرى ما يوجد أسفلها.

ـ لا تكن سخيفاً، لا يوجد شيء.

اقترب الجندي من الشجيرة، وتوقف أمامها متطلعا حتى صار بوسعي أن ألمس حذاءه الغليظ، ثم انحنى ليرفعها، لكن أحدهم صاح:

ـ انظروا يا رجال...

أفلت الجندي الشجيرة، وذهب ليرى ما هناك، كان جسد مريمة يرجف وينز عرقا، ارتفع الصوت:

ـ إنها أتانات، هذا غريب.

ـ ليس غريباً، لعلها فرت من زرائبها أثناء القصف.

ـ لعلهم الفارون الذين نبحث عنهم، بوسعهم أن يتحولوا إلى حيوانات، لأنهم سحرة أنجاس.

قهقه الجنود، وأتى صوت هادر آمر:

ـ توقفوا عن الهزل في أوقات الخدمة، تلك خمس أتانات، نحن نبحث عن سبعة أشخاص أيها المغفلون.

ابتعدت الأصوات وظلال الأضواء، وحلق الصمت، فخرجت أنا أولاً وتبعتني العروس المرتعشة، بعد أن هدأ ارتجافها قرأت تعويذتها على الأتان الأكبر، فظهر أبي غاضبا، وأمسك بمعصمها، وجرّها إلى تحت الشجيرة، ظن إن هذا العمل سوف يجبرني على الخضوع والاستسلام، لا يدري أن معلمي الشيخ رعدان قد زودني بهذه التعاويذ وغيرها، أكثر مما يظن، طلب مني تحت القسم ألا ألجأ إليها سوى في الأوقات العسيرة حيث لا يكون هناك حلولا أخرى، فاستعدت شقيقاتي اللاتي بدين مذهولات صامتات بسبب ما حدث، لم أعترف بخسارتي، بل مكثت قليلا أنظر إلى الشجيرة بغيظ، وأفكر بطريقة ما لإرغام العروسين على الخروج من ملكيتي، فجأة أخذت الشجيرة تتحرك باهتزاز متوالي ومتصاعد، مع تأوهات وآهات وشهقات ذات نغمات متباينة، فابتعدت مشوشا ومحتارا مما يجري هناك، ناسيا أمر استعادة الشجيرة، كانت شقيقاتي الأربع ينتفضن من البرد.

هبطت من الهضبة دون شعور، أظنني كنت نائماً أو شبه نائم، لا أعرف! كانت أطلال القرية واضحة كأنها في وضح النهار، شوارعها خالية مخيفة، منازلها مدمرة مكومة، قلما رأيت جدراناً واقفة، بالرغم من ذلك، كشّرت في وجهي الكلاب التي بقيت قرب

الأنقاض مخلصة لذكرى أصحابها، لاحت طيور الليل الحزينة، لاسيما البومات، قابعة بوقار وصمت على رؤوس الأركان الخربة مثل عجائز ساحرات يتقمصن الوداعة والحكمة، حامت الخفافيش بانتشاء مزعج فوق ركام الأحجار والطين المتناثر، كان هناك مجموعة هائلة من الأفاعي تتحرك بين الحطام وكأن لديها حفلة عُرس، فصرفتها بالتعاويذ.

فتشت هنا وهناك بين الأحجار، عثرت على أجزاء ممزقة من اللحف والحصائر، كما وجدت جبة صوفية صغيرة من جلد خروف، نفضتها من التراب ولبستها، ثم عرجت إلى البئر، ملأت زمزمية عثرت عليها قرب أحد الجدران، عدت بغنيمتي الهزيلة إلى الهضبة، كان شخير الزوجين ينبئ عن نوم هانئ تحت الشجيرة، لم أكترث، كانت تلك المزق بمثابة فتح عظيم للفتيات لاسيما الأصغر في السن، على الأقل صار الاستلقاء على الأرض ممكناً، لكن البرد لا يرحم، ومازالت أجسادهن تنتفض بشدة.

عدت إلى القرية، لأجد هناك ألواحاً عريضة من الخشب، حملتها إلى الهضبة، صرت أهبط وأصعد حتى جمعت القدر الكافي من الألواح التي تكفي لبناء مأوى صغير، قامت صفية بمساعدتي في البناء حتى قام مأوى صغير واطئ السقف استلقينا على أرضيته، ما أجمل ذلك الشعور المريح! في ذلك الوقت صاح ديك الفجر من قرية بعيدة.

نمت نوماً لم أذق مثله البتة، في الضحى اهتز المأوى، سمعت صوت أبي يصرخ منادياً:

ـ سعد، سعد..

قفزت إلى الخارج فزِعاً، صحت بغضب النائم المفزوع:

ـ ماذا دهاك..؟

سأل ببرود مغيظ:

ـ هل صنعت هذا المأوى؟

نظرت إلى المأوى كأني اكتشفه لأول مرَّة، لم أذكر شيئاً عن صنعه، لكني أجبت تجنباً للأسئلة:

ـ نعم.

تحرك وألقى نظرة إلى الداخل، دهش حين رأى شقيقاتي جاثمات على أرضيته متدثرات باللحف الممزقة، قال بصوت هادر:

ـ أنت ساحر خطير.

اعتصمت بالسكوت، فأعقب محتجاً:

ـ كيف تقطنون داخل مأوى دافئ، بينما العروسان مستلقيان تحت الشجيرة بلا دثار؟!

لم أدر بِمَ أجيب عليه، فاستأنف متعللا:

ـ المأوى سيكشف مكاننا للجنود.

قلت حينئذٍ:

ـ لقد رحلوا..

ـ لا تكذب يا ولد.

سكت هنيهة ثم أردف:

ـ على كل حال، المأوى للعروسين، وأنتم ابحثوا عن مأوى آخر.

بعد ذلك سألت أختي صفية عن المأوى، كان على كفيها علامات واضحة تؤكد مساهمتها في صنعه، نشرت راحتيها أمام وجهي، وتعجبت هي كيف أنسى الأعمال المضنية التي فعلناها معاً في الليلة الماضية.

لم أكن أكذب حين أخبرت أبي عن رحيل الجنود، فقد كنت حقاً أسمع وقع أقدامهم وهم يبتعدون عن القرية، أدركت منذ ذلك الحين أنني أملك قدراتٍ من نوع ما، لكني كنت أظن أن الجميع يملكها، لمّا تأكد أبي من رحيل الجنود نزل إلى القرية، رآها كما رأيتها أطلالاً مكدسة على الأرض بعشوائية مؤلمة، عاد غاضباً منتفخ الأوداج، لقد كان كبير هذه القرية والآمر الناهي فيها، وإقطاعيا يملك أخصب الحقول، ثم في ليلة سوداء يتحول إلى مشرد يعيش داخل مأوى صغير على هضبة تطل على قريته المنكوبة، في حين يراني أحصل على كل شيء أريده، مازال ثملا بماضيه المجيد، عاجزا عن فعل أي شيء في حاضره البائس، ما أصعب هذا على قلب أي رجل طموح!.

هبطت في المساء إلى القرية وجمعت ألواحاً وأخشاباً أكثر، صنعت مأوى أكبر يبعد عن المأوى الذي اغتصبه أبي بمسافة مائة متر، كان يضم حجرتين، صغيرة لي، وواسعة للبنات الأربع، ذي نوافذ خشبية أنيقة على مصاريع ودرفات مصقولة واقية من الشمس والبرد، أبوابه ما زالت بحال جيدة انتزعتها من المنازل المحطمة، كما عثرت على قلة ماء كبيرة وبقايا أصص فارغة، غرست حول المأوى عدد من الشجيرات، وزينت سطحه بالأصص التي تحوي الحبق والشذاب والريحان، أصبح مأواي الجديد منزلاً صغيراً، ينقصه عن منازل الفلاحين بيت النار والحمام، تلكم الغرفتان لم نكن في عوز إليهما في ذلك المكان المعزول، كنا نقضي حاجتنا

على الهضبة الواسعة، ونأكل ما قُدِّر لنا الحصول عليه من صيد، أرنب أو طائر نشويه بموقد حجري وقليل من الحطب، نضع اللحم الطري مشبوكاً وسط عيدان يابسة، ثم نلتهمه كالبدائيين خارج المأوى، كان أبي غاضبا بسبب مأوانا الجديد المميز، وظل يختلق الذرائع لانتزاعه، كان مطلاً على قريته المنكوبة، وعلى جزء من القيعان الخضراء والحقول الخصيبة، لكني هذه المرة بقيت متشبثاً بالمأوى، فقرر أن يحرمني من بعض فتات الطعام الذي كان يجلبه من أحد الأسواق القريبة.

كان مازال لديه بعض المال، ظل بضعة أشهر ينفق بإسراف، مبررا ذلك بأنه عريس، يجب أن يتغذى باللحم والعسل والخضر والفواكه ليستطيع القيام بواجباته الزوجية كما ينبغي، لم نكن نفهم شيئا عما يعنيه بتلك الواجبات، لكني بما أملك من حواس حادة كنت أسمع تأوهاتهم وكلامهم الداعر دون أن أفهم شيئا مما يجري، استمر على هذا الحال، حتى صرخت مريمة في وجهه طالبة منه أن يتوقف عن سلوكه الحيواني، فقد صار في بطنها جنين، ولا تحب أن يسقط، أشارت عليه أن يشغل نفسه بعمل يدر عليه المال، أو على الأقل ينام بعيدا عنها، ضحكت صفية حين سمعت ذلك، فقد غدت فتاة يافعة، لا أعرف كم تبلغ من العمر، لكنها أمست تملك نهدين بارزين وجسدا ريانا، غدت تتبرم من الملل، وتنتظر حتى أعود بصيد ما، فتقوم بإعداده وطهوه، كانت تملك روح امرأة قروية تصبو إلى قضاء وقتها في رعاية بقرة حلوب وبضع عجول، فالعشب وافر بالمكن، والفائدة كبيرة، الحليب والسمن واللبن، اللحم وحده لا يكفي، سيتحولون إلى وحوش لاحمة في تلك الهضبة..

تشجعت أختي سلوى وطلبت هي الأخرى غنما تتسلى بها وترعاها، حليمة ونعمة كان طموحهن أقل كلفة، طلبن دجاجاً وحسب، كنت أعِد الفتيات أن أجلب لهن تلك الحيوانات والطيور، حين أخلو ونفسي أفكر كيف بوسعي أن أجلب بقرة أو شاة أو حتى دجاجة! فأنا لا أملك المال، غذاؤنا مجاني توفره لنا البرية البكر المحيطة بالهضبة، لم أر ريالاً أو بقشة أو هللة منذ شهور عديدة، ما العمل إذاً؟ فالأبقار ليست سائمة في البراري كالأرانب وطيور العُقَب! في ذلك اليوم ارتفع صوت أبي وهو يرد على عتاب مريمة، ماذا يمكن أن يفعل بعد أن وصل إلى مرتبة كبير قرية؟! هل يذهب ليبحث عن مطحن حجري ويزاول عمله القديم؟! هل يصبح فلاحاً؟ هذا غير ممكن الآن، جاء إليّ بعد قليل، يبدو أنه قد تذكر أمر حقوله المؤجرة.

ذهبنا في طرق قديمة مألوفة لا نتحدث إلا بشكل مقتضب، حرص أن يتركني خلفه بحيث يكون هو قائد الرحلة. بدت في كفه عصا غليظة تتناسب مع وضعه الجديد، أو كعادة المسافرين آنذاك، أخذ يتوكأ عليها أحياناً، لكن حين نصادف بعض النساء في طريقنا كان يرفعها في الهواء لكي لا يبدو في عيونهن رجلاً واهناً.

في وادي الوسط، كان هدير موسم الحصاد يُسمع، ومهاجل النساء تجعل النفس مبتهجة راقصة، بينما أبي يمشي بتبختر أمام الهاجلات رافعاً عصاه على كاهله، أخيرا اقتربنا من فلاح نشيط يرص حزم الذرة المحصودة وسط الجرن لتجف، ثم انبرى يقطع بمنجله السنابل المثمرة، قاذفا بها إلى سلة كبيرة، دنا أبي منه ودق العصا الغليظة على الأرض بقوة، قائلا بنبرات حادة:

ـ صباح الخير يا زيد.

فزع الرجل بسبب المباغتة، ثم أشاح وجهه عنا بتشاؤم، وقال دون أن ينظر إلينا:

ـ سرحان، ما جاء بك؟

ـ هذا سؤال غريب، ماذا دهاك لتخاطبني دون لقب أيضا؟!

ـ أرجوك، سامحني، حقولك ضُمّت إلى ملكية الأوقاف بأمر من العامل، لم أعد أجيرك.

ـ ماذا؟

ـ نعم، هذا ما حصل.

انتفخت أوداج أبي، ورفع عصاه في الهواء قائلا بغضب:

ـ هل تود أن نتعارك يا زيد؟

ـ لن يجدي ذلك، عليك أن تستردها من الأوقاف، سيكون هذا أفضل.

ـ سأفعل ذلك قريباً.

نظر إلي بمقت، ومضى وهو يظن أن النحس مازال يطارده منذ ولادتي، سرنا بأمل ضئيل ليرى الحقول الأخرى التي ورثها عن الأرملتين زكية وروضة، لكن الأجراء كانوا أجفى من زيد، وقد هددوا أبي إن عاد مرة أخرى إليهم سيشتكون به إلى عامل القضاء، فخاف وانسحب، لم يشأ أن يخسر حياته أيضاً.

حين قررنا العودة إلى الهضبة تذكر أبي أمر بقرة روضة المؤجرة في قرية مجاورة، لا يعقل أن يفطن العامل إلى وجودها، ولن تُضم إلى الأوقاف، كان واثقاً من قوله، راح يخبرني طيلة الطريق أنها فصيل نادر من الأبقار، ولن يقبل من الأجير أقل من عشرة ريالات

ثمناً لها، في طريقنا قرب تلك القرية رأينا أفعى مرقطة طويلة، فزع أبي لأنها تشبه تلك التي لدغته يوم التحدي الذي دار بينه ومريمة، رغم ذلك قال إن تلك إشارة إلى الحظ الحسن، فقد كان يتفاءل بها القدماء، ثم عثرنا على أكثر من أفعى، أحصيت خمس أفاعي مرقطة، فأربد وجهه، وسار بخطوات بطيئة وهو يعض شفته السفلى بشرود، لما ظهرنا على امرأة الأجير الصغيرة البريئة الملامح كطفلة، هبت من موضعها، وانكبت على قدمي أبي تقبلهما، وهي تنشج بفرح، وتقول بصوت متقطع:

ـ سلامتك أيها المالك، ها أنت حي.

ـ نعم يا حورية، لقد نجوت بأعجوبة.

ـ وولدك المبارك أيضاً.

هز أبي رأسه موافقاً، كان مزهواً أمامي من الاحتفاء المبالغ به، شرع يضاحك المرأة، ويخوض معها في حديث غريب عرفت فيما بعد أنه مخجل، كانت وجنتا المرأة الصغيرة تتوردان، وهي تراقبني، نسي أبي أمر البقرة، ثم سألها فجأة وقد ثار حيوانه:

ـ أين حمود والأولاد؟

ـ الأولاد في الحقل، وحمود ذهب إلى درويش في قرية قرعد يعمل تعاويذ تطرد الأفاعي، لقد لدغت إحداها بقرتنا البيضاء.

ـ لكني أظنها حمراء.

ـ أنت تتحدث عن بقرتك المسكينة، هي الأخرى لدغت وبقرتان أخريان بعدها.

ـ يا للخسارة! كيف حدث ذلك؟

ـ هطلت علينا الأفاعي فجأة بعد أن دمرت قريتكم، رآها الأهالي تخرج من بين أنقاض الرباط.

ـ صحيح، إنها قرية ملعونة، لقد كنت كبيرها، ومع ذلك كان الشر مختبئ في أساساتها.

تفكر قليلاً، وغمزها بعينه، ثم قال يخاطبني:

ـ انتظر هنا حتى آخذ ثمن البقرة.

صعدا، وهي تضحك، وهو يقرصها في ردفيها، لا أدري، هل كان ذلك جزء من ثمن البقرة أم لا! لم أر شيئا كهذا من قبل، انتظرت طويلاً، ظننت لجهلي أن ثمن البقرة مبلغ كبير بحيث مازالا يحسبانه ويجمعانه، نفد صبري، فصعدت على الدرج الخارجي، دخلت المنزل متسللا كقط، أتلفت هنا وهناك، في غرفة صغيرة رأيتهما، كان أبي يوليني ظهره، إزاره مرفوع إلى وسطه، ومؤخرته ـ التي انكشف في تلك الليلة الرهيبة ـ كانت مكشوفة هنا، لم أر سوى ساقي المرأة الصغيرة عاريين مرفوعين، سمعتها تئن تحته أنيناً قروياً غريباً، وتقول بهلع:

ـ حمود قادم في الطريق.

كان أبي يجيب بحشرجة مخيفة:

ـ لا تخشين من حمود، سأنتهي الآن.

ـ لقد مضى وقت طويل.

ـ لا عليك، هذا جيد..

انسحبت بخوف، قبعت في الخارج محتارا، لا أدري ماذا يفعلان، شعرت من كلام المرأة وخوفها أنهما يقومان بعمل سيء، كنت

كصفحة بيضاء لم تُلوث بمداد أسود، بعد قليل جاء أبي مسرعاً وهو يلهث، كنت أسمع دقات قلبه، سألني بحدة:

ـ لِمَ أنت شارد يا ولد؟

ـ لقد تأخرت يا أبي، حتى ظننت أن ثمن البقرة لن ينتهي.

ـ لا تشغل بالك، هيا بنا نعود، لقد استوفيت حقي.

ـ وأين ثمن البقرة؟

ـ لا شأن لك بذلك.

نظر إلي نظرة خارقة، سرنا صامتين وسط القرية، بدا غارقا في حبوره وخدره، وأنا في حيرتي وذهولي، فجأة اعترض طريقنا شخص مبدداً على أبي نشوته، حيث قال يخاطبه بعدائية:

ـ لا أهلاً، ولا سهلاً، كيف نجوت يا سرحان؟

ذعر أبي حين رأى الرجل، كان هذا الأخير هو صهر سعد المليح الذي نزع أبي منه حقول قاسم، وهو كبير هذه القرية، لذا رد بارتباك:

ـ سيلان، لِمَ تقول ذلك؟ الأجدر بك أن تفرح وتهنئني على سلامتي كما يفعل الرجال الطيبون.

ـ بل الأجدر بي أن أشي بك إلى العامل ونتخلص من شرورك.

ـ لا أذكر أنني أسأت إليك يوما يا سيلان، طالما كانت علاقتي بك طيبة.

ـ لا تدري كم فقدنا من المواشي بسبب الأفاعي التي تتسرب من قريتك اللعينة.

ـ لقد سمعت هذا، ورأيت الأفاعي، أنا حزين فعلا، وقد خسرت بقرة لا تقدر بثمن عند أجيري حمود، ماذا بوسعي أن أفعل؟

ـ أنت تبكي من أجل بقرة، لقد خسرت خمس أبقار، وعشرين شاة وحمارين وثورين كانا تحت المحراث.

ـ هلا استدعيتم درويشاً يصرفها؟

ـ درويش! عشرة دراويش لم يفعلوا شيئاً، وقد وضعت جائزة لمن يصرفها، بقرتين وثلاث غنمات.

فز قلبي في صدري حين سمعت ذلك، فقلت باندفاع:

ـ أنا أصرفها، هل تعطيني الجائزة؟

أرغى سيلان مخاطبا أبي باستياء:

ـ هلا علمت ولدك يا سرحان ألا يعبث مع الكبار؟ هذا أمر غير مقبول، يكفينا ما نحن فيه من المحن.

صرخ أبي في وجهي محتداً ليرضي خصمه الغاضب:

ـ اسكت يا سعد، لا تسخر من كبير القرية سيلان، إنه رجل وقور ومحترم.

أعدت القول بصوت حاد:

ـ أنا أصرفها، أستطيع ذلك.

انفجر سيلان قائلاً بضجر:

ـ ها هي الزريبة والمواشي، نحن نحرسها ليلاً ونهاراً دون جدوى، أرنا ما ستعمل، لن نخسر شيئاً.

مشيت نحو الزريبة بثقة، وطلبت طشتاً مليئاً بالماء، وصرت أعب الماء وأنفخه على أجساد المواشي، وعلى جدران الزريبة.

ثم قرأت تعويذة الصرف الكبرى التي أخذتها من معلمي، وفي النهاية قلت لسيلان ببساطة:

ـ اذهب إلى منزلك ونم قرير العين.

ـ هل تهزأ بي يا فتى؟

صحت بيقين:

ـ أنا جاد يا كبير القرية، لن تجد أي أفعى في زريبتك بعد الآن.

فرك سيلان أصابعه في بعضها وهو يتحرك محتارا، نظر إلى والدي الذي بدا هو الآخر مرتابا وحانقا، يوشك أن يقتلني بنظراته الخارقة، تابعت بنبرات ضارعة مخاطبا سيلان:

ـ أرجوك، ثق بي.

لمعت عيناه أخيرا وأجاب هازا رأسه بتوتر:

ـ لا بأس، سأجاريك أيها الولد المجنون، وإن خسرت رأساً من الماشية سأشي بك ووالدك إلى العامل، لن تأخذني بكما أي شفقة.

ـ ابعث بجائزتي إلى مأواي هناك في الهضبة.

أشرت ناحية الرباط، ومضيت، تبعني أبي متجهما، بدا وجهه كحبة طماطم. حين ابتعدنا عن نظر سيلان انفجر غضبا، وأوشك أن يضربني بعصاه الغليظة، لكن نفسه لم تطاوعه، ظل يتكلم ويتكلم حتى انطفأ صوته، جزم أني منحت سيلان سبباً ليشي به إلى العامل، ولن يتردد عن فعل ذلك الآن، حتى بمجرد أن تنفق إحدى مواشيه بحادث أو وباء، سيهرع إلى القضاء ليبلغ العامل عن مكان

أولئك السحرة المطلوبين، وأين؟ في الهضبة.. في الهضبة، ينطقها معوجا فمه باستهزاء مقلدا صوتي، مكررا كلامي بحروف مكسرة، إن أفدح أخطائي كما يظن، هو الكشف عن مكان اختبائنا، ما لبث أن وصفني بالأحمق، الغر، وعديم الخبرة، في نهاية المطاف تحشرج صوته ثم اختفى، ولم أعد أسمع شيئاً منه، بل صرت أرى شفتيه تتحركان وحسب، وهذا أنقذني من شكواه المريرة.

في طريقنا فر أرنب كبير، فعدوت خلفه وأنا أقرأ تعويذة الجمود، فتوقف وأمسكت به، وجاء أبي نحوي بخطوات مشدودة، ونزع الأرنب من يدي، ودق عصاه على الأرض بشدة، كانت تلك طريقته في التعبير عن قراراته الصارمة مُذ كان كبيراً في القرية وقال بصوت متعب:

ـ أنت وما تملك لأبيك.

ـ من قال هذا المثل؟

ـ ليس مثلا، هذا كلام النبي.

ـ النبي؟

ـ إيه، النبي محمد، لا عجب أن تجهل النبي الذي نشر تعاليم الله في أرجاء الدنيا، لأن معلمك كان ساحرا يهوديا.

ـ وأنا سأعيد الحياة كما كانت من قبل بواسطة السحر.

قلت ذلك بتشفٍ لأغيظه على اختطافه الأرنب، فارتعش جسده وتغيرت ملامحه، وشرد قليلا، ثم سأل بارتياب:

ـ هل سمعت شيئاً عن تميمة عوفان؟

ـ لا.

سألته عن عوفان وتميمته فأجاب بلا مبالاة:

ـ لم تعد هذه الترهات تثيرني رغم ما شاهدته من أمور بغيضة بعد خروجي ومعلمك من صنعاء، فتراني أزداد يقينا كل يوم أن كل ذلك ألاعيب وخدع بغيضة، وأظن أن كل ما يقال عن التميمة لا يصدق.

صمت قليلاً ربما كان يجتر الكلمات المناسبة في فمه، ثم نفخ الهواء بضيق وأضاف باستخفاف:

ـ إنها حول ساحر قادم يعيد الناس إلى زمن العري كالحيوانات تماماً، نبوءة مجنونة من أجلها يُطارد السحرة ويحرقون، ويظنون أنك ذلك الساحر اللعين منذ أن كنت رضيعا، لأنك ترتدي هذه التميمة التي تمنحك بعض القدرات والحظوظ وتجعلك مميزا، هل تتذكر شيئا مما جرى في الماضي؟

ـ كلا، لا أذكر شيئا سوى أرنبي المختطف.

كان عقلي وجميع جوارحي مشغولة حول الأرنب، طعامي وشقيقاتي، لا أجد وسيلة لاستعادته، كنت حانقاً أتحرق غماً وحقداً، وفجأة ظهر أمامنا سرب من طيور العقب المحلية قرب أحد الحقول، فتلوت تعويذتي مرة أخرى فتجمد طيران، أخذتهما، فمد أبي ذراعه القوية ونزعهما من يدي، مرددا قول النبي، وعلى إثر ذلك تفجرت في نفسي الكراهية للنبي، ولأبي، ولكل شيء يجعلني أخسر أرنباً أو طيراً، وقلت بانفعال:

ـ لقد رأيت ما كنت تفعل في امرأة حمود.

اسود وجهه ورد متلعثماً:

ـ اسمع يا بني، التجسس عمل قبيح، ومع ذلك أنت ولد طيب، لن تخبر أحداً بما رأيت.

نظرت إلى الأرنب، فمد به إلي مكرهاً بأصابع مرتجفة، واحتفظ بالطيرين، تشبث بهما بقوة، وأخفاهما خلف إزاره المتهرئ. سكن غضبي، ولو شئت كنت انتزعت الطيرين أيضاً، فهو يخشى مريمة، وأراه في حضورها كخادم مطيع، ليس عن خوف أو ضعف، بل عن محبة، ولأجل ذلك لا يريد أن يعود إليها صفر اليدين، واقترح علي أن اصطاد مزيداً من الصيد ما دمت أستطيع ذلك، هززت رأسي نافياً، فأنا أتبع وصايا معلمي، فالتكرار يفقد السحر جاذبيته مثل أي شيء يتكرر حتى السأم، وصلنا. ورأت شقيقاتي إلى كفي بلا اهتمام، أرنب كبير، وجبتنا المألوفة، كانت مريمة مستظلة تحت شجرة قريبة من المأوى، تنتظر والدي، فظهر شاهراً الطيرين في الهواء، فارتسم بعض الرضا على ملامحها، وطهونا جميعاً تحت الشجرة، بدأ أبي يزحف باتجاهنا، اقترب من الفتيات وبادلهن الحديث، كان مسروراً رغم إخفاقه وخوفه أن تموت بقرة أو شاة في زريبة سيلان، اللحم رغم شهيته بات مألوفاً، وأحياناً لا يسد حاجة الجميع. أبدت البنات تعطشهن إلى الخبز، ما أطيبه ساخناً وما أشهاه مغموساً بالفول، أو مطلياً بالسمن البلدي، أو مطعماً بالجبن والبيض، لكن الخبز لا ينبت على الهضبة، ويعوزنا تنور طيني وحبوب ومطحن حجري صغير.

طلبت مريمة من أبي أن يرافقني في المساء إلى القرية للتنقيب عن تنور طيني أو مطحن، لكنه ذكّرْها أنه كان كبير القرية، ويتألم عندما يراها محطمة مهجورة، لذا فهو يرفض النبش في ركام قريته عن شيء رخيص وبقايا متبقية معفرة بالتراب، كانت تلك ذريعته للتملص من مساعدتي، ذريعته الأخرى هي الأفاعي، فقد

بات يخشاها بعد تلك الوخزة الأليمة، لكن مريمة لم تقبل منه هذا القول السقيم، فلولا شجاعته واستهانته بالموت يوم ذاك لم تكن إلى جانبه الآن داخل مأوى وضيع، ورددت أن الرعديد لا يحصد شيئاً، وهكذا أرغمته على النزول معي إلى القرية، واشترط علي أن يكون هو قائد عملية التنقيب، وهناك رفض الدخول بين الأنقاض، حتى تلوت تعويذة صرف الأفاعي، بعد لحظات عثرنا على تنور طيني مثلوم قليلاً من أطرافه، ووجدنا عند مطحنه الحجري حجرين مدورين قديمين، وقطب خشبي جيد، وأبدى أبي أسفاً شديداً، لأننا لا نملك حماراً لحمل هذه المقتنيات إلى الهضبة، وقدم اقتراحاً أثار غضبي فصرخت في وجهه لأول مرة أن يصمت، فسكت خانعاً، أوضحت له أني ما كنت لأسمح لمريمة بتحويل شقيقاتي إلى أتانات لولا ظهور الجنود، أما أن تقوم مريمة بتحويل صفية إلى أتان لتحمل الحجرين المدورين، فهذا أمر مشين مخجل، ووقف محتاراً أمام الحجرين بعد أن عجز عن زحزحتهما عن الأرض، فقلت له بصوت متماوت:

ـ خذ التنور وأنا أحمل الحجرين.

ضحك وأجاب وهو يمسح العرق بقماش معصمه:

ـ هل تهزل يا ولد؟ لن يحملهما إلا بغل ضخم.

حملتهما أمام عينيه الزائغتين كطبقين، وحمل تنوره وهو يقول بنبرات طائشة:

ـ أنت شيطان أو إن الشياطين تسكن جسدك.

بدأ يتخبط تحت ثقل التنور، وأوشك أن يتعثر عند المأوى، ساعدته حتى وضع تنوره، ثم مضى لاهثا حانقاً، لا أدري ما يدور في ذهنه بشأني، وفي مأواه سمعته يهمس في أذن مريمة:

ـ بت أخشى من هذا الولد، لعله مسكون بالشياطين، تصرفاته غريبة خارقة.

ـ نم يا رجل، فمنذ متى كان غير غريب أو خارق، كأنك لا تعرفه من قبل.

غرسنا التنور تحت شجرة في منطقة وسطى بين المأوبين، وبالقرب منه أصلحنا موضع المطحن الحجري، وبقيت الحبوب، نظرت الفتيات إلي بحيث لم أجهل المغزى، ومثل كل مرة ضربت صدري مؤكداً أن ذلك الأمر مفروغ منه، سأجلب الحبوب، لكن لا يوجد لدي مال، بعد ذلك أعاتب نفسي، كيف أضرب وعوداً لا أستطيع الإيفاء بها، البقرة، الغنم، الدجاج، والآن الحبوب، وحين أعود كل يوم، تلاحقني نظرات شقيقاتي بمعانيها المستنكرة، والفتاتان الأصغر أكثر إلحاحاً، ناهيك عن عيون أبي الجشعة، وتبرم امرأته الحامل من وضعنا البائس، وقد باتا ينتظران أوبتي كل يوم ليشاركانا في صيدنا، أمسيت أجلب أرنبين، أو أرنب وطائر، أو أربعة طيور، ضجرت أجسادنا من اللحم، وفقدنا شهيتنا، بتنا نأكل بعض نباتات الهضبة، الكُسْمِع، خبز العصافير، الدوم، الحُنْكُس وحبات العرم، وننام جائعين ونصحو جائعين، حتى ظهرت في أجسادنا علامات الهزال والتوتر واليأس.

***

في يوم كنا نتشاجر، أنا وشقيقاتي، وشقيقاتي وأبي، وأنا وأبي ومريمة، والجميع، لا أستطيع وحدي أن أعيل سبعة أشخاص، على والدي أن يتحمل شيئاً ما، أن يبحث عن القوت، أن يساهم بشيء ما، أهالي القرى يحصدون الزرع، ينبغي أن ننتشر في الحقول

ونعرض على الفلاحين المساعدة مقابل بعض الحبوب، أو شيء من السمن واللبن، كانت فكرة عودة أبي إلى أجرائه السابقين لمساعدتهم على الحصاد ترعبه، بينما نحن كذلك نتجادل بأصوات مرتفعة، قاطعنا صوت رجل يصرخ منادياً، ثم ظهر من بين أشجار الهضبة كعفريت يخرج من وسط دخان كثيف، وهو يجر بقرتين وثلاث شياة، يساعده ولد صغير في مثل عمري، وصاح حين رآنا متبرماً:

ـ بحثت عنكم طويلاً في الهضبة.

ووقعت عيناه بخبث على وجه شقيقتي صفية وقال:

ـ ما شاء الله، بناتك يا سرحان أصبحن كبيرات.

قال أبي ببلاهة:

ـ سيلان ماذا..

قاطعه وهو يخاطبني:

ـ الجائزة يا فتى، لم أفقد حيواناً منذ ذلك اليوم.

دهشت الفتيات ومريمة، لا يعرفن شيئاً عن سبب قدوم هذا الرجل الذي شرع يربط البقرتين والغنيمات على سيقان الأشجار القريبة من المأوى، نهض أبي بعد أن أفاق من جموده، وأمسك بكف سيلان، ورافقه كصديق قديم، ومضيا كشخصين هامين يتحاوران حول شئون لا يفهمها صغار السن أمثالنا، كانت شقيقاتي يتمسحن بأجساد الحيوانات فاغرات الأفواه، حاولن التودد والاقتراب من البقرة الحمراء دون جدوى، كانت جميلة مغرية ذات قرون طويلة، تخبط برأسها كل من يحاول الاقتراب منها، رغم ذلك بدا ضرعها منتفخا، يبشر بمقدار وافر من الحليب، فابتعدن عنها وصرن

ينظرن إليها من بعيد، وهي مربوطة إلى الشجرة كما تركها سيلان، أما البقرة البيضاء الوديعة الهادئة فقد بدت هزيلة منتفخة البطن ضرعها صغير متهدل، وقد سمحت لهن بالاقتراب منها والتمسح بجسدها وتدليلها، لم يستوعبن أن يتحقق الحلم هكذا ببساطة، شقيقتي الصغرى حليمة كانت متبرمة، لأن دجاجاتها الموعودة لم تأت بعد، بينما أتت الحيوانات الأكبر حجماً، ضربت صدري بقوة، ووعدتها أن يتحقق ذلك قريباً، بت على يقين بأن كل شيء أعِد به يتحقق، وأقبل أبي بعد أن غادر سيلان، وأول ما وقعت عيناه على البقرة الحمراء، تأملها بإعجاب، وقال:

ـ كانت بقرتي الحمراء تشبه هذه البقرة.

قلت بشهامة:

ـ إنها لك يا أبي.

ارتسم الرضا بملامحه، وبدا مفتوناً سعيداً، ما لبث أن قال باهتمام:

ـ يعوزهما مأوى.

ـ ينبغي أن تبيت على الهضبة، لأني سأحصنها بالتعاويذ، لن يمسها أي شيء.

كان أبي منتشياً يظن أنه قد أحسن الاختيار، امرأته الحامل في عوز شديد إلى التغذية الجيدة، صار الحليب والسمن متوفراً، إنه الآن داخل ضرع هذه البقرة الحمراء السمينة، ولامتني شقيقتي صفية على التفريط في هذه البقرة، وراحت تنظر إلى بقرتها البيضاء بحنق، وصاحت في المساء بحنق:

ـ إنها عجفاء هزيلة منتفخة البطن، لقد ضحك أبي على ذقنك.

ومضت تسدي لي نصائح حول الأبقار كأنها امرأة طاعنة في السن عاشت عمرها في تربية هذه الحيوانات، وأول نصيحة هي أن أنظر إلى ضرع البقرة، لا إلى بطنها، فإن كان الضرع كبيراً، فهذا يعني أنها صالحة مدرارة الحليب، أضجرتني صفية بنصائحها، ورغم ذلك أشعرتني بالحسرة، فقلت لها متبرماً:

ـ هلا حلبتِها؟

صاحت بإحباط:

ـ ماذا أحلب؟ ضرعها الصغير لا يشجع.

ـ ماذا علي أن أفعل؟

ـ أعد إلي بقرتي الحمراء.

ـ اذهبي إلى البقرة البيضاء أولاً.

خرجت غاضبة وذهبت إليها وفي يدها وعاء، انتظرتها عند باب المأوى، وصرت أتأمل الهضبة والسكون المخيف المحيط بها، فما عدا أصوات الحشرات وحركات حيواناتنا هناك، لا يسمع صوت آخر، تأخرت صفية بعض الوقت، صرت أسمع شخيخ الحليب ووقعه الحاد في قعر الإناء الفارغ، مع مرور الوقت أصبح له إيقاع آخر مُبشر، كنت أراها مقرفصة تحت البقرة تحت ظلال الشجرة التي حجبت أوراقها ضوء القمر الساطع عن الحيوان الأبيض الوديع، ومع ذلك لم يكن من الصعب تمييز لونه الناصع، وعادت صفية بخطوات نشيطة هادئة وقالت وهي غاضة بصرها للأسفل:

ـ انس أمر البقرة الحمراء.

في الصباح أتت مريمة، وأيقظتني من النوم، ثم سحبت كفي إلى المأوى الآخر، كان أبي على الفراش الوضيع يئن متوجعا، وأقبلت

البنات وحففن به، لم يكن في حال يمنعه من الكلام أو الحركة، جلبت مخلاتي ووضعت فوق ضلوعه الوجيعة بعض الدهن المسكن للآلام، بدا غاضباً رغم ذلك، وجعل يخاطبنا بحقد:

ـ تريدون قتلي بواسطة هذه البقرة المتوحشة.

وفُجِعَت شقيقاتي الأربع حين سمعنه يصرخ:

ـ لن أصفح عنكم، حتى تعيدوا بقرتي البيضاء.

هتفت صفية بصوت خفيض:

ـ أنت اخترت الحمراء.

قلت محاولاً احتواء الموقف:

ـ البقرة البيضاء تسد حاجة الجميع.

قالت مريمة:

ـ والحمراء تباع وتقايض بحمار وبعض الحبوب.

نهض أبي كحصان واقترب من البقرة المتوحشة بحذر، وفك مقودها وقادها صوب السوق، كان ذلك اليوم هو الأحد، حيث تباع المواشي خارج مدينة يريم، لذا حرص على التخفي، فأسدل على وجهه قناعاً، كما يفعل أصحاب قضايا الثأر أو المطلوبون للعدالة، بعد مغادرته أقبل بعض أهالي قرية سيلان، وطلبوا مني أن أخلصهم من الأفاعي التي تقتل مواشيهم، وتهدد سلامتهم، فقد لدغت طفلاً وامرأة، سرت معهم محفوفاً بالاهتمام، كانوا رجالاً راشدين، وأنا أمشي أمامهم كقائد مغوار، كان منظري غريباً، وهناك في قريتهم بدأت أتلو تعاويذي من أول منزل إلى آخر منزل، كان المساء قد حل، ورفض الأهالي أن يسمحوا لي أن

أغادر في ذلك الليل، ربما كانوا يقولون لأنفسهم إنه صغير على السير في العتمة، لكنهم رضخوا تحت إصراري وعنادي، غادرت مع طلوع القمر، ورافقوني إلى مشارف القرية، ووعدوا أن يدفعوا أجري حين يرتفع الأذى عن مواشيهم.

وصلت إلى الهضبة، ولاحظت وجود حمار هزيل قرب المأوبين، خرج أبي حين سمع صوتي، وغضب حين عرف أنني سرت إلى قرية سيلان وحيداً، كان يريد مرافقتي، أعرف والدي، يطيب له أن يزهو، وأن يدق عصاه على الأرض أمام القرويين، كان كبير قرية ورجلا مهابا في يوم ما، ويرغب أن يثبت حضوره بأي شكل من الأشكال، صار لطيفاً معي، لكن سيل نصائحه لا يتوقف، يسره أن يبدو في نظري أكثر خبرة وعلماً ببواطن الأمور، ويشعرني أنني لازلت صغيراً، وأجهل كثيراً من الأشياء عن الناس والحياة، حدثني أن الفقر أكبر عدو للإنسان، وأفصح لي عن حلمه في أن تتحول الهضبة إلى قرية كبيرة، يكون هو كبيرها وسيدها المهاب، راح يشير بسبابته إلى موضع منزلنا الحصين، يجب أن يكون في الحافة مطلاً على الوادي الأخضر الخصيب.

ذكّرته أننا لا نملك إلا بقرة وثلاث شياه وحمارا هزيلا، فغضب لأني قاطعت حلمه الأثير، وادعى أن المدن والقرى لم يكن لها وجود في يوم من الأيام، وأنها بدأت على شكل فكرة عابرة في رأس شخص مجنون حالم، ثم تتوالى المساكن، وتتحول مع الزمن إلى قصور وحصون، أفزعتني هذه الفكرة رغم كونها حلماً بعيد المنال، صرت أتخيل شكل الهضبة حين تغص بالغرف والدور، سوف تختفي طيور العقب والأرانب التي اصطادها، وتقتلع الأشجار التي استظل أسفلها، ولن أستطيع أن أعقل بقرتي على جذع شجرة، لن أسرح وأمرح وحيداً. قلت لنفسي: الهضبة

مملكتي، ولن أقبل أن يسطو عليها أي دخيل، حتى لو كان ثمن ذلك أن يكون أبي كبير قرية أو حتى عاملاً على مدينة الهضبة الخيالية، أحياناً حين أنظر إلى أبي وإلى عصاه السميكة التي كان يحملها، ويدق بها الأرض، أحس ناحيته بالشفقة، وأقول لنفسي: أبي المسكين يتقدم في السن، ألا يحق له أن يحلم؟

في ذلك الأسبوع تذوقنا لأول مرة الخبز الساخن، ورأى أبي مريمة تضع العجين على جدار التنور، فهب إليها فزعاً، وأخبرها أن تدع هذا العمل المرهق كما وصفه لإحدى الفتيات، وصاح على صفية بغضب أن تقوم هي بطهي الخبز، كانت شقيقتي تطعم بقرتها البيضاء، وهو عمل مقدس بالنسبة إليها، ولا يسرها أن تتخلى عنه أو ترغم على ذلك، لذا قامت إلى التنور وهي تصرخ في وجه أبي، وتقول إن ذلك ليس عدلاً، وإن امرأته ليست بيضة يخشى عليها أن تنكسر، واستبد بأبي الغضب وشهر العصا الغليظة في وجهها، وظهرت أنا في تلك اللحظة، فانسحب إلى مأواه، وهو يتوعدها بالعقاب، وظلت صفية تبكي وتبالغ في الشكوى، وطلبت أن يكون لها تنورها الخاص، بحيث تضع خبزها في أي وقت شاءت، ودب الشجار في مأوى أبي، وسمعت مريمة تعاتبه على تدخله في عمل النساء، ليست أول امرأة حامل تعمل في بيت النار، والأجدر به أن يعمل، لا أن ينظر إلى كف ولده، وفوق ذلك يمنع الآخرين عن العمل، وتضاءل وجه أبي، ولم يرفع عينيه عن الأرض طيلة ذلك اليوم.

بعد أيام أتى أهالي قرية سيلان يقودون عدداً من المواشي، والبعض جلب الدجاجات التي أبهج مجيئها نفس شقيقتي حليمة، ورحت أتنقل من قرية إلى أخرى أصرف الأفاعي، وجاء أهالي القرى وجلبوا الحبوب والحيوانات أيضاً، وازدحم المكان بها،

وزاغت عينا أبي واتسع طمعه، وراح يخطط لي كيف أقودها إلى السوق وأبيعها، وأبني منزلاً كبيراً وسط الهضبة، كنت أصغي إليه وأرد بصراحة أنني لن أفرط في حيوان واحد، لأن بقاءها لن يكلفني شيئاً، طعامها متوفر في الهضبة، وماؤها في الهضبة، وقد حصنت المكان بالتعاويذ من اللصوص والحيوانات والأفاعي. وهكذا أصبح الحليب والسمن واللبن في متناول أيدينا كالماء، وصارت شقيقتي الصغيرة تنثر الحبوب للدجاجات وتجمع البيض من أرجاء الهضبة في سلة كبيرة لا تستطيع حملها، فتتركها حتى يأتي فلاح فقير كان يأخذها ويبيعها في السوق، ثم يأخذ أجره بنفسه من أثمانها.

وجاء أهالي القرى المجاورة الواقعة خلف الهضبة لأخلصهم من كارثة الأفاعي، ودهشت أن تكون قرى كثيرة في قاع الحقل قد غزتها أفاعي القرية المنكوبة، وظل أبي يرافقني كظلي، وكان يسمح لي أن أتقدم في السير أمامه حين نكون في العراء، ولكن ما إن نظهر على قرية حتى يسحبني إلى خلفه، ويمشي هو أمامي وكأنه القائد، وأصبح في عيون الأهالي الرجل الذي يجب أن يتفاوضون معه على طرد الأفاعي وعلى أجري الذي أتقاضاه، وقد حاول أن يفرض على القرويين أجراً باهظاً، ووقع في مصيدته الأغرار والحمقى الذين كانوا يقذفون إليه بالمال دون علمي، وبعد ذلك لا أرى منه أي بُقْشة، ثم صرت أعلن للأهالي أن عليهم أن يبعثوا ما يتكرمون به إليّ في الهضبة، وأعفيت الفقراء عن الدفع. وحبذت أن يكون أجري حيوان أليف أو أكثر، ومقداره حسب حال الرجل المستفيد من خدمتي، الوجهاء والميسورون يدفعون أكثر، فاكتظت الهضبة بالحيوانات الأليفة، وضاق صدر أبي ذرعاً بها، وظل كثير التبرم والشكوى، لا أدري سبب ذلك، عرفت فيما بعد أنه كان يخشى أن تلتصق بنا صفة رعاة الماشية، بينما هو في

الحقيقة يحب صحبة البشر، ويملك خبرة سابقة في إدارة شئونهم، غمر الفرح روحه حين أهداني قروي كلباً ضخماً، فأخذه إلى قرب مأواه، وأطلق عليه اسم دغمار، وظن أن كلبه القديم انبعث من عالم الموتى، لكن أمله خاب، كان هذا الكلب ثقيل السمع، كسولاً، منواماً، وأكولاً، ينظر إلى صاحبه ببلاهة، كان أبي الكسول يطلب منه أن يجلب له مشرعته (غليونه) من المأوى، ليدخن تحت شجرة العسق القريبة، ويشممه التبغ ليغريه على البحث، لكن الكلب الضخم يهز ذيله قليلاً، ويلحس كف أبي طمعاً في الطعام، ثم يتثاءب بيأس كأن الأمر لا يعنيه، ويربض ملقيا رأسه على الأرض، مرخيا جفنيه الثقيلين وينام، غضب أبي منه وأعاده إلى صاحبه ليعيل كلبه، وعاد وفي معيته جرو صغير، خطفه من وكر جراء، لكنه اختفى فجأة، وظن أبي أن أمه أتت ذات مساء وأعادته إلى الوكر، وجزم أن الهضبة ليست محصنة كما أزعم، فأوضحت له أنها منيعة فعلا ضد الحيوانات الضارية التي تشكل خطرا على حيواناتي.

أمست حيواناتنا من الكثرة بحيث باتت تبيت تحت الأشجار، وتتكاثف حول المأويين، لم أكن أعرف إحصائية دقيقة لها، وليس لي دراية في شئونها وأمراضها وشبعها وجوعها، لكن صفية ظلت تقول إنها باتت مجهدة عاجزة عن حلب خمسين بقرة، وفي عوز للقناني وجمان السمن، فانضمت إليها شقيقاتي ومريمة الحامل، وطلبن مزيداً من القناني، فكنت أبعث أثمانها إلى السوق، ويجلبها فلاحو القرى المجاورة، وهذا اضطرني لأبني مأوى كبيراً لمعالجة السمن واللبن وخزنه حتى يعود الفلاحون لحمل هذه المنتجات إلى السوق، صار هناك مئات من القناني والجمان سرعان ما تمتلئ بالسمن والحليب، وراحت الحيوانات تتوالد ونرى مواليدها إلى جانبها حين نفيق في الصباح، صغيرة وديعة راتعة قرب الأشجار،

لحسن الحظ كان القرويون يأتون لاستئجارها أو ابتياعها، وصارت الريالات المعدنية اللامعة تتكدس في حفرة مكشوفة داخل المأوى، لا أدري أي ضيق كان ينتابني لزيادتها وتضخمها اليومي، وكأنها بثور متقيحة على جسدي، أصبحت أغتم وأفكر، أي شيء ينقصني حتى اكتنز هذا المال الذي لا أعرف مقداره، بات أبي يرتدي ملابس جديدة باهظة الثمن، ويشد وسطه بحزام وخنجر بمقبض زاهٍ مصنوع من قرن وحيد القرن، لا يرى إلا مع الوجهاء وكبار ملاك الأرض، سمعت فيما بعد أنه ابتاعه من أحد ورثة الإقطاعي نجيم..

كنت أعرف إنه كان يقتطع من أثمان المواشي، ويوهم الفلاحين والباعة أنه مالك الهضبة، وكان من السهل أن يبيع عددا من الحيوانات دون أن أشعر، بل إن الفلاحين كانوا يخبروني أنهم بعثوا إلي بعض المواشي بواسطته، ولا أذكر أنه حدثني عنها أو ضمها إلى الهضبة، بل نما إليّ أنه كان يقودها إلى السوق بين فينة وأخرى، ورغم ذلك لم أكترث، فقد بات رصيناً لطيفاً، ولم يعد يكرر عليّ قول النبي أو يزعجني بنصائحه القديمة المضجرة التي كان يزجيها لي بتأثير الفقر واليأس، لهذا شعرت نحوه بامتنان كبير، فأهالي القرى مازالوا يأتون إلي لأخلصهم من أفاعي القرية المنكوبة، وهباتهم لا تتوقف، وأبي كان يخفف من فائض الثروة الحيوانية، وكنت أقول لنفسي: هَبْ يا سعد أن هناك ذئبٌ يأكل المواشي، هكذا تدور عجلة الحياة، هناك آكل ومأكول، الأبقار تأكل الحشائش من الأرض، والقردان تمتص دماءها، وأبي يأخذ منها، لكن حلمه في تطوير الهضبة لا يتوقف ما يصعِّد الصراع بيننا.

***

أمست شقيقتي صفية تلح علي أن أجتث مأوانا الصغير، وأبني داراً لائقاً في موضعه، فأغضب منها، وأفصح لها إننا سعداء، ننام نوماً هنيئاً على لحف وبُسط وحصائر جديدة، تحف بنا الوسائد الناعمة، ونتدثر بالأغطية الصوفية، لا تدري بما يدور في نفسي، تتهمني بالشح وتكديس المال، كانت ردودي لا تقنعها، المأوى صغير لا أحد يراه، يناسب أشخاصٌ مثلنا مطلوبون ومطاردون، نحن رعاة نملك قطعاناً من الحيوانات الأليفة، وبناء دار كبير على الهضبة يغري الآخرين بالقدوم، لا أحد يستطيع إثبات مِلْكِيته للهضبة، حتى نحن لا نملكها، ولا نستطيع أن نقف في وجه من تسول له نفسه السكن فيها، هي هكذا ناصعة نقية، ولا يتحتم أن تتحول إلى قرية يسكنها البشر.

في الحقيقة، الهضبة ملكية خاصة للحيوانات والطيور والأشجار البرية، ونحن دخلاء في عالمها، يجب أن نحرسها أو نغادر عنها.. لا أحد يفهمني، بل يسألون باستغراب: كيف بوسع الحيوانات والأشجار أن تملك الهضبة؟! يظنون أن الإنسان هو المالك الحقيقي للأرض والحيوانات، وكل شيء في الدنيا يجب أن يكون خاضعا له، باتوا يؤمنون أن بناء دار كبيرة يدل على التطور والعيش الرغيد، وصاروا ينظرون إليّ كشخص بدائي غريب عاد من العصور القديمة، ويهزؤون من ملابسي وطريقتي العجيبة في العيش، كانت أغلب أدواتي من الطين والحجر والجلد والخشب، الكوب الذي أشرب به الماء من الخشب، ملابسي من جلود الخرفان، طاقيتي التي أحملها فوق رأسي وقت الظهيرة من القش، أحذيتي من الجلد، وجرار الماء من الطين، وقد صنعت معظم أدواتي بنفسي، باب حجرتي مفتوح إلى الخارج ونوافذه مفتوحة، أنام وأصحو والخرفان والدجاجات حولي تبحث عن شيء ما، لا أجد أكثر سعادة من هذا الحال.

***

ذات يوم أفقت من النوم فزعاً إثر حلم مفزع، كانت الشمس قد أشرقت، وغمرت الهضبة، في الغالب لا أتأخر في النهوض، لكني في الليلة الماضية، سهرت حتى وقت متأخر من الليل، كنت أفكر بقلق بالغ في هذا المال المكدس في حفرة داخل المأوى، ماذا أفعل به؟ لا غرو أن يطير النوم من عيني، وكل هذه المطامع تزداد من حولي كل يوم، وحين خرجت، رأيت أحجاراً قرب مأوى أبي، وعمالاً يحفرون أساساً لمنزل كبير، لا أدري كيف عصف بي الغضب وفقدت صوابي، عدت إلى حفرة المال واغترفت ما لا أدري مقداره من الريالات الأميرية، وفرقتها على العمال، وطلبت منهم المغادرة، أظنني نفحتهم أكثر من أجرهم، لأنهم فرحوا وغادروا للتو، وظهر أبي مهتاجاً شاهراً عصاه الخيزران الأنيقة، نافخا في الهواء كالثور الهائج، وسألني بغضب رغم علمه:

ـ ماذا فعلت يا سعد؟

قلت بانفعال:

ـ أنا أحمي الهضبة يا أبي.

ـ ماذا تعني بذلك؟

ـ هذا المكان لا ينبغي أن يرسو عليه منزل.

هدأ روعه، بدا أنه لم يفهم ما أرمي إليه، إذ هز رأسه موافقاً، ونظر إلى أعلى الهضبة قائلا بثقة:

ـ عندك حق في ذلك، المنزل يجب أن يكون هناك بالأعلى.

ـ لن يرسو أي منزل على الهضبة.

صاح بسخط:

ـ سأبني منزلي في أي موضع أشاء.

ظهرت شقيقاتي ماعدا حليمة الصغرى، واصطففن مع والدي قرب مأواه، وقلن بصوت واحد:

ـ نريد منزلاً كبيرا.

ظهرت مريمة من باب المأوى منتفخة البطن مترنحة على وجهها اشمئزاز الحامل المجهدة، ورغم ذلك رمقتني بغضب وقالت:

ـ لا أريد أن أضع طفلي داخل مأوى مفتوح، هل تفهم؟

ـ لكنك قضيت ليلة زفافك الأولى تحت شجيرة، كيف تتجاهلون أننا مطاردون؟

ـ أظن أن الأمر انتهى. أجابت.

قال أبي بخبث:

ـ ولدي سعد يكره المنازل ويفضل الملاجئ الهشة البسيطة، كما هو حال الرعاة والبدو الرحل.

سكت هنيهة، ثم أضاف متبسماً بمكر:

ـ لقد اتفق الجميع على تشييد أول منزل نستقبل فيه أول وليد في الهضبة، منزل كبير وحيد تأوي إليه العائلة.

تهللت وجوه شقيقاتي، وكان هذا كما توقعت إعلانا من الفتيات بالتخلي عني، والانضواء في صف والدي، فمضيت حانقاً محروق السويداء.

جلست قرب مأواي وحيداً أفكر، لقد اتفقوا على إقصائي ونكراني، شقيقاتي تخلين عني من أجل منزل بغيض سيجلب المشاكل إلى الهضبة، لا أحد يثق بي، أصبحت مبغضاً مقصياً، ثار الغضب في أعماقي، وقررت أن أحبط بناء المنزل بأي وسيلة، فكرت، لن أقذف أحجار البناء أو أواجه أبي وشقيقاتي كما يفعل الحمقى، لدي سلاحي الأكبر، تعاويذ معلمي الشيخ رعدان، ولو كلفني ذلك استحقاق العقاب الذي يحيق بالمخالفين والمتعنتين من السحرة، نظرت إلى المخلاة بتحفز، حيث يقبع كتاب التعاويذ القاصمة، استطيع أن أقرأ وأبحث عن التعويذة المناسبة، لكن كل شيء فيه مغروس بطريقة ما في رأسي، خطرت بسرعة في ذهني تعويذة الأرض الصلبة، سرت إلى ركن قريب، وأخذت حفنة من التراب الناعم، وجعلت أتلو عليها تعويذتي، ثم عدت أدراجي راضياً هادئاً، وأتت شقيقاتي إلى المأوى، ولم يقلن سوى القليل من الكلمات، ثم اعتصمن بالصمت والخصام، وهذا أقسى سلوك حز في نفسي، سلوك بغيض للتعبير عن الاحتجاج.

دفعني هذا للمبيت تحت شجرة أثل كبيرة، وجدت تحتها عدد من الأبقار والعجول، لم تفر مني أو تجفل، بل صارت تهز ذيولها مرحبة كما ظننت، أو تطرد الحشرات المزعجة عن أجسادها الخاملة، لا أدري، نمت نوماً هادئاً، وفي الصباح الباكر، أخذت كعكة وقنينة صغيرة من الحليب، وصعدت إلى أعلى جزء في الهضبة، هناك فتنتني شجرة تالق ضخمة، ارتقيت جذعها بحذر، وجلست على فرع عريض مدلياً قدمي في الهواء، ورحت أراقب ما يجري، رأيت المواشي تقضم الأعشاب غير آبهة بي، بطونها مخمصة فارغة، أحياناً ترفع رؤوسها وتنظر إلي بلا مبالاة، كأنها ترى حيواناً مألوفاً، لا أدري ما يدور في خلدها عني، أسأل نفسي هل تدرك أنني مالكها أم تظنني فتى لم يبلغ الحلم مازال تحت

وصاية والديه؟ لم يحدث أي شيء طوال الصباح، أعجبني ذلك الموضع وقررت أن أتخذه مأوى، سكينة مهيبة تحت هذه الشجرة، جذع ضخم، فروع كبيرة، بوسع أي شخص أن ينام عليها إن كان لا يتشقلب أثناء النوم، كنت أتسلل إلى بيت النار الصغير، لآخذ ما أعثر عليه من الطعام، ثم أعود إلى شجرتي.

آخر مرة أتيت متسللاً في المساء، رأيت صفية في بيت النار، خشيت أن أقابلها، كنت مرتبكا، لا أدري كيف خطرت في رأسي فكرة التجسس على أقاربي، مع علمي أن هذا يخالف وصايا السحرة القدماء، قرأت تعويذة التخفي لأول مرة، ثم اقتربت من حجرة شقيقاتي، وقفت متردداً عند باب المأوى، خشيت أن يرينني، رأيتهن جالسات باسترخاء في وضعيات مختلفة، آمنات وديعات، قلت لنفسي: إن رأوني سأدعي البراءة وأطلب العشاء.

وضعت يديّ على الباب نصف المفتوح، ودخلت دون أن أحدث أي صوت، كانت أضواء السراج والشموع تملأ الحجرة الصغيرة، ورائحة البخور تنفح بكثافة، تملكني العجب، جلست في موضع خالٍ، كانت عينا شقيقتي حليمة مصوبة إلى موضعي، هل تراني؟ فكرت. قالت نعمة بشكل مفاجئ:

ـ اهتز باب المأوى قبل قليل كأن شخصاً ما أمسكه.

تقدمت سلوى ناحية الباب ومطت رأسها إلى الخارج، ونظرت، ثم عادت إلى موضعها وهي تقول بيقين:

ـ هناك تيار هواء في الخارج.

ـ لِمَ لا يتحرك الآن؟

ـ صفية في بيت النار، ونحن قربك، لا تخشي شيئاً يا رعديدة.

ـ أصبح المأوى مخيفاً بعد رحيل سعد.

قالت ذلك حليمة، في تلك اللحظة أقبلت صفية بالعشاء، كعك وحليب ولبن وخبز ساخن، وعسل محلي وبيض، فقلت لنفسي: الماكرات يأكلن وجبات شهية في غيابي، بالهناء والشفاء، أوشكت صفية أن تدهسني، فابتعدت عن طريقها بالوقت المناسب، سمعتها تقول باستغراب:

ـ سمعت جلبة للتو؟ هل أتى أحد؟

ـ لعل أبي ومريمة في الطريق.

ـ هل ننتظرهما على العشاء؟

ـ حتما، ينبغي الانتظار قليلاً.

سمعت وقع أقدام، فقلت لنفسي كأني أخاطبهن: إنهما قادمان. اهتز باب المأوى، وظهرا، مريمة في المقدمة لأنها حامل، وأبي يتبعها ممسكاً خاصرتيها من الخلف بحرص، كان طلق الوجه متبسماً، لم أره هكذا من قبل، كأنه استعار وجه رجل آخر، ارتفع صوته قائلاً:

ـ هذا المأوى جميل، لكنه صغير، لن يمر شهر حتى نكون في منزلنا.

ـ لكن يجب أن يكون أخي سعد معنا.

نظر أبي إلى حليمة، وأجاب بحدة:

ـ ماذا جرى لك يا حليمة؟ نحن لم نطرده أو نسيء إليه.

اتجهت مريمة ناحيتي، فأجفلت جانباً، انتبهت إلى صوت إجفالي، ثم جثمت في موضعي، وعادت لتتابع صوت أبي وهو يخاطب حليمة مضيفاً:

ـ شقيقك مفتون بهذا المأوى، هل تستطيعين إقناعه بالعدول عن رأيه؟

ـ أخشى أن يرحل عن الهضبة.

غمس أبي يده في العسل ورفعها إلى شفتيه، وامتصها قائلا باستبعاد:

ـ لا أظن ذلك، إنه الآن تحت شجرة يراقب الأبقار وهي تجتر طعامها.

كنت جائعاً، لكن لا يوجد فراغ حول المائدة، رأيت مريمة تجلس باسترخاء حاجزة لجسدها مكان شخصين، اقتربت ومددت راحتي بحذر لأخطف كعكة، في الوقت نفسه مدت نعمة الرعديدة كفها فاصطدمت بأناملي، فأجفلت صائحة:

ـ واه، ما هذا؟ شيء ما صدم يدي!

قالت مريمة مؤيدة:

ـ وأنا شعرت قبل قليل بحركة إلى جواري، سأتحقق من ذلك الآن رغم أنني وعدت أبي ألا أستخدم التعاويذ إلا للذود عن نفسي.

فوجئت بها تتلو تعويذة كشف الأجساد المتخفية، لا ريب أنني سأظهر في قعر المأوى، فصرت أتلو تعويذة التخفي الكبرى، وهي التعويذة نفسها التي تخفي الملائكة والشياطين عن عيون البشر، ظهرت في المأوى أصغر الكائنات وفأر صغير كان يتحرك في السقف، وحشرات صغيرة لا تراها العين، أردفت مريمة في النهاية باطمئنان:

ـ كلوا هنيئاً، لا شيء هنا.

تنفسوا الصعداء بارتياح، بينما جلست جائعاً أراقبهم وهم ينهشون الطعام، كنت محشوراً في الزاوية، مللت من حديثهم التافه عن المنزل القادم وحجراته والموضع اللائق الأجمل على قمة الهضبة، حتى قال أبي بشكل مفاجئ وهو يرنو إلى شقيقتي صفية:

ـ هناك خاطب يطلب يدك للزواج؟

نكست رأسها وصمتت كعادة فتيات القرية، لمعت عينا أبي بانتصار، ثم رسم على شفتيه ابتسامة عريضة مضيفا بزهو:

ـ كبير قرية، لديه حقول ومواشي ومال.

ظلت عينا صفية مصوبتين للأرض، تمنيت أن ترفع رأسها لأقرأ عينيها، لكنها لم تفعل، سرعان ما نطق أبي اسم الخاطب بملء صوته المبتهج:

ـ إنه سيلان.

قفزت من الزاوية لأنقض عليه، سمع الجميع صوت انقضاضي، وصاحت نعمة الرعديدة:

ـ هل سمعتم ذلك؟

أرهصوا السمع، راحوا يقلبون أبصارهم في الجدران والسقف، سمعوا صوت حيوان في الخارج، فعاد الهدوء والحديث، كانت عينا صفية هادئتين مبهورتين، أما ملامح مريمة فكانت مكفهرة تميل إلى الخجل، لكن سرعان ما استعادت لونها المشرق، وهي تنظر إلى وجه صفيه الساكن النبيه، ثم قالت باندهاش:

ـ إنها موافقة.

وجوه شقيقاتي الأخريات لا توحي بشيء، ماعدا نعمة التي تليها بعام واحد في السن، بدت خائفة مرتابة، ظلت صفية شاردة تغير موضع جلوسها متحاشية النظر في وجه أبي، همست نعمة في أذنها شيئاً، سمعتها تقول بارتيابها المعهود:

ـ ستكون لديك ضرة تعيشان في منزل واحد.

ـ لا يهم، أنا لا ريب الأصغر، سأكون الأثيرة لديه.

ـ إنه كبير في السن يا مجنونة.

ـ لا يهم، إنه كبير قرية يا رعديدة.

ـ لعل منزله يغص بالبنين والبنات.

ـ لا يهم، سأنجب له المزيد من الأطفال.

ـ لعله بلغ سن اليأس، وربما فاجأه الموت في ليلة الزفاف.

ـ اسكتي يا غراب النحس.

قررت أن أخرج من المكان لأذرف ضجري وغضبي في الخارج، خشيت أن أحاصر في الداخل حتى تزول تعويذتي وأظهر للعيان دون أن أشعر، فللتعاويذ أعمار محدودة مثل أي شيء آخر، لكن أبي سبقني، وقام متثاقلاً، وساعد امرأته على النهوض، وخرجا، دعا صفية إلى الخارج، ظننت أنه يريد أن يطمئن إلى أمر قبولها، أو يوضح لها كثيراً من التفاصيل حول الخاطب لتبرئة الذمة، فطالما تكون هناك أشياء كثيرة تقال على انفراد، ما يعطي الأمر بعض الجدية، كان طريقي مسدوداً، نعمة وحليمة واقفتان على الباب ينتابهما الفضول، كنت في حال من الكدر والضيق، بحيث دفعت الفتاتين وخرجت مثل سجين فر من معتقله، جعلت نعمة تصيح في وجه حليمة:

ـ كفي عن دفعي، لازلت صغيرة على مثل هذه الأمور.

ـ لم أفعل ذلك، شيء ما دفعني أيضاً.

ـ أنت تكذبين.

لم أسمع بقية الجدال، مشيت مبتعداً، ثم التفت إلى المأوى بأسى، كان الضوء يتسرب من نافذة حجرتي الصغيرة، عدت أدراجي، ودنوت من باب الحجرة، رأيت أبي وصفية مقرفصين عند حفرة النقود، كانت مريمة واقفة بقلق عند النافذة، اقتربت أكثر حتى وقفت فوق رأسيهما، كان أبي يوغل يده المرتعشة داخل الحفرة ويغترف الريالات ويحشوها في ثيابه، لم أكترث، رحت أتفرج عليهما، وهما يسرقان النقود المكدسة، كانت مريمة مازالت تتحرك بضجر وسط الحجرة، عجبت عما يجعلها في حال من القلق والتوتر يرثى له، هل ذلك من أجل أكوام من المعدن تزيد كل يوم؟ لِمَ تبعث هذه القطع المعدنية في نفوس الناس كل هذا الهلع والقلق؟ كدت أن أوحي إليها أن تكف عن تحريك قدميها على الأرض، لأني لست في عوز إلى النقود، إنها تأخذ عليّ حيزاً من الأرض في حجرتي الصغيرة، وسأكون سعيدا حين أراها فارغة، لكن صبر مريمة نفد، وصرخت في زوجها:

ـ كفى يا سرحان، لا أريد أن يأتي طفلي ووالده في السجن.

رنا إليها وقال ضارعاً:

ـ ولدي سعد لا يحفل بالمال، رغم ذلك يهطل عليه كالمطر، كما ترين، نحن قادمون على تشييد منزل كبير في الهضبة.

ـ أعد المال إلى موضعه.

ـ مريمة أرجوك، هو ولدي، وماله هو مالي، يقول النبي محمد....

ـ اسمع أيها الكسول، طالما تبيع المواشي خلسة، وأنت تردد قول محمد، أنتم المسلمون تجيدون السرقة بذرائع دينية، لن أبيت معك على فراش واحد...

خرجت من الحجرة الصغيرة حانقة، قذف أبي ما بيده ونفض ما بحوزته إلى الحفرة، وهرول خلفها، كذلك غادرت صفية والخوف مرتسم على ملامحها، أظنها خافت أن يؤثر ذلك على زواجها من كبير القرية، طويت فراشي وعدت إلى شجرة التالق، تمددت على جزء مستو مقعر من فروعها العملاقة، غصت بالتفكير وسط عالم غريب بعيد، كل شيء فيه مجاني، لا مساكن، لا زواج، لا كبير أو صغير، ولا قواعد أو قيم، كنت على جذع الشجرة أشعر بسعادة غامرة، ظننت أن الآخرين يعيشون في غفلة شديدة عنها، يبيتون في منازل محاطة بأسوار عالية وأبواب مغلقة، يظلون في خوف دائم من اللصوص والموت، مساكنهم تلك تقتطع من الجبال وتسقف من الأخشاب، نوافذها وأبوابها أيضاً من الخشب، إن بناء أي منزل يعني موت عدد من الأشجار، في الوقت عينه لا تضمن المساكن الطينية والخشبية لأصحابها أن يكونوا آمنين وسعداء، لأنها سرعان ما تعطب وتدمر ويتشرد سكانها، ليس بفعل الزمن أو الكوارث، بل إن الناس يدمرون مساكن بعضهم كما حدث في الرباط، لا يهم، أنا هنا أنام قرير العين، على ظهر هذه الشجرة الضخمة التي لا تستطيع فؤوس الحطابين اجتثاثها، سقفي السماء الشاسعة وبساطي هو الأرض، لا يوجد مسكن واسع بمثل هذا الحجم والرونق والصفاء، يا لي من محظوظ! أنظر إلى الأسفل لأجد الحيوانات قائمة أو رابضة، لا تكترث بأي شيء، خطر في رأسي إنني سأبلغ ذروة سعادتي حين أتجرد من الحياة البشرية، لكن كيف أتخلص من بشريتي، لغتي، ديانتي، عاداتي وتقاليدي، وكذلك عقلي الذي أفكر فيه بالقيام بعملية التجرد؟ هل يعوزني وقت كبير لأتخلص من كل

هذه القيود وأصل إلى مرتبة حيوان يعيش بسلام على الهضبة؟ أسأل نفسي ولا أجد جواباً.

في الصباح أيقظتني أصوات العمال وهم يطرقون الأرض بأقدامهم، بنشاط وصبر، رأيتهم قادمين أسراباً لتشييد منزل أبي، كانت دمدمة أصواتهم مرعبة وهم يعلنون عن بداية يوم عمل جديد، سار أبي أمامهم ليرشدهم إلى موضع منزله الكبير القادم، وقف أعلى الهضبة قريبا من شجرتي متفرسا في المكان بإعجاب، أمر باجتثاث الأشجار والشجيرات البرية التي تغطي الأرض، كان الموقع مميزا مطلا على وديان خصبة خضراء وثمة هواء عليل منعش يداعب الوجوه بشكل لطيف، تصاعدت ضربات الفؤوس على الأشجار وسمعت صرير المناشير، رأيت من مكاني الجذوع والفروع تتهاوى، أخذوا يكومونها جانبا وينظفون المكان، ما لبثوا أن ضربوا الأرض بمعاولهم الحادة المصنوعة من الحديد الزهر، لكن ضرباتهم لم تخدش سطح التربة، كأن الأرض جزء من صخرة، انتقلوا إلى موضع آخر، وأعادوا رسم مخطط الحفر والتأسيس للمنزل، ثم ضربوا بقوة، كنت على شجرتي مختبئا أتطلع إليهم بتشفٍ، أسمع أصواتهم الغاضبة المتذمرة بعد كثير من الضربات العنيفة التي سددوها إلى الأرض الصلبة، ثم يتحولون للتو ـ تحت إلحاح أبي ـ إلى عدد آخر من المواضع القريبة، ثم يضربون الأرض بقوة أكبر، في نهاية المطاف، رموا المعاول المحطمة صارخين في وجه أبي الشاحب:

ـ تريدنا أن نؤسس منزلك على صخرة! كلا، لن نفعلها ثانية.

ـ ليست صخرة، إنها تراب.. هيه، عودوا...

أدركت أن أبي في وضع بائس بعد إخفاقه في البناء، سمعته في المساء يخرج من مأوى الفتيات، ويصفق باب مأواه بعصبية، قائلا بتبرم:

ـ مازالت أغراض هذا الفتى الحرون في مكانها.

أتى صوت مريمة غريباً حاداً وهي تقول بارتياب:

ـ تأخرت عن العودة! ماذا كنت تفعل في الخارج؟

ـ ماذا تظنين أن أفعل؟ أبحث عن آثار ابني الحرون حتى أفاوضه، (نفخ بيأس) لا أريد لطفلنا أن يولد في هذا المأوى البغيض، سأقدم له أي تنازل مقابل أن يبطل مفعول تعويذته البغيضة.

ـ احتفظ بماء وجهك يا رجل، لن يقبل بالتأكيد، إنه عنيد للغاية، ما يحيرني هو كيف استطاع أن يستلهم هذه التعويذة الكبرى على حداثة عمره؟

ـ بأي حال، والدك هو المذنب إذ حشا التعاويذ الخطيرة في رأس فتاي الوحيد، ألم يجد شخصا من عائلته يلقنه العلوم الخبيثة! لن أغفر له ما حييت.

ردت بصوت متهدج:

ـ أفٍ منك، لقد تذمرت ذات يوم إذ يلقن فتاك هذه التعاويذ، وعرضت نفسي بديلا له، لكنه نصحني أن أكتفي بما لديّ حتى لا أتعرض للعقاب كما سيحدث له، كان يدرك ما يفعل، لذا أرجوك، لا تحقد عليه، أظنه شبع موتا.

ـ لقد كنت متباهية لا تجيدين التودد، في النهاية، وضعتِ له عقار فقدان الإحساس وتحالفتِ مع الكبير مرشد، كيف تريدين أن يثق بك بعد ما حدث؟

ـ ماذا تقول أيها الأبله؟ لا يجوز أن تعتب على امرأة كانت مسحورة، لقد بقيت متباهية وفخورة مغمورة بحنان والدي حتى اقترنت بك، بعدها أصبحت مشردة وذليلة، ويتحتم أن أهجرك إن لم تخرجنا من هذا المأزق، لا أريد المزيد من الإذلال.

سكت هنيهة ثم رد باستسلام غريب:

ـ سامحيني يا مريمة، أنا غاضب ومشوش بسبب ما جرى، أعرف أن حالنا صار مزريا هنا، أظن أن بوسعنا أن نبني منزلنا في مكان آخر، وندع الهضبة لهذا الفتى المتشرد.

أحجمت عن الرد، فاستأنف بلؤم مغيرا دفة الحديث:

ـ أوه، لم أخبرك بعد، لقد عثرت صفية على خاتم الشياطين المفقود داخل مخلاة سعد، كانت قنينة العطر إلى جواره فارغة. أتدركين ماذا يعني ذلك؟

صاحت بانفعال:

ـ يا له من جاحد، كيف يخون معلمه! أخشى أن يكون الخاتم صالحا للاستخدام.

ـ لا أدري، لم أجرؤ على لمسه، بل انصرفت للتو تفاديا للمتاعب.

ـ أريد أن أرحل عن الهضبة، لا أود أن أرى وجهه ثانية.

ـ لم نعد نراه منذ أيام، لذا طلبت من صفية أن تتفقد أغراضه لأرى إن كان مازال مقيما في الهضبة..

ـ أيها المغفل، لقد حذرتك من الاقتراب من ممتلكاته، لعله في مكان ما يرانا، ويراقبنا، ويتنصت علينا الآن.

ـ آه، هذا فعل فظيع، دعيني ألقي نظرة.

سمعت وقع خطوات أبي وهو يدور حول مأواه بتوتر، ويقذف الأحجار هنا وهناك، فأسمع أصوات اصطدامها بالأرض بوضوح، لا يدرك أنني أسمع من موضعي على الشجرة كل ما يدور في الهضبة، في العادة لا أكترث بأي شيء يقال عني، لكن أمر الخاتم والقنينة صار يؤرقني، لا أذكر أنني أخفيته في مخلاتي المهملة التي أضع فيها قواقعي وصدفي وأشيائي الصغيرة التي استخدمتها في اللعب يوما ما، في الغالب، لم أعد أنظر في هذه المخلاة، رميتها بمكان ما في حجرتي دون اكتراث، أما مخلاتي الأخرى، وهي مخلاة معلمي، فإنها تحوي جملة من كتبه الخطيرة، وقد حصنتها بالتعاويذ، وتركتها على مشجبٍ عالٍ في جدار المأوى حتى لا تصل إليها الأيدي، وأي شخص يلمسها يصاب بالرعاش. كنت فوق شجرة التالق مستلقياً على ظهري، لكني انبريت جالساً، ثم نهضت شاعرا بالقلق، صرت أقفز من فرع إلى آخر كالسعدان، أفعل ذلك عندما أكون ثائرا.

غضبت من شقيقتي صفية، تلك الفتاة التي ظلت ترعاني، وتلاحقني في أزقة قرية الرباط، كيف تجرؤ على تفتيش أغراضي؟ أخشى أن تلمس مخلاتي الأخرى الخطيرة، رباه، هناك حركات غير اعتيادية تدب في مأوى الفتيات! أسمعهن يتحدثن عن شخص مريض، ويطلبن المساعدة من أبي وامرأته، في تلك اللحظة صار الشك يدب في روحي دبيب النمل الأسود في مستودع الحبوب، قررت أن أهبط إلى المأوى لأرى ما يحدث، كنت متردداً، لأني أعيش في حالة التخفي، ولا أحب أن أرى تلك الوجوه المتجهمة، ظننت أن ابتعادي يروق عائلتي.

اقتربت من مأوى الفتيات، مازالت تفصلني عنه عدد من الأشجار، فجأة بدد صوت حليمة هدوء الليل، وهي تنادي:

ـ سعد، أين أنت؟

أجبت وأنا أتلو تعويذة الظهور:

ـ أنا هنا يا أختي.

ـ صفية مريضة.

ظهرت أمام عينيها، اقتربت، رأيت في نظراتها بعض العتاب بسبب غيابي، هي الوحيدة التي يفرحها حضوري، كان أبي وامرأته يمسكان جسد صفية المرتعش، شقيقاتي بالقرب ينشجن بتأثر، حين دخلت أفسحن لي طريقا لأراها، لم أر تعبيرات الوجوه، شعرت بجفائهم ونظراتهم المبغضة، لم اكترث، أمسكت بأناملي جبين صفية، صرت أهمهم قارئا تعويذة فك الرعاش، حتى استفاقت صفية أخيرا وسكن جسدها، نظرت إلي بخوف شديد، ثم أشاحت وجهها إلى الزاوية، وظلت متجهمة، فقلت بصوت مختنق:

ـ لا تلمسوا أغراضي، إنها خطيرة.

نظرت مريمة إليّ بازدراء، فيما زمّ أبي فاه مكشرا بتأفف وغيظ، انتحى جانبا معبرا عن حنقه، كانوا يبدون منقبضين وخائفين أيضا، خرجت سريعاً ولذت بالظلام، لأنه يستر المظاهر البشعة، كنت أرتدي جلد خروف، يغلف وسطي بقايا لحاف قذر رقيق، وتلصق بشعري الملبد عيدان من القش ونتف من الأوراق الجافة واللحاء وبراز العصافير، دخلت حجرتي وكببت محتويات مخلاتي الصغيرة على الأرض، تناثرت منها قواقع، أصداف، حصى ذات ألوان مبهرة، وأيضا حبَّات كهرمان كبيرة حمراء، وكثير من الخرز واللول مما تعلقه العجائز على أعناقهن الضئيلة، نط الخاتم إلى قعر الحجرة، أسود، حديدي، عريض الفص، عليه رمز غريب يشبه إنسان مقرفص له جناحان كبيران رقيقان كجناحي خفاش،

قررت أن أحتفظ به في مخلاتي الأخرى، لأنه يخص معلمي وحسب، أعدت كل ما تناثر على الأرض إلى المخلاة الصغيرة، في تلك الأثناء، اقترب ضوء من حجرتي، ثم ظهرت حليمة عند الباب، تسمرت هناك دون كلام..

- حليمة..

- أبي سيرحل عن الهضبة. ردت بصوت مختنق:

قلت بفتور:

- أعلم.

- والبنات أيضاً.

دهشت ولذت بالصمت ثم سألتها:

- وأنتِ؟

- لا أدري، لا أحب أن أدعك وحيداً.

- هل تأتين معي إلى أعلى الهضبة؟

- هذا ما أريده.

جمعت المال المكدس في كيس من الخيش مخصص للحبوب، صارت العملات ثقيلة متماسكة كأنها قطعة واحدة، أخذت مخلاة معلمي أيضا، تركت كيس المال قرب مأوى أبي، وصعدنا متماسكين كعروسين صغيرين، أكاد أطير فرحا، أظن أنني يومها ضحكت أو انتحبت لفرط النشوة، كانت حليمة تشبه أمي سلطانة، سمعت أبي يقول ذلك ذات يوم، طالما أحزن حين أتذكر أنها ماتت عند ولادتي، لهذا السبب أنظر إلى شقيقتي الصغرى نظرات شغوفة ومعذبة.

وقفت حليمة تحت شجرة التالق المهيبة بخوف، كانت تعاني من رهاب الأماكن المرتفعة، لكن الصعود إليها مسلٍ كالسير في الطرق الجبلية، حفزتها وأمسكت بأناملها المرتعشة، قدتها على ممرات الشجرة، فروعها الكبيرة الثابتة أشعرتها بالأمان، بعض الطيور الليلية كانت تخفق بأجنحتها على الفروع القريبة، الحيوانات في الأسفل تجتر وتتحرك بخفة، لم نكن وحدنا هناك، عالم آخر يعيش في العراء، نتصل مع الطبيعة بشكل مباشر، استلقت حليمة على فرع عريض، جعلت تصغي لصوت الشجرة وسكونها، لكن هاجس سقوطها أرغمنا على الهبوط إلى أسفلها، كانت تشعر بالبرد، فدثرتها بجلد الخروف خاصتي، ثم أسدلت عليها اللحاف الصغير، سرت إلى تجويف الشجرة، وحفرت في التراب ودفنت مخلاتي أو مخلاة معلمي التي تحوي كتبه الخطيرة، وزودتها بتعاويذ عديدة منها تعويذة الثعبان، فأي شخص يحاول أن يحصل عليها يطلع له ثعبان مخيف عريض بسمك ساق شجرة سدر، عدت ونمت إلى جوار أختي متلمساً من دفئها.

***

تسامى دار أبي الأبيض على الهضبة الصغيرة المقابلة، حتى أصبح زاهياً يتلألأ وسط أشعة الشمس كنجم منير، ظل دفق المال جارياً يجلبه الفلاحون الذين يبيعون المواشي ومنتجاتها ويقتطعون أجرهم بأنفسهم، يأخذون ما شاءوا من الريالات، يثرثرون حول انخفاض أسعار المواشي بسبب الجفاف وبعض الأوبئة المتفشية التي تخيف الزبائن وتجعلهم يحجمون عن الشراء، لكني لا أطلب منهم أي شيء ولا أناقشهم ولا أتبرم منهم، حتى لو لم ينفحوني المال، لا أدري لِمَ يتبرمون من سوء الحال، ويرددون حديثهم عن

انخفاض أسعار الحيوانات، كان شكلي في مجملة يوحي إلى أني فتى جشع لا يمن على جسده بقطعة إزار رخيصة الثمن، يرون المال الذي يجلبونه إليّ مبعثرا تحت الشجرة، ينظرون إلى مأواي البائس، يرفعون أبصارهم نحوي باشمئزاز، حين يروني جالسا على فرع شجرة التالق أقرأ في عيونهم عشرات الشتائم والكلمات البذيئة، "هذا الفتى المجنون البغيض نراه دوماً على الشجرة كالقرد، ولا يستقبلنا كما ينبغي"..

أومئ إليهم أن يرموا النقود أسفل الشجرة ويذهبون إلى حال سبيلهم، فيقذفونها ويفرون، في المرة الأخيرة رأوا النقود مازالت متناثرة حول الشجرة فآمنوا بجنوني، ولم يعودوا إلى الهضبة ثانية، صرت وحليمة نأكل اللحم النيئ ووريقات خبز العصافير، أو نجول في أرجاء الهضبة باحثين عن ثمار العرم والخنس والكُسمع، نجرب أكل بعض الأعشاب والنباتات الغريبة والضارة، حتى تصيبنا نوبات من الإسهال والغثيان، فنتخلى عن أكلها، كنا نفرح حين نرى الحيوانات تتزاوج أسفل الشجرة، لأن ذلك يعني المزيد من الحيوانات المتوالدة.

ظل أبي يأتي من حين إلى آخر، فيأخذ النقود من تحت الشجرة، ويؤوب إلى هضبته، لكن بعد أن نضب المال راح يكيل لنا الشتائم، صار يستفزنا ويرفع عصاه في الهواء مهدداً، بات يزدري ملابسنا ويسد أنفه متقززاً من روائحنا الكريهة، لا أدري من أوحى إلى الناس أنني معالج وطارد للشياطين، فأتوا بأمراضهم وشكاويهم يطلبون الشفاء والتمائم الحارسة والكثير من الرقى الغريبة التي لا أفهم عنها شيئاً. يأتون إلى أسفل الشجرة، يرفعون أصواتهم بالنداء، أما مرضى الصرع والعوارض الشيطانية فكانوا يتخبطون بشكل أهوج، ويقوم ذويهم بحركات منفرة غاضبة، يضربونهم بقسوة،

ويحيطون أقدامهم وأيديهم بالسلاسل أو الحبال، وهذا يضاعف من جنونهم وألمهم، ما يجعلهم يزعقون دون توقف، باتت حيواناتي تخاف وتجفل، فيزداد بي الضيق والسخط، لم يصدقوا حين أخبرتهم أني لست معالجا وليس لي دراية بالرقى والطب الشعبي، قالوا بل أنت معالج شهير، وصاحب كرامات جليلة ترافقك منذ طفولتك. غضبت بشدة، قررت أن أردعهم عن الصعود إلى هضبتي بشتى السبل، أخذت أحيلهم إلى الأعشاب الضارة في الهضبة، لكي أطفئ شموع حياتهم، نصحتهم بأقذر الوصفات، كبراز الحيوانات وبول الحوامل، كما كتبت على التمائم التي طلبوها أبشع الشتائم، قلت فيها إن يعودوا إلى الهضبة ثانية، فإنهم أبناء قحاب وسفلة وكلاب، والغريب الذي لا يصدق أن أقارب المرضى عادوا بعد ذلك حاملين الهدايا، وقدمت النساء جنيهات الذهب امتناناً وعرفاناً، لأن المرضى كانوا يشفون! كدت أجن من العجب، لم أصدق ما يجري، تساءلت هل هم جادون أم يهزلون؟ كان أبي هو المستفيد من هذا كله، يأتي كل يوم ليأخذ المال ويعود إلى منزله قرير العين، اكتشفت أنه كان يشيع في كل مكان عن معالج الهضبة الشهير صاحب الكرامات، لقد رزق مؤخرا بولد ذكر أطلق عليه اسم إسحاق، وهو اسم يسمى به اليهود والمسلمون.

في تلك الفترة، زوَّج شقيقاتي صفية ونعمة وسلوى، وابتاع قسماً كبيراً من حقول الإقطاعي نجيم، فصار له أجراء وأتباع يحفون حوله أينما ذهب، في يوم أتى إلى الهضبة راكباً على متن فرس بيضاء مذهبة السرج، حينها رأى نهدي حليمة الصغيرين يطلان كعصفورين من تحت قميصها المهلهل، فأصيب بالخزي، وقام يطاردها لكي يعيدها قسراً إلى منزله، عند هذه الوهلة، وقفت في وجهه لأول مرة، وقرأت عليه تعويذة الجمود، ثم حظرت عليه دخول هضبتي، بل وهددته أن أحوله إلى قرد أو أتان، أو شيء ما،

لا أدري - لفرط غضبي - أي كلمات بذيئة نفشتها في وجهه، وعَظُم على أبي أن أخزيه وأكسر شوكته أمام الأجراء والأتباع وجموع من المرضى وطالبي التمائم، فهو كبير قرية سابق وإقطاعي كبير الآن، وكبرياؤه لا يكاد يوصف، لذا نظر إلي نظرة مريعة قاتلة، بثت الرعب في نفسي، ثم غادر محتدا ساحبا الأتباع والأجراء خلفه.

دق ناقوس الخطر في أعماقي، لكن أي نوع من الأخطار، عرفت إن في نظرته حكم حاسم بالقتل، لا أدري.. طويت حليمة تحت جناحي بخوف ولذنا بشجرتنا المعمرة، ظل المرضى وطالبو التمائم يصرخون في الأسفل دون أن نعيرهم أدنى اهتمام، في المساء، تركت مكاني على الشجرة، وهبطت من الهضبة في وضع التخفي، متوجها صوب هضبة أبي للمرة الأولى، اقتربت من الدار البيضاء اللامعة، كان هناك حارسان يحملان بندقيتين، يتحركان خارج البوابة الضخمة، وقفت أمام السور الرافع، لم تكن داراً للسكنى كما كنت أظن، بل قلعة حصينة تشبه القلاع الحربية التي تبنى للاحتماء من هجمات الغزاة أثناء الحروب القديمة، أمضى أبي قرابة عامين وهو يرفع هذا البناء البديع، ورغم لامبالاتي بأي شيء فقد لفت البناء الكبير اهتمامي، عجبت أن ينجز هذا العمل الضخم من عوائد بيع المواشي ومنتجاتها خلال بضع سنين، لم يكن يمر يوم في تلك الفترة دون أن تدخل الهضبة عشرات الحيوانات المُهداة من أصحابها، لحسن الحظ، أن معظم الحيوانات بيعت لأن العشب لن يكفيها لاسيما في مواسم الجفاف، لامست السور العالي بانفعال، كان مشيدا بالرخام الأملس ويبدو متينا لامعا، كأنه لوح زجاجي كبير، لا أظن أن بوسع نملة أن تتسلقه، درت حوله باحثا عن ثغرة لاختراقه، بدا قويا وباردا ارتفاعه يربو عن طابقين، والوقوف إلى جواره يبعث على الغم والإحباط

لشخص متقشف جاء طامعا باقتحامه، عرفت أن هذا الشيء لا يجدي معه السحر والتعاويذ ولاسيما أن الصدمة التي خلقها البناء في نفسي أحبطت حماستي، ابتعدت عنه مسافة عشرين خطوة، جلست مقرفصاً مقابل البوابة أتأمله بدهشة، ثم فكرت في العودة إلى هضبتي بعد أن تملكني اليأس، فجأة سمعت صوت أبي يأتي من الداخل، رأيت الحارس يفتح البوابة الخشبية الضخمة، فأسرعت ودخلت حاشراً جسدي عبر فجوة صغيرة بين الحارس والباب، عبرت الفناء ودنوت ببطء من باب الدار الرئيس ودخلت، كان أبي يأمر الحارس بإطلاق النار على أي فتى يلبس إزاراً قصيراً مهلهلاً، وجبة صوفية من جلود الخرفان.

كان منتفشاً وسط قميص نومه الزاهي، أمسى جسده متورما منعما مثقلا باللحم المترهل مثل ثور يربى ليقدم أضحية في عيد الأضحى، لكن المترفين يخفون أجسادهم المنفرة وسط ملابسهم الفضفاضة، ويوارون ضعفهم وخوفهم خلف القساة والمتغطرسين والحمقى من أتباعهم الذين يتأهبون ليحظوا بلقب مجرمين بمجرد أن يطلب منهم سيدهم ذلك، لم يعد أبي يتكلم كثيراً أو يبتسم كما كان يفعل، بل كان يرتدي فوق ملامحه المألوفة وجها متكلفا مستخفا بكل شيء من حوله، يبدو كمن يظن نفسه شخصا خارقا لا يمكنه العودة للوراء أو القبول بالهزائم، حين عاد من البوابة تبادل ومريمة بعض العبارات القصيرة، طالبا منها أن تيقظه في وقت مبكر من الصباح، سألته عن سبب ذلك، فأجاب باقتضاب:

ـ سأقابل العامل.

ـ أتقصد صاحب السعادة؟

ـ إنه عامل المدينة.

قالها بكبرياء ودخل حجرته وصفق بابها خلفه بتوتر، فخاب أملي، وتساءلت بحنق، هل جئت فقط لأسمع هاتين الكلمتين "عامل المدينة"؟ مشيت مرتبكاً، أبواب المنزل مغلقة، لا أستطيع أن أفتحها دون أن تصدر صريراً، اصطدمت قدماي بشيء ما، كانت مريمة مازالت في الصالة، فجعلت تدور في المكان وهي تقول:

- الفرس تزعجنا دائماً، حين تخبط أقدامها على الأرض.

خرج والدي من حجرته وهو يقول بانزعاج:

- ماذا يحدث؟

- المشكلة نفسها، الفرس..

- سأوصي بنقل زريبتها إلى الجانب الخلفي للدار.

- أنت تقول ذلك دائماً.

تسللت متخفيا إلى حجرة أبي، ليس في بالي خطة مدروسة، ما أصبو إليه هو أن أحول دون ذهابه إلى العامل، ما لبث أن دخل وأوصد الباب بالمزلاج، ثم تقدم من سريره الخشبي واندس تحت لحاف صوفي قشيب، تثاءب مرتين ومكث برهة قصيرة شاردا ميمما بصره نحو السقف، ثم تلاقت رموشه ببطء، وانطفأ كسراج نضب منه الزيت، بعد لحظات تصاعدت أنفاس سباته، فكرت في أن الأشخاص المترفين أمثاله لا يعرفون السهر والإرهاق الذي يصيب الفقراء، وقفت فوق رأسه، تبخرت من رأسي فكرة تجميده وكتم أنفاسه وهو نائم، أيقنت أن الإجهاز عليه يسير جداً، لن يكلفني ذلك كثيراً من الجهد، جلست على منامة مريحة ملاصقة لمنامته. عرفت أنها تخص مريمة، مكثت أشجع نفسي، ثم نهضت بعزم، شمرت عن ساعدي وصرت أتأهب لخنقه، لا أدري كيف بزغت

في رأسي وصايا معلمي الشيخ رعدان الذي حذرني من استعمال التعاويذ من أجل السرقة أو الخداع أو الغدر، نهاني عن التخفي لمراقبة الناس والتجسس على أفعالهم، لم ينهني عن القتل ربما لأنه لم يخطر على باله أنني سأفكر في هذا العمل الفظيع، شرد ذهني إلى معلمي طويلاً، تذكرت الكثير من أقواله وأفعاله الأخيرة، كان يقول لي أحياناً إن الأرواح تتخاطر وتتراسل عندما تشعر بالضياع، بحيث يكون في وسع شخصين أن يفكر كلاهما في الآخر بالوقت عينه، لكن كيف بوسع معلمي أن يفكر بي وقد شبع موتاً! لا أدري كيف تصورته في تلك اللحظة حياً في سجن أو متخفٍ مثلي في مأوى وضيع، شعرت بالإرهاق، فاستلقيت قرب أبي في ذلك الحيِّز الشاغر الذي يخص مريمة، كان الوضع مريحاً، وهواء الغرفة منعشاً بارداً، كانت الأفكار تتلاحق في رأسي تباعا، خلت نفسي ممدداً تحت شجرة التالق، وحليمة بجانبي مستغرقة في السبات، وأنفاسها تتصاعد بانتظام، أخذني سلطان النوم على غفلة مني، ولم توقظني إلا صرخة رهيبة أطلقها أبي في الصباح الباكر عندما أفاق ورآني بشكل مباغت أغط في النوم إلى جواره، أصابني الهلع، وأدركت أنني غدوت مرئياً، فقرأت التعويذة الكبرى، وعدت إلى وضع التخفي، لما عاد أبي يتبعه الحارسان، لم يجدوا شيئاً في الغرفة، راح يصرخ بغضب:

ـ ابحثا عنه في كل شبر داخل الدار، لست مجنوناً، لقد رأيته نائما إلى جواري، أردياه قتيلاً.

قرأت مريمة تعويذة إظهار الأرواح الخفية ولم تجد شيئاً، فقالت لوالدي بارتياب:

ـ لا شك أنك رأيته في المنام.

ـ رأيته كما أراك الآن.

كانت حجرة مريمة مشرعة الباب، سمعت شقيقي الصغير يصر باكيا بصوت زاعق مزعج دون أن يلتفت إليه أحد، كانوا مشغولين بأمري، فكرت أن اختطفه وأعدو هارباً، لأحرق قلب أبي الذي أفزعني بصراخه المشئوم، ما أقسى أن تصحو إثر صراخ مهيل جاهلا ما يجري من حولك**!** كبحت جماح نفسي الحاقدة، ثم اندفعت خارجا إلى الفناء، سمع والدي صرير الباب، وصاح على التابعين اللذين أقبلا مهرولين شاهرين سلاحيهما:

- إنه يفر الآن، أطلقا عليه النار.

تلفتا يمنة ويسرة متعجبين محتارين، ثم أطلقا النار بشكل عشوائي لفرط صراخ سيدهما المزعج الذي ظل يشير إلى الفراغ، كنت أرتجف رغم اجتيازي بوابة الفناء إلى الخارج، لبدت بعيدا عن البوابة وسط أشعة الشمس الدافئة، أراقب الدار بصمت، بعد مدة، لا أعرف كم مضى من الوقت، رأيت أبي يخرج راكباً فرسه البيضاء، يتبعه أحد الحارسين، مازال وجهه واجماً والهلع يلوح في عينيه الزائغتين، مرا قربي مبتعدين عن الدار، شعرت بالقلق، وسرت خلفهما على كثب، قلت لنفسي مخاطباً أبي بحنق: "هيه، أين تذهب؟ لو أردت أن أقتلك لفعلت ذلك في المساء"

أردت أن يدرك أنني أحبذ العيش بسلام في الهضبة، لكنه لم يعد يؤمن بفراستي وقدراتي، كما كان يفعل في الماضي، تمنيت لو يعود الحارس، لا أدري ما كنت سأفعل حينها، قد أعتذر له عن حماقتي، وأتوسل إليه أن يعود، أو حتى أضطر إلى تجميده وقتله، بقيت أتعقبهما على أمل آخذ بالتلاشي مع مرور الوقت، ظل الحارس مواكباً لخطوات سيده، وذلك أمر صار لا غنى عنه بالنسبة إلى أبي، ليس للحماية وحسب، بل مظهرا للوجاهة أيضاً.

تراءت منازل يريم، فأجفل قلبي في صدري، عزمت أن أجمد أبي وحارسه، وشرعت أقرأ تعويذة الجمود، ثم توقفت بيأس، لا أدري كيف انبثقت صورة معلمي ووصاياه إلى رأسي في تلك اللحظة، حذرني سابقا من الوقوف في وجه الأقدار، نصحني بالتحلي بالحكمة، رغم ذلك بقيت مشوشا ومترددا وعاجزا عن التحلي بالصبر والاستسلام للقدر، تفجرت في أعماقي مقاومة صبيانية عنيفة لما يجري، حتى أني شعرت بقدر كبير من السخط والمهانة، هذا غير عادل، قلت ذلك بحرن، لِمَ تزورني الآن يا معلمي؟ لا أريد وصاياك اللئيمة، دعني أوقف هذا الرجل الذي يروم أن يثير المتاعب، إنه والدي، وهذا لا يهم، لأن رابطة الدم لا تعني شيئا حين يسيطر الشر على أرواح الناس، وهكذا وبدلا عن تجميده بالتعويذة صرت أحاور معلمي بتوتر حتى غاب أبي وحارسه، عدت ماشياً بتثاقل، وعرجت على منزل أبي، فتصدى لي الحارس وأوشك أن يرديني، فصحت بأعلى صوتي:

ـ هذا منزل والدي، أريد فقط أن ألقي نظرة على أخي.

لحسن الحظ، كانت مريمة تطل من النافذة والصبي في حجرها، فزجرت الحارس، وأشارت إلى الصغير وفي عينيها شيء من الأسف والخجل، كان أخي ذو وجه جميل ضاحك وشعر رمادي وجسد ممتلئ وافر الصحة، يبدو أن أبي أوصاها أن تحجبه عن عيون الآخرين، لاسيما عن شقيقه الساحر سعد، نظرة خاطفة ألقيتها على "إسحاق" من باب الفناء، ولم أستطع أن أبتسم أو أقول شيئا لطيفا، لأن الحارس الفظ ظل يدفعني بقسوة ويلح علي بالمغادرة، فانصرفت بهذا المكسب الوحيد من رحلتي، نظرة واحدة إلى شقيقي وهو يلعب في حجر أمه ويحرك أنامله في الهواء بلا اكتراث.

في هضبتي رأيت حليمة مقرفصة على أعلى فرع في الشجرة، تراقب الطرقات، نظرت إلي بحنق شديد، عيناها وارمتان، لا أدري بسبب السهر أم البكاء، بعد قليل أزالت حنقها وسألتني باقتضاب:

ـ أين كنت؟

ـ في الهضبة الأخرى.

قلت ذلك بانكسار المخفق، وأضفت موفراً عليها السؤال التالي عن سبب ذهابي إلى هناك:

ـ ذهب أبي ليشكوني إلى العامل، ولم أستطع إيقافه.

ـ ماذا يعني ذلك؟

ـ الجنود.

ـ هل سيطردوننا من الهضبة؟

ـ لا أدري، إنه أمر كريه.

ـ يا ويلي..

كانت خائفة ترتعش كالسنبلة التي تلاعبها الريح، أختي المسكينة مازالت تذكر يوم دمر الجنود قريتنا وطردونا في تلك الليلة الرهيبة، لكن الرجل ـ كما تعارف لدينا ـ لا ينبغي أن يبدي خوفه أمام النساء، فقلت بصلابة:

ـ لا يهم، لن أدعهم يقتحمون الهضبة.

قفزت إلى الأرض من أحد الفروع الواطئة، وألصقت أذني بالأرض، لأوحي لها عن مهارتي في معرفة الاهتزازات

والأصوات الباطنية التي تحدث في الأسفل، لكنها لم تكترث، إذ أتت الحيوانات لتشرب من أحواضها المقضضة، فانشغلت عني بمراقبة القطيع، وفصل المتدافعين والمتشاجرين، رحت للتو إلى أطراف الهضبة البعيدة، وصرت أجول هناك، قرأت بعض التعاويذ الحامية حتى المغيب، لكني في النهاية اخترت تعويذة الأفاعي، لعلمي أن الناس يخشون منها، في طريق عودتي إلى شجرة التالق، لمحت فرس أبي البيضاء ترعى على الهضبة الصغرى التي يقف عليها الدار، ظننت أنه عاد.

في المساء سمعت بضع صرخات على أطراف الهضبة من ناحية الشرق، ثم دوى صوت طلق ناري، عدوت باتجاه الصوت وأنا أظن الجنود قد جاءوا، تقدمت بحذر متأهباً لتجميدهم، لكن ذلك الصراخ الوحشي تمخض عن صوت امرأة وطفل يبكي في حجرها، كان الحارس قد ترك مريمة وهرب عائدا إلى الدار، ولم تكن تعاويذها الصغرى تكفي لصرف الآلاف من الزواحف الكبيرة والصغيرة، فقمت بصرفها بتعاويذي القاصمة، ثم نظرت إلى امرأة أبي بعجب، فنكست رأسها بخجل، ومشت أمامي وهي تقول بصوت مفجوع:

ـ قبضوا على والدك، بسبب خلاف على الأرض نشب بينه وبين ورثة الإقطاعي نجيم.

قلت باندهاش:

ـ رأيت الفرس الأبيض.

ـ لقد أعادها الحارس البغيض الذي فر قبل قليل.

تابعت بارتياب:

ـ وثائق بيع الحقول سليمة، أشك في أنه اعتقل من أجل ذلك!

ـ هل تقطنين معنا عند الشجرة؟

ـ في المأوى الكبير من أجل شقيقك.

تنبهت إليه، فحملته عنها، ورافقتها إلى مأواي في منتصف الهضبة، وقلت لها قبل أن أغادر:

ـ أنت تعرفين النظام هنا.

هزت رأسها موافقة والقلق والخوف يفترسان ملامحها على الغائب، لا ريب أنها تدرك أن عليها أن تشارك في رعاية الحيوانات، إلى جانب صغيرها، ورعايتها هنا تعني معاملتها برفق ومحبة، لا شيء غير ذلك، لأن الحيوانات ترعى نفسها، فهي تعرف طرقات الهضبة ولا تخرج عن مسارها المرسوم، تسرح للرعي كل يوم، وتؤوب للشرب، ثم تأوي إلى الشجرة في المساء أو إلى أي موضع تشاء، لكنها ولسبب أجهله باتت تتكاثف تحت شجرة التالق، وأحياناً إلى جانب المأويين الكبير والصغير، لذا ليس على مريمة إلا أن تعتني بنفسها وصغيرها، هناك حبوب وتنور ومطحن، ضروع المواشي تغص بالحليب، ماء الشرب متوفر في عين الماء أعلى الهضبة، وإذا أرادت حصتها من اللحم عليها أن تنتظر أوبتي قرب شجرة التالق، فطالما أكون محملاً بصيد بري، أرنب أو طائري عقب في الغالب، لحوم مواشي الهضبة محرم على الجميع، وطالما حاول أبي في السابق أن يذبح كبشاً أو عجلاً صغيراً، لكني كنت أزجره، لكنه على غفلة كان يسوق حيواناً إلى السوق، ثم يبتاع بثمنه لحماً وخضراً وفاكهة لأجل امرأته الحامل، ها هي الآن هنا وزوجها غائب، سأعاملها باحترام، عليها أيضاً أن تساهم في سلخ الصيد وتنظيف اللحم وتقطيعه إلى شرائح صغيرة

يسهل شواؤها، لكن للأسف لم يتسن لها أن تفعل ذلك في اليوم التالي، لأن الظروف تغيرت، وبدلاً من أن أبحث عن طريدة للغداء، تلقيت إنذارا من أعماقي بأن الرجال قادمون لاصطيادي.

كنت على قمة الشجرة المعمرة أترقب الطرقات، ثم أهبط أحياناً وألصق أذني بقشرة الأرض منصتا، لقد احتطت وتأهبت، وحصنت الهضبة مرة أخرى بتعويذة الأفاعي، ظننت الرجال المسلحين سيأتون مغيرين صارخين من أطراف الهضبة كفرسان العصور القديمة، توقعت أن اسمع ارتجاج أقدامهم عندما تقع على أول شبر في قاع الحقل، لكنني سمعت هديراً غريباً يأتي من باطن التربة، ليس كوقع الأقدام، شيء ما يسير محدثاً ارتجاجاً قويا جدا، أنذرتني أعماقي أن أنذر كل كائن حي يعيش على الهضبة أن يختبئ أو يفر، رأيت إلى حيواناتي المسكينة المشتتة، وأدركت أنني لا استطيع أن اعمل شيئاً من أجلها في ذلك الميقات السقيم، فتركتها وشأنها، وهبطت بأقصى سرعة إلى مأواي القديم حيث تسكن مريمة.

كان شقيقي مستلقياً في حجرها يلهو بثديها المتدلي كثمرة دانية، عدوت إليه ونزعته من حجرها وخرجت بالسرعة والمباغتة التي جئت بها، بدوت كاللص المختطف، أو كالنسر الذي يختطف الحملان الصغيرة التي ترتع قرب أمهاتها، هرولت أمه خلفي بشكل غريزي، شاهرة في كفها عصا غليظة لو سقطت على رأسي لكنت من الهالكين، غير أن ضرباتها كانت تطيش وتتجاوزني بفارق ضئيل، كنت أسمع حفيف العصا في الهواء، وأحس بخصلات قذالي تنكمش وتتمدد، حتى لذت بتجويف الشجرة الضخمة، وقفت الأم لاهثة متنمرة، صرخت عليها أن تختبئ، هبطت حليمة من أحد الفروع متأثرة مفزوعة سائلة عما أفعل، لبدت قربي محتارة

منتظرة الجواب، اقتربت الأم لتنتزع طفلها، في تلك الوهلة، نزلت الكرات النارية الكثيفة على أجزاء متفرقة من الهضبة مجيبة عن كل التساؤلات، ترافقها أصوات مثل دوي الصواعق، أصابت إحداها الشجرة وسقط فرع كبير إلى جانبنا، ثار الغبار في الهضبة، ولفنا بحيث لم نعد نرى شيئاً، سمعنا أصوات الحيوانات المسكينة وهي تركض مجفلة لا تعرف ماذا يجري، ولا أين تختبئ، البعض هرولت ذارعة المنحدر المفتوح نحو أطراف الهضبة، وذهبت إلى غير عودة، والبعض الآخر تفرق في كل حدب وصوب، والقليل منها لاذت بالشجرة، ثم ما لبثت أن تفرقت في المكان، ظلت الكرات النارية تسقط حتى توقفت من تلقاء نفسها، وانقشع الغبار وهدأ الجو.

مكثنا جامدين في موضعنا بعض الوقت، ثم تجرأت وصعدت على الشجرة، كانت بعض فروعها محطمة محروقة، والدخان يصعد منها، وقفت على فرع عال انظر إلى أجزاء متفرقة من الهضبة، لاسيما إلى أطرافها، لا أثر للحيوانات عليها، لا أدري ربما شاهدت حيوانا يتحرك بموضع ناءٍ أو هكذا خيل لي. هدأ كل شيء فجأة، لكن صوت بكاء شقيقي لم يتوقف، رغم أن أمه ظلت تسد براحتيها أذنيه الصغيرتين، وتضمه إلى صدرها لتحسسه بالأمان، لكن لعل دقات قلبها القوية كانت تثير فزعه.

هبطت عن الشجرة شاعرا بالجزع، قلت لنفسي عليك يا سعد أن تهدئ من روع الفتاة والمرأة في الأسفل، كل شيء انتهى، هكذا ظننت، لقد تلقيت للتو عقوبة العامل على سوء تصرفي وتمردي على سلطة أبي الإقطاعي الشهير، ولم يعد هناك سوء أكثر مما حدث، فجأة سمعت اهتزازا طفيفا على الأرض، ألصقت أذني على التراب، كانت هناك أصوات سريعة لأقدام تركض بالجوار، عدت

إلى أعلى فرع في الشجرة، ملقيا نظرات طائشة ناحية أطراف الهضبة، رأيت أعدادا كبيرة من الجنود يهاجمون المكان، خشيت أن تكون كرات النار قد أبطلت مفعول التعويذة، بقيت أراقبهم بقلق، فجأة أخذوا يولون الأدبار، ولم يعودوا، رحت أفكر في ما حدث، وأقلب الأمر من جميع جوانبه، هل يعقل أن طردي لأبي هو سبب يكفي لإحراق الهضبة وتشريد الحيوانات؟ هناك عدد كبير من الجنود حاولوا اقتحام هضبتي، وفي الأول والأخير الشاكي لم يرجع إلى منزله! ارتسمت في رأسي أول علامة استفهام يتقدمها سؤال هام لا أجد له جواباً، لِمَ يفعلون ذلك؟ في رأسي شذرات طفيفة تلقيتها من معلمي حين كان يلقنني التعاويذ والحيل السحرية، لم يكن هناك لحظات أحب إلينا من تلك التي نجلس فيها سوياً، كان يصفني بالسهم الذي يسدده إلى صدور الأعداء، ولا يتوقف عن إتحافي بكل صغيرة وكبيرة من مهارات السحر وقواعده ومحاذيره، كشف لي عن وصايا السحرة القدماء، وأخطاؤهم ومبطلات السحر، ومتى يجب على الساحر اللجوء للتعاويذ المهلكة ومتى يتوقف عنها.

في تلك الليلة المشؤومة في القرية، كان يود أن يفضي إلي بسر ما، أشار إلى التميمة التي أحملها ليوحي بأهمية الموضوع، لكني كنت مهتاجاً، كانت جميع حواسي تنذرني بخطب ما، أصوات الناس في الخارج كانت مرعبة، فأغراني بالهدوء مدعياً إن هذا السر هو آخر الدروس، وعليّ ألا أظل جاهلاً به، عند ذلك أثارني الأمر واقتربت منه لأسمع، لكن "غنية" كانت تصرخ تحت نافذة أبي، فأثارني صوتها أيضاً، نهضت إلى النافذة، رأيت الكثير من المشاعل تغادر القرية، فصحت في أذن معلمي إن الأهالي يغادرون القرية لسبب ما، ويتحتم أن نذهب، قلت له: هناك خطر ما فادح وأنا أشعر به. فقال عبارته الأخيرة:

ـ في حالتك يا بني، لا ينبغي أن أفضي إليك بشيء يجعلك تفقد لذة النوم، نم قرير العين، فهذا ليس درسك الأخير، فالحياة خير معلم، دعنا نخرج الآن.

أما أبي فكان يحدثني باستهتار ويظل يردد أن زياراته للأضرحة والأولياء لكي ينجب ولداً ذكراً حتى لو كان شيطاناً، قد تحققت وصرت أنا ذلك الشيطان الذي دوخه وقذف به من نحس إلى آخر، أحيانا يحدثني بشكل غامض عن نبوءة وتميمة تشبه تميمتي، ثم يعود لينصحني ألا أعطي الأمر وزناً.

***

بدت الهضبة مقفرة كأنها لم تُسكن في يوم ما، ولم تعش عليها مئات الحيوانات، رحت أركض من أقصاها إلى أقصاها باحثا عن كائن نابض بالحياة، لكني لم أعثر إلا على أول الحيوانات التي قطنت الهضبة وهي البقرة البيضاء التي كانت هزيلة وهرمة، وجدتها نافقة إلى جانب مأواي المبعثر، في المساء جلسنا نأكل شيئاً قرب الشجرة، كعك ولبن، صامتين كأننا موتى، في آخر المطاف سألتني مريمة:

ـ أظنك حزين من أجل أبيك، أليس كذلك؟

أجبت بصراحة:

ـ بل أفكر في حيواناتي.

ـ ألم تفكر بشيء آخر؟.

ـ نعم، في معلمي.

ـ والدي شبع موتاً.

ـ لا أدري بات يطل في رأسي هذه الأيام.

ـ ألا يقلقك غياب والدك؟

ـ نعم، لكنه يفر من طريقي.

ـ لكنك تتسلل خلسة إلى المنازل.

ـ لم أشأ أن أمسه بأذى.

ـ هل تظنه يعود؟

ـ أظن ذلك.

صمتت مريمة ومكثت بضع ليالٍ أخرى، كان في دارها مئونة أنقذتنا من مرارة الجوع، ثم غادرت وطفلها حين عاد أبي، سمعت أنه دفع رشوة كبيرة ليفلت من قبضة العامل، في تلك الأيام ازدادت رؤاي الليلية التي أرى فيها معلمي، أراه يلقي علي دروساً في القرية المنكوبة، وأحياناً على الهضبة، في يوم قريب أقبل أهالي قرية الرباط بعد أن قضوا بضع سنين في سجن الأمير الناصر، جاءوا بإعاقات وعاهات وأجساد هزيلة وصور منكرة، دخلوا قريتهم المنكوبة وجعلوا يسيرون بين الأطلال والحطام في حيرة وأسى، بعض الأولاد والبنات كنت أعرفهم أطفالاً في القرية صاروا الآن كباراً، جزء آخر من الأطفال لا أثر لهم قرب ذويهم، لم أسأل عن أولئك الصغار، لقد بدا واضحاً أنهم فقدوا بطريقة ما، وقف من تبقى من الأهالي فوق أنقاض منازلهم، جلسوا حزانى يجهلون ما عليهم القيام به، ثم صرخوا بفزع حين رأوا الأفاعي تخرج من بين الحطام، سمعت صراخهم فنزلت، حين رأوني فروا من طريقي، كأن أحد شياطين الشيخ رعدان ظهر عليهم، حتى

فاطمة بنت روضة نفرت وابتعدت، لم أعتب عليهم، فقد ذاقوا البؤس الشديد منذ أن رأوني في القرية، لم تقترب مني سوى غنية التي هزلت وبرزت عظام وجنتيها، ولم يعد باقيا منها سوى صوتها الحاد، إلى جوارها يلوح فتى وفتاة ناحلين شاحبين يبدوان أكبر مني في العمر، لم أكن متأكدا من شخصها، وهي الأخرى دققت النظر في ملامحي التي تغيرت بعد دخولي مرحلة البلوغ، قالت تخاطبني بصوت متعب:

ـ سعد، أهذا أنت؟

جعلت تسألني عن حالي وأين أعيش، وعن والدي وامرأته اليهودية، أشرت بذقني ناحية الهضبة، اكتفيت بذلك، لأن غصة من التأثر حبست كلماتي في صدري، كانت غنية قد خرجت من القرية في تلك الليلة المشؤومة وبمعيتها ـ إضافة إلى زوجها عتيق الأهبل ـ ولدان وبنتان من زوجها الراحل ناصر حنشات، كانت علاقتي طيبة مع جميع الصغار في القرية كلما أتيحت لي فرصة الالتقاء بهم، إذ كان والدي وشقيقاتي لاسيما صفية يخشون أن تضيع تميمتي أو يسرقها الأهالي الأشرار، لأجل ذلك لا تدعني أختي صفية أذهب بعيدا عن بصرها خوفا من أتباع الكبير مرشد، لا أذكر سوى ملامح ضبابية لهذا الرجل الأخير الذي كان يعاملنا بقسوة، لاسيما بعد أن صار كبيرا للقرية، أما اليوم، فقد غدت المساكن حطاما، والأهالي المساكين يهربون مني وكأني مصاب بمرض معدٍ، هذا ضاعف الأسى في نفسي، أظن أن غنية لاحظت ما يجول في نفسي، إذ ما لبثت أن صرخت على رفاقها من الأهالي المنكوبين عاتبة عليهم هذا السلوك البغيض الذي لا يليق بالجيران أن يفعلوه، استطاعت أن تجمعهم بلسانها اللاذع قائلة:

ـ أيها الحمقى، لا تهربوا كالأوغاد، هذا سعد ابن كبيركم السابق سرحان..

اقتربوا مني بحذر، حدثوني بأسف عن كثير من الأمور الفظيعة، كشفوا عن ظهورهم وسيقانهم وسواعدهم، كانت أعضاؤهم مشوهة بالحروق والكدمات، وهناك كثير نفقوا بسبب التعذيب، أما معلمي فهو لا حي ولا ميت، مصلوب على سور المدينة منذ أعوام، مكشوفاً للشمس والريح والبرد، كلما أوشك على الموت، هب أطباء المدينة ليداووا جراحه، لا يريدون أن يموت حتى يطول عمر عذابه ومعاناته، حين سمحوا لهم بالمغادرة قبل أيام، أرغموا على المرور للبصق في وجهه، كان غائبا عن الوعي بحال رهيب من العذاب، لكنه فتح عينيه بشكل واهن، وسدد إليهم نظرات معذبة ضارعة، كأنه يطلب منهم أن ينقذوه أو أن يفعلوا شيئا ما من أجله، لكنهم بصقوا في وجهه فرحين بنجاتهم، وهربوا من المدينة دون أن يهتموا بعذابه، ماذا بوسعهم أن يفعلوا بعد أن نالوا عذابا أليما من السجانين؟ والحقيقة أنهم حين رأوا الشيخ المعذب أدركوا أنهم لم يعذبوا! يا له من مسكين، رفضوا أن يصفوا لي العذاب الذي يتعرض له، مشفقين على حالي، فقلت لهم بأسى:

"لا يهم، أظنني علمت ما كان معلمي يريد أن يقوله لكم"

سألوني بفضول وإلحاح عن ذلك، فانصرفت من أمامهم زاحفا كحيوان جريح، مداريا دموعي وألمي.

٢

قبل أن أغادر الهضبة، كنت أرى جسد أختي حليمة منتصباً كتمثال قرب شجرة التالق، لم ألقِ بالاً لتبرمها وبكائها، بل قلت لها بكلمات جافية مودعا:

ـ أنا مرغم على الذهاب يا أختي، احترسي على نفسك.

قالت متشبثة بملابسي:

ـ لا أمان لي في غيابك يا سعد.

ـ سأعود، أعدك بذلك.

دفعتها بلطف ومضيت، كنت قد تكهنت ما يصبو إليه معلمي، فجمعت عدداً من النباتات الأكثر سمية وفتكاً، وسحقتها، ثم أضفت إليها قطرات من سم الأفاعي الزعاف، وضعت ذلك السائل المميت بحذر في قنينة عطر الخاتم، ثم أحكمت إغلاق سدادها ورميتها في مخلاة السفر شبه الفارغة، خرجت من هضبتي بلا مال أو مئونة، خاليا من أي شيء يحرص المسافرون على حمله، على مشارف مدينة يريم أخفيت تميمتي، رأيت هناك كتيبة من الجنود معسكرين في الطريق، إلى جانبهم عربات ومدافع من الحديد لم أر مثلها مطلقاً، أعناقها الطويلة مائلة مصوبة نحو هضبتي، تساءلت بارتياب إن كانت الكرات النارية التي سقطت على هضبتي قد أطلقت من هذه الأعناق الطويلة، إن كان هذا صحيحا فقد تسببت

في موت حيواناتي، كما أحرقت فروع شجرتي الحبيبة، ومن ثم استحقت غضبي ونقمتي، لعنت في سريرتي من صنعها، ومن أتى بها إلى أرضنا البكر، عرفت أني ذات يوم سأعطبها لا محالة، كان ثمة جنود يرتدون قمصان ومآزر رمادية وعصابات رأس سوداء، واقفين على قارعة الطريق يوقفون حمير الفلاحين وحيواناتهم، ويعبثون بمنتجات المتسوقين وغلالهم التي يبغون بيعها في السوق، لا يسمحون لأحد بالمرور سوى من خلالهم، كان هذا الأمر غريبا جدا بحيث خلق زحاما من الناس والحيوانات أمام ذلك الحيز الضيّق، كان ذلك اليوم هو الأحد، حيث ينعقد السوق بالمدينة، ويأتي الفلاحون من كل القرى للبيع والشراء، وقفت وسط حشد من الناس والحيوانات منتظرا دوري بالمرور.

كان أمامي فلاح وديع الشكل يحمل فوق حماره صرة كبيرة من الفاصوليا، أخذ يرتعد خوفاً من فكرة مصادرتها، فوعدته أن أمنعهم عن سرقة محصوله، نظر إلي متعجبا، ولوى عنقه قائلا باستخفاف: "شكلك غريب يا بني، احترس على نفسك وحسب" فتحوا الصرة، وهو يراقبهم بخوف منبهرا بأشكالهم ومعداتهم الغريبة، أخذوا شيئا منها بواسطة وعاء معدني دون أن يرفع الرجل المسكين طرفه أو تبدر منه أي حركة احتجاج، فتقدمت منفعلا لأجبرهم على إعادة ما سلبوه، فأمسكني الفلاح بقبضة قوية هامسا بصوت حاد: "توقف يا بني، أتريد أن يستولوا على جميع المحصول؟" حين رفع طرفه إلي بحذر، رأى وجه فتى آخر، فوقف متبلدا وأخذ يدعك عينيه بدهشة، أراد أن يقول شيئا، لكن الجندي صاح طالبا منه المرور، فأخذ حماره وهرول مبتعدا خائفا، يا له من فلاح مسكين لا يعلم أن بوسعي تبديل وجهي بواسطة تعويذة التنكر! إذ لاحظت أن هناك رجلا يبدو من أهالي الرباط المعذبين واقفا قرب الجنود، يتفحص الوجوه باحثا عن الفتى

الساحر، كان هذا الرجل هو عتيق الأهبل بشحمه ولحمه، كنت أظن أنه من الأشخاص الذين هلكوا في صنعاء، دنوت بوجهي الزائف من بضع جنود مدوا أيديهم إلى مخلاتي، جعلوا يفحصون محتوياتها بعيونهم الجشعة، رمق جندي مهيب يجلس على مقعد خشبي إلى عتيق الأهبل مستفهما، فمكث الأخير يحدق نحوي بارتياب، وقف الجندي المهيب متحفزا قائلا: "تكلم، أهو المطلوب؟" هز عتيق رأسه نافيا قائلا بتلكؤ: "كلا، ليس هو" رغم ذلك تجمعوا حولي ممعنين النظر وكأني مخلوق خرافي، بدا من نظراتهم الغريبة أن شكلي جذب انتباههم وفضولهم، فتى يبدو في ريعان الشباب يرتدي جلد خروف، ومئزرا رثا، ناهيكم أن بطنه وصدره عاريان! ما لبثوا أن نثروا محتويات مخلاتي على الأرض، وأخذوا القنينة، وتفحصوها، وقربوها من أنوفهم، لم أتوقع أن يسألوني عن اسمي، فأجبت لحسن الحظ كما يرد الأشخاص النكرات الذين لا يأبهون بالأنساب أو الدنيا برمتها:

ـ كما ترون، أنا إنسان يسير على هذه الأرض الفانية.

رفع أحد الجنود قبضته ليضربني صائحا:

ـ اخبرني أين تذهب؟

تجمدت كف الجندي في الهواء، وتراجع للخلف مذعورا، فتحرر كفه، لاحت الدهشة في عيون الجنود، وتقدم الجندي المهيب مرتعشا وسألني بتلعثم:

ـ هل أنت درويش؟

أعجبني هذا الاسم الذي لم أفهم معناه تماما، لكنه كما فهمت ألطف وأخف وطأة من لفظ ساحر الذي تقشعر الأبدان عند سماعه، شعرت أنه يحمل أمل عبوري ونجاتي، فقلت دون تردد:

ـ ها قد كشفت سري أيها الجندي الفطن.

ضحك ورد متحذلقاً:

ـ أين تذهب أيها الدرويش؟

ـ هذا سؤال غريب.

أتى جاويش كبير الرتبة مهرولا من الجوار، وصاح على الجنود بسخط:

ـ أيها الحمقى، ليس ساحرا كما تظنون، لقد رأيت ما جرى قبل لحظات، دعوا مولانا الدرويش يمر بسلام. إنهم أشخاص صالحون ذوو كرامات.

ارتعد الجنود وجمعوا أغراضي المبعثرة، القنينة والخاتم وصدف بحرية بقيت من طفولتي، لا أدري كيف حصلت عليها آنذاك، ناهيكم عن عقاقير لأدوية منسية مكدسة في أكياس صغيرة، مضيت في طريقي مخلفاً ورائي غمامة من التهيب في وجوه الجنود، عرفت أن صفة الدرويش تناسبني أكثر من غيرها، سلكت طريق المسافرين وصادفت عدداً منهم متثقلين بالأمتعة والمؤن، فأغاثوني ببعض الماء والطعام، رغم ذلك نفروا مني حين لمحوا التميمة في عنقي، ثم تركوني وذهبوا، نمت في مسجد صغير في منطقة لا أعرف اسمها، تقدم نحوي درويش حقيقي يرتدي جبة صوفية، ومئزر من الخيش، وأخذ يسألني عن الأولياء والصالحين والمرحلة التي وصلت إليها في معرفة الله، سرعان ما اندهش وتلبد وجهه بالسواد حين قلت له إنني لا أعرف أحداً من الأولياء، ولا أهتم لأمرهم، كما لا أريد أن أعرف الله أو الشيطان، ولم أدخل المسجد إلا لأبيت فيه وآخذ قسطاً من الراحة، لأنه المأوى الوحيد للفقراء،

طمعت أن يدعني وشأني لأني متعب، أجفل الدرويش مبتعدا عني، وهذا ما كنت أصبو إليه، ومن ثم غرقت في نوم عميق.

في الصباح عدت إلى الطريق، قطعت مسافة طويلة أحدث نفسي، دون أن أجد أي مسافر في ذلك القاع الممتد الواسع، كانت حرارة الشمس تشتد مع ارتفاع قرصها المشع في السماء، كان بوسعي أن أجعل الأرض تتقارب، وتجري تحت قدميّ، فأصل إلى وجهتي خلال مدة قليلة من الزمن، لكني سمعت معلمي يحذر من قراءة هذه التعويذة، لأن على السحرة أن يقاسوا مشقات السفر مثل جميع البشر، ولا يلجأ إليها الساحر إلا في حال إنقاذ مجموعة كبيرة من الناس يوشكون على الهلاك، أو إذا كان جسده مثخناً بالجروح والأسقام الشديدة بحيث لا يستطيع السير، في قرية من قرى وادي الحار أجهدت وتزودت بالماء وطلبت الطعام، فقذفت لي امرأة رغيفاً ساخناً أخرجته للتو من تنورها الطيني، فأكلته بنهم، وسرت وحيدا شاعرا بالملل والإرهاق، حتى قابلت مجموعة من المسافرين، حميرهم إلى جانبهم مثقلة بالأحمال، يتحركون بفوضى وهوس حول بئر ماء، ولا يتوقفون عن الصياح والنظر إلى قعره، بدا أحدهم يحاول أن يرمي نفسه للأسفل، ورفاقه يمسكون جسده بقوة وهو يصارعهم باكيا، رغم الفضول الذي انتابني ساعتها، لكني اتبعت إحدى نصائح معلمي، وهي ألا أعرض نفسي للمساعدة دون دعوة لاسيما في الأمور التي يعوزها استعمال التعاويذ السحرية، فنكست رأسي وتابعت السير مبتعدا عنهم حتى سمعت أحدهما يصرخ:

ـ هناك درويش في الطريق.

لحق بي رجل راشد يبدو في عمر والدي سرحان، جثا على ركبتيه لاهثا، ومضى ينتحب قائلاً باستجداء:

ـ مولاي، إن كنت تملك شيئاً من الكرامات فلا تتردد في انتشال ولدي من عمق البئر.

سألته باهتمام:

ـ أهو حي؟

ـ مازال يصرخ طالبا المساعدة.

تقدمت من البئر، طالبا من الرجال أن يبتعدوا عن محيطه، سمعت صوت الفتى يأتي ضعيفا من الأسفل، فقرأت تعويذة التسلق على الجدران، وهبطت على جدار البئر كما يمشي الناس في الطرق المستوية، كان الفتى منهكا يجاهد للبقاء طافياً ريثما أصل إليه، انتشلته كخرقة مبللة وصعدت بخفة، حتى وضعته على حافة البئر، سقط الأب ساجدا من الفرح، وصاح الرجال بذهول، وطووا الفتى بلحاف غليظ، ظنوا أنهم شاهدوا إحدى الكرامات العظيمة، بينما ظل الأب شاخصا ببصره نحو السماء يشكر الله على فضله دون أن يلقي عليّ نظرة، لم أكن أهتم بالثناء ولا أفكر في إثارة الإعجاب، إلا أني وجدت في تصرفه هذا تصنعا ونفاقا بعث على غضبي، فانفجرت صائحا بالرجل الجاحد:

ـ جميعكم منافقون وجاحدون، تردون الفضل لغير أهله.

اندهش الرجل لانفعالي وأجاب بحيرة:

ـ هل أخطأت في حقك أيها الشاب الصالح؟ دعني أشكر الله على إنقاذه ابني من الهلاك المحتوم.

ـ وهل رأيت الله ينزل على جدار البئر لينقذ ابنك؟

ضحك الرجال، ورد الأب بتوتر:

ـ لا بأس، يمكن القول إن الله بعثك لتقوم بذلك، ويتحتم أن أشكره، أما أنت فسوف تنال مكافأة دسمة.

ـ لم يبعثني أحد إليكم، كل ما في الأمر إن ولدك محظوظ، ومروري هنا كان بمحض المصادفة، فلا تعط الأمر وزنا..

ـ ما فعلت ليس هينا كما تظن، خذ مكافأتك.

رمى نحوي صرة مليئة بالريالات، تركتها تسقط تحت قدمي، ومضيت في طريقي دون اهتمام، فأعادها الرجل إلى مخلاته مندهشا..

ـ نحن نسلك الدرب نفسه، دعنا نرافقك على الأقل.

حبذت أن أرافقهم، كان ابنه قد استبدل الملابس المبللة بأخرى جافة، وطوي جسده المرتعش بدثار صوفي، ما جعلهم يعلنون عن استئناف السفر، كانوا تجاراً من ذمار يتزودون بالبضائع من صنعاء، يقايضونها ببضائعهم، لم أسألهم عن نوع البضائع التي يقايضونها لأني لا أميل إلى الثرثرة والاهتمام بشئون الآخرين، في الوقت عينه، كنت أعلم أن الشرود والصمت لا يليق بالمسافرين، لكني اعتدت أن أعيش وحيدا بعيدا عن الناس، لعلها المرة الأولى التي أسير في سفر برفقة أشخاص غرباء ثرثارين، بحيث تحدثوا عن البضائع، وشئون التجارة، والربح والخسارة، والأموال، وهي أمور لا أفقه عنها شيئا، ولا أكترث لأمرها، رغم ذلك صرت أستمع إلى حديثهم المضجر مرغماً حتى لمح أحدهم التميمة في عنقي، فصاح مخاطبا رفاقه بقلق:

ـ انظروا، هذه التميمة سوف تجرنا إلى المهالك، سيظنون أننا سحرة ويلقون بنا في السجن.

قلت بامتعاض:

ـ هذا الكلام لا يخيفني.

قال التاجر الممتن بصوت جاد:

ـ إنه على صواب، لقد ضربت مدافع الأمير الناصر قرى السحرة في ذمار، وأقر فقهاء دار الفتوى بتحريم السحر والتمائم، ونصبوا المحرقة للمخالفين في حصن مرام، لم يعد هناك طفل في اللواء يرتدي تميمة.

سألت متهكما:

ـ ماذا يصنع عامل المدينة عدا مطاردة السحرة وتمائم الأطفال؟

ـ يطارد المتخلفين عن الذهاب إلى المساجد في الشوارع والأحياء، إنه يجبرنا أن نغلق دكاكيننا حين يؤذن للصلاة، من المؤسف أن يحدث ذلك في ذروة ساعات البيع والشراء، لكن الزبائن يجبرون على اللحاق بنا إلى المسجد، وهناك يساومون التجار ويسألون هامسين عن أسعار البضائع، أو حتى يسددون ديونهم قرب المحراب.

رغم طرافة هؤلاء التجار إلا أنهم كانوا مزعجين، أقلقتني عيونهم المرتابة الخبيثة التي ظلت تطارد تميمتي، باتوا يتغامزون بمكر، ويتبادلون من خلفي الهمس والإشارات التي تعني إن هذا الدرويش الأخرق، لا يفقه شيئاً عما يدور في البلاد، يبدو مثل طفل ساذج وضعت أمه تميمة في عنقه خوفا عليه من العيون، تنحوا جانبا، وهمسوا لبعضهم إنه يتحتم عليه إخفاء تميمته بمكان أمين، أخذوا يبحثون عن طريقة لإقناعي بإبعادها عن العيون، لأني لم آخذ كلامهم على محمل الجد كما زعموا، وهم يخشون أن نصادف

جنودا في طريقنا، يفتشون أغراضنا وملابسنا، لذا لا يجب أن توضع في مخلاتي، أو تُدس داخل جُبتي أو في باطن جلد الخروف، ما لبث أحدهم أن رفع إصبعه بإشارة بذيئة مشيراً إلى الموضع الذي ينبغي أن أخفي فيه التميمة، هامسا أن أدسها في خلفيتي، فضحكوا بخفوت، ثم أداروا وجوههم بعيداً، وكأنهم يتحدثون عن شيء آخر، لم يدركوا أني رغم ملامحي البليدة الهادئة، أسمع همسهم، وأفهم إشاراتهم البذيئة، في هذه اللحظة نفد صبري، وسألتهم بحنق:

ـ أيها المتهامسون، هل هناك قرود في قريتكم؟

كفوا عن الضحك وأجابوا باستغراب:

ـ لا، لقد انقرضت منذ زمن طويل.

ـ لا يهم، سأحولكم إلى قرود إن لم تكفوا عن الهمس والإشارة إلى مؤخرتي.

صاحوا بخوف:

ـ يا ويلنا، أنت ساحر، لست درويشاً.

ذعروا بشدة، ولطموا وجوههم بحسرة، راحوا يساومونني أن أحولهم إلى طيور إن كنت مصراً على تنفيذ وعيدي، لأنهم حلموا بذلك في طفولتهم، راحوا يقدمون لي الماء والزاد، ويميطون عن طريقي الأشواك والأحجار البارزة، طلبوا مني مهلة ريثما يعثرون على فقيه يجيد كتابة الوصايا، ليرسلوا إلى نسائهم وأطفالهم بعض المعلومات والتوضيحات حول ديونهم وأموالهم، اقترح أحدهم على رفاقه أن يوصوا أطفالهم ألا يقذفوا القرود بالأحجار، لأن أحدها قد يكون والده أو صديق والده.

عرفت أن أهالي ذمار يتهكمون على أنفسهم حين يشعرون بالأخطار، أو حين يقعون في المآزق، ومن ثم يصبحون أكثر ظرفاً وإنسانية ولطفاً، لذا أبقيت على وجهي مشدوداً متجهماً رغم أنني كنت أوشك على الانفجار ضحكاً، وأنا قلما أضحك منذ وعيت نفسي، بل بوسعي أن أجزم بذلك، بدا الضحك والانبساط في ذلك اليوم مثل كائن غريب أراه لأول مرة، زممت شفتيّ بقوة حابساً ابتسامتي حين سمعت أحدهم يناجي طيف أمه قائلا بأسى غريب:

" سامحيني يا أمي مِحْصَنة، لأنك عانيت كثيراً في سبيل إقناع الجيران أن لديك ولد لا يضاهيه أحد، لقد آثرتِني بالبيض والسمن والحليب وتشاجرت مع أبي كثيراً وأقاربي من أجل ذلك، كنت تقولين لهم على الدوام: "ثابت" سيتحول في يوم من الأيام إلى إقطاعي أو عامل مدينة أو كبير قرية على الأقل.. لكن ها أنا أُخيِّب أملك يا أمي، لأنني سأتحول بعد قليل إلى قرد.."

صاروا يقلدون حركات القرود، ويقفزون فوق الأحجار التي نصادفها في الطريق، فانفجرت من الضحك مرغما، وانتهت المهزلة حين صفحت عنهم، وقلت لثابت بجذل: " الآن بوسعك أن تتحول إلى إقطاعي أو عامل أو ما شئت أن تكون" فأجاب بصوت جاد: "لماذا تراجعت يا مولانا عن قرارك؟ انظر، كيف نكد ونشقى باحثين عن الرزق، ألا تشفق علينا وتمسخنا إلى قرود؟" انفجرت ضاحكا، ما أمتع السفر رغم متاعبه! تلتقي بأناس مجهولين ظرفاء وحمقى، وتهبط عليك السعادة من حيث لا تدري! حتى تنسى أنك في طريقك لتقوم بعمل محفوف بالمخاطر! بعد لحظات اقترب مني الفتى الذي سقط في البئر وسألني باحترام:

ـ ما اسمك يا أخي؟

أجبت دون تردد:

ـ الدرويش.

ـ أنا في السابعة عشر، أظننا في عمر واحد.

قلت باهتمام:

ـ لا أعرف عمري لأني لا أستطيع أن أنظر في وجهي.

ـ لكني أراك، أنت أجمل شاب رأيت.

ـ أنا؟

ـ أنت كذلك، لكن ملابسك غريبة وحسب.

ذهلت وأنا أسمع ذلك لأول مرة، لكن هذا الإطراء جاء من فتى أنقذته من الغرق، لذا لم يعنِ لي شيئاً، سادت بعد ذلك لحظات من الصمت الممل، مشينا طويلاً، حتى شعرت بألم حاد في باطن قدميّ، صرت أمشي مترنحا حابسا الأنين في صدري الملتهب، مررنا على سوق مزدحم في ساحة كبيرة تحيط بها منازل طينية تخص أصحاب السوق، قال والد الفتى ماحياً جهلي بالمكان:

" هذا سوق رصابة، إنه اسم امرأة قديمة مشهورة".

لم تعد قدماي تقويان على حملي، بحيث تباطأت خطواتي، نصحني التجار الظرفاء قبل أن يغادروا أن أستريح في السوق وأتداوى، جلست تحت ظل جدار دكان يبيع التبغ يرتاده عدد من المتسوقين غالبيتهم من كبار السن، تقدم مني رجل مسن مادا لي عملة معدنية وهو يظنني متسولا بسبب سوء حالي، فأشحت وجهي عنه متضايقا، ثم قمت متمايلا لأبحث عن مأوى، كان الشفق الأصفر يلوح باهياً مضيئاً في زاوية غائرة من السماء، بدت الحمير المحملة بالبضائع تسير على عجل مغادرة السوق يتبعها أصحابها بإلحاح، أدرت عينيّ في المكان باحثاً عن مئذنة المسجد حتى رأيتها

غائرة في الجوار، تقدمت نحوها وأنا أقول في سري: إن المبيت في منزل الله قد وجب، سأكون ضيفه هذه الليلة أيضاً. عرجت نحو بناء صغير مدسوس بحياء جوار بعض المنازل الطينية المتلاصقة، بدت الأبواب متجاورة بحيث أمسى من الصعب تمييز مدخل المسجد، رغم ذلك اتجهت متألما نحو باب صغير مفتوح، وهناك اعترضني رجل متجهم ذو لحية رمادية مبعثرة قائلا بجفاء:

ـ أنت لا ترغب في الصلاة مع المؤمنين، بل تبحث عن مأوى.

أجبت باندهاش:

ـ هذا حق، كيف عرفت ذلك؟

ـ هذا واضح، ليس على جبينك آثار السجود، أمثالك يسرقون اللحف والفوانيس من المساجد.

ـ لست سارقا، أنا ضيف الله هذه الليلة.

ـ الرجال الصالحون هم ضيوف الله، وأنت ضيف لوزة وأختها حمامة اليهوديتين.

أشار إلى الجهة الأخرى بضيق، فاتجهت سائرا على الكعبين، مقتربا ببطء من نُزل كبير ذي ثلاث طبقات، دخلت إلى فناء واسع، على جانبيه حيوانات تخص المسافرين، جِمَال وحمير وبغال، كانت تهجع تحت سُقوف كبيرة مظللة، برز بينها حصان أبيض عالي القوائم رشيق الجسد، وقع في نفسي، خطر لي أن أحد كبار الوجهاء يسكن في الداخل، وقفت مغتما أفكر في طريقة ما لإقناع أصحاب النزل أن يسمحوا لي بالمبيت قرب الحيوانات، لأني لا أملك المال، ولا أجد حرجا بالبقاء في الزريبة حتى الصباح، لن يكلفهم ذلك شيئا، لكنهم سيجدون طلبي هذا غريبا ومريبا، وقد

يرتابون من سلامة عقلي، كان بوسعي أن أستخدم تعويذة الاختفاء، وأبيت بأي مكان أشاء، لكن كلمات معلمي ذكرتني أن الخداع مخالفة لا يجوز اقترافها، تذكرت هذه الوصية القاسية، وقررت أن أعرض على اليهوديتين استضافتي، وإن أخفق مسعاي سأنسحب من النُزُل باحترام، دخلت من الباب مترنحا بفعل الألم، رأيت امرأتين خلف المدخل، إحداهما تشبه مريمة في بعض تفاصيل الوجه، والأخرى تبدو أصغر من الأولى لا تشبه أحداً سوى نفسها، يلوح عليها دلال وطيش الفتيات العازبات، فاقتربت زاحفا على كعبي مفكرا في انتقاء الكلمات المناسبة التي سأقولها، لكن الكبرى خاطبتني قائلة وهي تهز كفها بأسف:

ـ المسامحة أيها الجار، نفدت الغرف.

قلت بضيق:

ـ هل قدر علي أن أبيت هذه الليلة تحت شجرة؟

ردت بعناد:

ـ لا توجد أشجار في هذا السوق، ألم تلاحظ ذلك؟

قلت برجاء:

ـ أرجو أن تسمحي لي بالمبيت في الفناء، فأنا لا أستطيع السير بسبب جروح قدميّ.

ـ هذا غير مسموح أيها الجار، فقد سبق أن سمحنا لمتشرد بالمبيت على الفناء، وكاد أن يسرق الحصان الأبيض، لكن صهيل الحيوان أيقظنا في الوقت المناسب.

قلت بحنق:

ـ لا يهم، سأبيت في الشارع، لعل الكلاب أكثر كرماً من البشر.

ـ لا تستطيع أيضاً أن تبيت هناك، لأن حراس السوق يطلقون النار على اللصوص والمشردين.

ـ لا أكترث، سأواصل السفر حتى تتمزق قدمي الجريحتين، لا أظن أحدا سيمنعني.

ردت بلا مبالاة:

ـ سامحني أيها الجار، لم يعد أمامك سوى هذا الخيار.

انسحبت عائدا والآلام تثبط خطواتي، سقطت جاثياً قرب المدخل، ثم نهضت مكابراً، وقطعت خطوات متعثرة، شاعرا بألم فظيع يخدر قدمي، وصلت إلى الفناء بمشقة، ثم وقعت هناك على ركبتي، ولم أستطع النهوض ثانية، انبطحت فاقدا كبريائي كله، مستسلما دائخا، رافعا باطن قدمي المتقرحتين نحو الأعلى وكأنهما تتوسلان الشفاء من السماء، شرعت الدموع تقفز من عيني إلى أديم الفناء، مع ذلك حاولت أن أحبو لأصل إلى الشارع، كان الظلام يصبغ الفناء بحلة داكنة، بدت الحيوانات تلوح على هيئة أشباح قاتمة تتحرك باضطراب، تجلى الحصان الأبيض في موضعه المعتم مثل بصيص ضوء يشع من قعر بئر عميقة بحيث لا يظهر منها سوى وهج أصفر منعكسا على صفحة الماء، حينما كنت أزحف ببطء شديد جاءت الأخت الصغرى مسرعة، يسبقها ضوء أصفر فاقع ينبثق من فانوس عتيق تمسكه في يدها بحرص، وقفت تتأمل جروحي للحظة خاطفة، ثم هزتني من ظهري قائلة بتقزز:

ـ يخ، توقف يا هذا، انظر، قدماك متقرحتان تسيلان قيحا ودما.

لكني لا أستطيع الالتفات لأرى إلى أبعد نقطة في جسدي، خصوصا مع الألم الشديد الذي ينتابني بقسوة، رغم حنقي لم أستطع أن أرد أناملها البيضاء الصغيرة خائبة، سمحت لها أن تقودني كرجل عجوز عبر السلالم، رأيت رجلين يتحدثان قرب إحدى الحجرات، ويدخنان جالسين فوق مقعد خشبي، نظرا إلي بإشفاق وغرقا في صمت رهيب، صعدنا ببطء، وهي تقول:

ـ هل لديك قلب؟

أجبت بتهكم لا يتناسب مع حالتي السيئة:

ـ أظن ذلك.

ـ أقصد يجب أن يكون لديك قلب قوي كالحجر.

قلت وأنا أتألم:

ـ أيجب أن يكون لي قلب حجري حقا؟

ضحكت وقالت مصححة:

ـ قلب كالحجر وليس حجري.. (وتابعت) ما أقصده هو أن عليك أن تبيت في الغرفة المقفلة عند أقصى السطوح، يقال أن فيها شبح امرأة عجوز اسمها رصابة، قتلها ولدها في هذه الحجرة، وهي مقفلة منذ ذلك الزمن الغابر.

ـ لِمَ قتلها؟

ـ يقال إنها كانت تملك الكثير من المال، لكنها أيضا كانت متسلطة وقاسية وبخيلة.

ـ من الغريب أن يُقتل أحدهم بسبب المال!

ـ يا لك من غر! ألا تدرك إن معظم الحروب في الأرض تعود لأسباب تتعلق بالثروة؟

ـ وأنت غرة أيضا إذ تجهلين أن جنود عامل يريم ضربوا هضبتي بالكرات النارية وشتتوا شمل حيواناتي، أتظنين أن العامل يريد قتلي من أجل الاستيلاء على مالي؟

ـ أظن أن أصحاب المال والجاه يطاردون الأشخاص الذين يهددون سلطتهم، وهذا الأمر له علاقة بالمال، لأن السلطة مصدر من مصادر الثروة.

صرت أفكر أي خطر يمثله وجودي على سلطة عامل القضاء! ليس لي طموح في السلطة، ولا أكترث بالثروة ولا أملكها! كما لا أعرف اسم العامل! لم أقابله من قبل أو أدنو من منزله! دارت هذه الخواطر في رأسي حين ظهرنا على السطح، دخلنا إلى غرفة مضاءة بسراجين، كانت شقيقتها الكبرى جالسة بانتظارنا، قالت الفتاة الصغرى وهي ترنو إليها مبتسمة:

ـ إذا أردت يا لوزة أن تحظي ببركة هذا الدرويش الصغير عليكِ أن تداوي جروح قدميه.

استلقيت منهكاً متمنيا ألا أغادر تلك الحجرة الصغيرة النظيفة، كان الهواء فيها منعشاً والوسائد والخُطط والوسائد تغطي أرضيتها، على جدرانها ملابس نسائية يهودية الطابع، تفوح منها روائح زكية، أحضرت لوزة علبة داخلها مسحوق غريب إضافة إلى قطع قماش بيضاء طويلة ومنشفة صغيرة، راحت تدعك الجروح بقوة، ماسحة ما يخرج من قيح بالمنشفة، صرت أئن وأتوجع، أخيراً قالت باستنكار:

ـ أتتألم بفعل جروح صغيرة في باطن القدمين، كيف تفعل لو أصبت في رأسك؟

سألتها قائلا بحنق وعتب:

ـ أكنت تخشين أن أسرق الحصان الأبيض وأهرب بهاتين القدمين المتقرحتين؟

ـ سامحني، لم أظن أن قدميك بهذا السوء، كنت أظن أنك مثل ذلك اللص الذي ارتدى ملابس متشرد مسكين.

شرعت لوزة تتعامل مع قدمي برفق، حتى ربطت الجروح بالقماش الأبيض، بعد قليل دخلت حمامة ـ أختها الشابة ـ بأطباق العشاء، وهي وجبتهن الليلية المعتادة، مع زيادة طفيفة في عدد الخبز، إنها الوجبة المألوفة ذاتها التي أكلتها منذ سنوات في منزل زكية، حيث كان معلمي ومريمة يقدمون الدعوة لبعض يهود قريتنا، ثم يأكلون اللبن والعدس وحساء الذُرة، وكنت أشاركهم طعامهم في كل وجبة.. قاطعت حمامة أفكاري قائلة باهتمام:

ـ معظم جيراننا المسلمين لا يأكلون من طعامنا، لا شك أنك تتضور جوعاً، ماذا أفعل؟

اقتربت محركاً ساقيّ بحذر وقلت:

ـ ألا تدركين إن هذا طعامي المفضل، وأني عشت وسط عائلة يهودية صغيرة؟!

ـ حقا؟

ظهرت الألفة في وجهي حمامة ولوزة، وتسامرنا بعض الوقت، دار بيننا حديث عابر، كالذي يدور بين أناس غرباء يلتقون لأول مرة، بين فينة وأخرى يقاطعنا صوت زبون قانط، يريد شيئاً ما،

في الغالب يطلبون إيقاظهم في ساعة مبكرة من الصباح، كانت لوزة تحولهم إلى بدران الذي يحتل مكانها في الطبقة الأولى، لكن أصحاب البغال لا يحبون بدران، بل يريدون أن يسمعوا صوت إحدى الأختين الفاتنتين، هؤلاء الرجال ومعظمهم من المسلمين تجار في السوق أو مسافرون، يدفعون الأجرة ويضيفون فوقها بعض العملات الصغيرة مقابل أن يمارسوا فوضاهم وإزعاجهم، لكن لوزة في النهاية أغلقت باب السطح، ما ينم عن ضيقها وأنها أغلقت باب الاستجابة لأي نداء مهما كان الزبون وجيهاً، فهي يجب أن تخلد للنوم مبكرة لتصحو مبكرة لكي تطهي الطعام للمسافرين والنزلاء الذي يطلبون فطورهم باكرا أيضا، ولا تريد أن يزعجها أحد، أخيرا دخلت الحجرة وهي تتثاءب، صارت الأختان تنظران إلى بعضهما البعض بقلق، ففهمت أن كل واحدة منهما تطلب من الأخرى إشعاري بالمغادرة، ليتسنى لهن النوم، فقلت محاولاً النهوض:

ـ أين مفتاح حجرة رصابة؟ أتمنى أن يكون هناك سراج يبدد وحشة المكان.

رمقتني لوزة بامتعاض قائلة:

ـ أتعرف ما ستواجه في هذه الغرفة المقفرة؟

ـ ربما أواجه شبح عجوز غاضبة منتقمة.

سألتني بارتياب:

ـ أواثق من قدرتك على المبيت في هذه الحجرة؟

ـ لا خيار لدي، فأنا في عوز شديد للنوم.

ضحكت لوزة بتهكم وقالت مخاطبة أختها:

ـ ها ها، يظن أن بوسعه النوم هناك.

قالت حمامة:

ـ أتعرف يا... ما اسمك لأخاطبك بشكل أفضل.

قلت بضجر:

ـ اسمي سعد أو الدرويش، لا يهم، أريد ذلك المفتاح اللعين.

ـ لا تتهور يا سعد، أحبذ أن تبيت على الفناء أو بأي مكان آخر بعيدا عن تلك الحجرة الملعونة، إننا نسمع العجوز تصرخ داخلها بوحشية لاسيما في الليالي المقمرة.

ركبني العناد والغرور فقلت باستخفاف:

ـ أتعلمين شيئا، هذا الكلام لا يخيفني، لأن قلبي من الحجر فعلا، وقد سكنت في العراء وسط هضبة موحشة.

صاحت حمامة مخاطبة أختها:

ـ أعطه المفتاح العتيق، لا أظن أن بوسعه فتح الباب.

ناولتني لوزة مفتاحاً خشبياً مسنناً مغطى بطبقة قاتمة من الأوساخ، وأشرن إلى موضع الحجرة، ثم أوصدن الباب بسرعة، رحت أمشي ببطء وتثاقل، السراج في يميني، وهو أنيسي الوحيد، فطنت إلى أن الفتاتين كانتا تحاولان بخجل ثنيي عن الخروج من حجرتهن، لكن حماقتي ومكابرتي دفعت بي إلى إبداء المكابرة والشجاعة، لا يهم، قلت لنفسي، لن أتراجع، ليس بوسع أي شبح الصمود أمام تعاويذي، فقط أخشى ألا يعمل هذا المفتاح، اقتربت من تلك الحجرة الوحيدة المنتصبة على ركن السطح، ازداد وجيف قلبي حين وقفت أمامها، كان بابها الخشبي قديماً متهالكاً، نسجت

عليه العناكب خيوطها بحيث صعب علي مشاهدة المغلقة الخشبية، أزلت الخيوط عن الباب، ولمحت فتحة غائرة، فأدخلت المفتاح فيها وحركته مراراً دون جدوى، رميته من يدي، ولجأت إلى تعويذة فتح الأبواب المغلقة، لأنه لا يجوز قراءتها والمفتاح في يدي، فانفتح الباب على مصراعيه.

بدت الحجرة من الداخل مغطاة بالغبار بحيث اختفت معالمها تماما، أشياء كثيرة مبعثرة داخلها، ملابس غريبة وموقد طيني صغير، إضافة إلى أحذية بالية ولحف ممزقة متربة، وكلها غبراء لم تستخدم منذ أمد بعيد، دخلت متهيباً ورمقت السقف والحيطان بخوف، لم ألحظ شيئا غير استثنائيا فيها، بدت مثل جميع الحجرات المهجورة، صامتة ومخيفة قليلا، وهذا كل شيء، نفضت التراب عن الزاوية، ومهدت لجسدي المرهق موضعاً هناك، جلست متيقظا حذرا، كنت أعلم أن لا شيء قد يؤذيني مادامت التميمة عالقة في عنقي، رغم ذلك، لم أجرؤ على إغلاق الباب، كان السراج إلى جواري مضيئاً، والهدوء الرهيب يحيط بالحجرة، لم استطع إغماض عينيّ رغم فتوري وإرهاقي الشديد، فجأة شرع ضوء السراج يخفت ويتذبذب لسبب ما، وقفت عند باب الحجرة أتأمل القمر والنجوم، قائلا في سري: اليهوديتان اختلقتا قصة العجوز لإفزاعي، لا يدركن أن فتى الهضبة لا يخش الأشباح والشياطين و..

في تلك اللحظة، وقفت شعيرات رأسي، ودق نذير الخطر في أعماقي، وهو ذلك الشعور البغيض الذي يرافقني منذ طفولتي، التفت إلى الخلف بسرعة، محدقا في الحجرة، لا شيء هناك، قرأت تعويذة الكشف عن الأرواح الخفية، حينئذٍ ظهرت العجوز القبيحة واقفة وسط الحجرة، على وجهها المجعد تكشيرة غضب وحنق،

كانت تمسك خنجرا حادا، لعله السلاح الذي قتلت به، ما لبثت أن رفعت خنجرها في الهواء مطلقة صيحة وحشية، ثم قفزت بسرعة شديدة، وطعنتني في صدري، لكن الطعنة ارتدت بسبب التميمة الحارسة، فازداد غضبها وتراجعت مذهولة، في تلك اللحظة، تحررت من جمودي، وأوصدت الباب خلفي، وبقيت أدفع الخشب المتهالك بكل ما أوتيت من قوة، وهي تدفعه من الداخل بقوة شيطانية عجيبة، راح الباب ينفرج رويدا، وذراعي يرتخيان جرّاء قوة دفعها الرهيبة، حتى كدت أن أسقط، استعنت بتعويذة الباب المغلق، فانطبق الباب، لكنها ظلت تهزه من الداخل بعنف، حتى خيل لي أن المسامير الحديدية بدأت تخرج من أماكنها على الخشب، عرفت أنه لن يصمد، فهرولت مبتعدا متجاهلا آلام قدمي المضمدتين، طرقت باب حجرة الأختين، وأنا أقول بنبرات سريعة:

ـ لوزة، حمامة، أنا سعد.

صاحت لوزة:

ـ اذهب بعيداً، لا نستطيع أن نفتح، نحن بملابس النوم.

ـ أرجوك، العجوز تطاردني.

سمعت طقطقة الخشب يأتي من أقصى السطح، خيل لي أن العجوز البشعة حطمت الباب، وأنها في طريقها لتغمد خنجرها في ظهري، لم أحتمل المزيد من الخوف والخيالات المرعبة، فقرأت على عجل تعويذة فتح الأبواب، فانفتح باب حجرة الأختين، دخلت بسرعة وصفقت الباب خلفي، ملقيا ثقل جسدي المرتعش عليه، كانت الشقيقتان واقفتين وسط الحجرة عاريتين مرعوبتين، بالكاد نطقت لوزة باضطراب:

ـ أطفئ السراج أيها الخبيث، واخبرني كيف دخلت.

انتبهت إلى السراج المضاء، فنفخته حالا، وجلست وسط الحجرة ألهث وأسعل وانتفض من الخوف، علا صراخ العجوز الغاضبة دون أن أكترث، كانت قدماي تؤلماني قليلا، لم أهتم أيضا، فقد صرت بأمان، طلبت مني لوزة بحنق أن أبعد جلد الخروف عن جسدي لأنه يفزعها ويشعرها أنها في زريبة مواشي، ففعلت، بات نصفي العلوي عارياً، بحيث صرت أرتعد من البرد، اقتربت مني وهي تبكي، مضت تجذبني وتهزني بعنف، قائلة بتأثر:

ـ كيف فتحت باب حجرتنا وهو موصد بالرتاج أيها الدرويش البغيض؟

قلت باضطراب متجاهلاً سؤالها:

ـ رأيت العجوز، إنها أبشع كائن في الوجود، في كفها خنجر...

اقتربت واحتوتني كأم تحتضن صغيرها الخائف، سقط وجهي في فجوة ثدييها الناعمين، كدت أن أختنق، دنت حمامة أيضا والتصقت بجسدينا وبدونا كأننا نبحث عن الدفء والأمان، أو نشكل قوة ثلاثية موحدة في مواجهة شبح العجوز، لا أدري كيف تسللت إحدى الأكف، وفكت عقدة إزاري القصير، بحيث انزلق عن خصري حتى صرت عاريا تماما، أخذ عصفوري يتحرك بتوتر، بعد لحظات سقطنا جانبا غارقين في عناق محموم، سرعان ما اتخذ جسدانا وضعية اللقاء، بحيث دخل العصفور العش ومكث طويلاً بلا حراك، حتى أطلقت لوزة أنيناً خافتاً، وضغطت علي بشدة، ثم انهارت على الأرض، حين ذلك شدتني حمامة إليها، وبقينا منغمسين في عناق لذيذ، عادت لوزة بعد قليل، ودفعت أختها بحمية، وضمتني إلى جسدها الدبق الحار، طار العصفور إلى العش ثانية، لكنه هذه المرة تعلم كيف يطير ويحلق بمهارة، أخيراً نامت لوزة باسترخاء في وضعية جانبية، فانفردت بي حمامة، جعلت

تداعب العصفور حتى نهض من جديد، حينها مضت تدربه كيف يتحرك بحذر على باب عشها الصغير، ظلت تفركه وتحركه برفق، حتى خارت مرهقة القوى، سحبت نفسي، ولذت بركن الحجرة بعيداً عن لوزة، خشيت أن تفيق وتسطو على جسدي المنهك، نمت مقرفصاً متعباً ناسيا شبح العجوز، في الصباح حين أفقت، وجدت قدميّ مشدودتين بقماش أبيض جديد، تذكرت أن لوزة عند بزوغ الفجر اعتنت ثانية بجروحي التي تقرحت بسبب ما حدث في المساء، أتى الفطور ساخنا جلبه بدران، رأيته يسكب العسل الأبيض بسخاء على فطيرة بنت الصحن ثم غادر بهدوء، لا أثر للفتاتين في الحجرة بعد، فأكلت بنهم، ثم هبطت حاملاً مخلاتي، ماشيا ببطء شديد، رأتني لوزة، وخفضت رأسها نحو قدميها متبسمة بحياء، بدت مشرقة مبتهجة، قلت:

- أنا راحل.

نظرت جانباً كأنها تفعل شيئاً ما، وأجابت:

- مازالت قدماك متقرحتين.

- أعرف ذلك، لكني في عجلة من أمري.

نادت لوزة على شقيقتها حمامة، وهمست لها بشيء ما أثار فضولي، ثم التفتت إلي وسألتني باهتمام:

- هل تجيد ركوب الخيل؟

- كلا، لم يسبق أن ركبت بغلا حسب علمي.

ضحكت وقالت:

- من يجيد ركوب الأنثى يجيد كل شيء.

غمرني الخجل، ولم أدر ما أقول، فتابعت:

- سأعيرك الحصان الأبيض، عليك أن تعيده ثانية، فهو لزبون اختفى بظروف غامضة.

- أخشى أن يسقطني.

- إنه هادئ ووديع، يسمح لأي شخص من الاقتراب منه والركوب عليه.

كان الحصان الأبيض مسرجاً تمسك حمامة بمقوده، صعدت على متنه بتهيب، قدمت لي لوزة بعض التعليمات حول قيادته، كيف أجعله يسرع أو يبطئ بواسطة المقود، نقلت إلي ما كان يفعله الزبون حين يخرج من الفناء، في البداية صعب علي التعامل مع الحيوان، لكن سرعان ما عرفت كيف أضبط سرعته بواسطة المقود، أصبح ركوبه متعة لا أتخيلها، حتى صرت أفكر أن أقتني حيواناً مثله، أعود به إلى الهضبة، ستفرح حليمة حين تراه.

***

قطعت مسافة كبيرة في قاع شاسع، يغص بالمزارعين ورعاة الماشية، لاح حصاني الأبيض وهو يجري مميزاً وسط خضرة الحقول، ارتفعت هامات الفلاحين المحنية، وقفوا ينظرون ويلوحون لي بأيديهم المتعبة، لعلهم يظنون أني أمير يطوف بحصانه ليتدرب أو يتنزه، أو ساعٍ يحمل أخباراً طارئة لا ينبغي تأخيرها عن علم الأمير الأكبر، كذلك لاحظت كيف رمقني الأطفال الواقفون جوار أبواب المنازل والعزب الصغيرة، خيل إلي أنهم يحسبوني أحد فرسان الحكايات الشعبية التي يسمعونها من أفواه جداتهم، أما

الفتيان الذين في مثل سني فأشاروا ناحيتي بغيرة واضحة، وأظن الفتيات المراهقات تمنين أن يأتي عشاقهن فوق أحصنة سريعة كهذا الحصان الأبيض، ليحملوهن خفية في نزهة طويلة إلى بلدة جميلة غير معروفة، ليبتعدن قليلاً من عناء العمل في الحقول وبيوت النار.

شعرت بكل ذلك الاهتمام من الأشخاص الذين رأوني أو هكذا خيل لي، كانت حالة من الطيش تعصف بجسدي، أنعشني الهواء البارد الذي كان يضرب وجهي، ويرمي خصلات شعري للوراء، لكن الحصان يُجهد مثل الإنسان تماماً، وهذا ما لم أفكر فيه، أخيرا راح يحمحم، ويعطيني إشارات قوية من رأسه أن أتوقف عن شد المقود، لكني لم أفهم إشاراته حتى أوشكت أن يسقطني أرضا، فأبطأت من سرعتي، صرنا نسير على مهل وسط درب ضيِّق ممتد بلا نهاية، تحيط بنا الحقول من الجانبين.

شعرت أني كنت تائها، رغم ذلك لم أتوقف، تركت الحصان يسير للأمام، رحت أدير عينيّ متصفحاً القاع الفسيح باحثا عن وجهتي، متمنياً أن أرى فلاحاً أو منزلاً، وضعت راحتي فوق عينيّ الحائرتين لأحميهما من الأشعة الحارقة، أحسست بحرارة الشمس تكوي جسدي، كان قرصها المشع في وضع مائل يتجاوز رأسي قليلاً، حينئذٍ أدركت أن الفلاحين والناس وحتى المسافرين يأكلون طعامهم على الأرجح محتمين من القيظ تحت سقوف المنازل، ظهرت قرية صغيرة أو عزبة على الأرجح، بدت منازلها الشعبية مبنية من الطين الصافي السميك على نمط مساكن القيعان الخالية من مقالع الحجارة، اقتربت منها متحفزا، كان هناك بضعة أشخاص واقفين على الدرب ينظرون ناحيتي كأنهم كانوا ينتظرون قدومي، تقدموا إليّ خافضين هاماتهم باحترام، تأملوا شكلي وملبسي البسيط

الغريب للحظات، بحيث ظهرت على ملامحهم أمارات الارتياب، لم يمنعهم هذا من استقبالي، وإبراز جانبهم الطيب في الترحيب بأي غريب مهما كان شكله أو حاله، مع ذلك ظلت عيونهم تطالع حصاني بنظرات جشعة خشيت من عواقبها وإشاراتها الخبيثة، لكن سرعان ما تبددت شكوكي عندما لاحظت خلفهم شاباً مصفد القدمين أطلق صيحة مفاجئة أفزعتني، ثم أخذ جسده ينقبض وينبسط متشنجا، فارتدوا إليه وحاولوا تثبيت جسده وإيقاف حركته، لكنه كان يهصرهم ويرميهم حوله كالأوراق، اقترب مني شيخ كبير حسن الملبس، عرفت دون جهد أنه كبير العائلة، ورمى شاله إليّ قائلاً بضراعة:

- أنا أطلب عونك يا بني، انظر إلى ما نعانيه هنا.

- هذا أمر فظيع، لكني وحصاني تائهان، وفي عوز شديد للطعام والماء.

كان علي أن أرفع الشال فوق رأسي باحترام، ثم أعيده إليه وأتأهب لمساعدته، لكني لم أفعل، بدلاً عن ذلك عرضت عليه أن يرشدني إلى الطريق الصحيح، والتكرم بما تجود به نفسه من طعام وماء، للحصان وراكبه، نظر إلي خطفا قائلا باستنكار:

- كيف تعيد إلي الشال بهذا الشكل؟ لم يفعل بي أحد هذا من قبل! هل ترفض مساعدتي يا بني؟

شعرت أن هناك خطأ في سلوكي، لأني ببساطة لا أعرف شيئاً عن تقاليد الأهالي هناك، هزني من أعماقي شكله المهيب وجلال مكانته وسنه، تأثرت من نظرات عينيه الكئيبتين، وهو يمسك لحيته البيضاء بأنامله، في إشارة عتب أعرفها، فسألت في حيرة عارضاً عليه أغلى ما لدي:

ـ أتريد الحصان أيها الجد؟

أجاب متهللا:

ـ هذا صحيح يا بني، أريد حصانك لأنقل حفيدي هذا إلى الفقيه الجبري ليطرد الشيطان الذي يسكن جسده.

سألته وأنا أترجل عن الحصان:

ـ كم مرَّ من الوقت وهو مسكون؟

ـ كفاك الله الشر يا بني، كان قبل عام عريساً يغتسل عند البئر، ثم رأى حردوناً صغيراً فقذفه بحجر، ومنذ ذلك الحين ساءت حالته حتى وصل إلى هذا الحال.

ـ أتعلم؟ ذلك الحردون هو ابن أحد الشياطين، إنهم يسيرون بأجساد الطيور والزواحف أحياناً.

صاح الشيخ بانفعال:

ـ هذا ما قاله الفقيه الجبري، وقد تلا عليه القرآن وأعطاه تميمة دون جدوى.

ـ اسمع أيها الجد، هل تطعمني وحصاني وترشدني إلى طريق صنعاء، مقابل أن أعالج حفيدك؟

أخذ ينظر إلي بارتياب، ظل صامتا للحظات قلائل، ثم انفجر قائلاً:

ـ إضافة إلى عشرة ريالات أميرية أضعها في يدك.

ـ طعاماً وحسب.

قلت ذلك بصوت حازم، فصاح الجد بصوت عالٍ ذي نبرة خاصة منادياً إلى المنازل الثلاثة، فخرجت فتيات حنطيات البشرة يافعات

ذوات أحجام وأعمار مختلفة، جميعهن مشمرات السواعد، سرعان ما انحنين بإجلال، وقلن بصوت واحد منخفض:

ـ أمرك أيها الجد.

ـ اذبحن الديك الكبير، واصنعن طعاماً للضيف، قدمن أيضا بعض الماء والحنطة للحصان.

هززن رؤوسهن وانسحبن باحترام، إلا واحدة ـ وهي الكبرى ـ تقدمت وأخذت الحصان وذهبت والابتسامة بادية على محياها. أشار لي أن أتبعه، حتى توقف تحت ظل مديد لشجرة تقف وسط المنازل، سرعان ما لاحظ أن شفتي جافتان من العطش فصاح طالبا الماء، شربت من كوز فخاري بارد، ثم جلست مسندا جسدي إلى جذع الشجرة مطلقا آهة ارتياح، حتى ذلك الوقت، مازال أبناء الشيخ وأحفاده، يجاهدون لنقل الشاب المسكون إلى تحت الشجرة، لكنهم لم يستطيعوا السيطرة على جسده، بدت وجوههم محمرة وسواعدهم مخدوشة، ظلوا يكافحون بلا توقف لزحزحته عن موضعه دون جدوى، أخذ العرق يسح على وجوههم غزيرا، وبدوا في حال شديد من الخجل والإعياء، تناهى إليّ آخر صوت للديك الذي سيذبح من أجلي، عرفت من خلال رنة صوته الفاخر أنه كبير وعزيز على العائلة، فغمرني الخجل وشعرت بثقل المسئولية الملقاة على عاتقي.

طلبت من الرجال أن يبتعدوا عن مريضي، تبعني الشيخ ليمنعني من لمسه حتى لا يؤذيني، لكني دنوت بثقة عالية، وأمسكته بقوة، ثم قدته كطفل صغير إلى تحت الشجرة، طلبت منهم بغرور أن يجلبوا المطرقة ويتأهبوا لتحطيم قيوده، لأنه سينضم إلى مائدة الطعام، فضحكوا بيأس، وجلبوا ما طلبت غير مبالين بما سأفعله، لا أدري ما كان يجول في أذهانهم ناحيتي، بدوا مستخفين وقانطين وغير

مصدقين، في تلك الأثناء، خرجت الجدة، وفرضت مهابتها على الجميع، فأمسكوا كفها الصغير المرتعش، وأفرغوا لها مكاناً لائقاً قريباً من موضع الجد، ثم جلسوا فوق أحجار ملساء يراقبون ما يجري، أما الفتيات الحنطيات فقد ظهرت رؤوسهن قرب مدخل بيت النار، ورحن يراقبن ما يحدث بحذر شديد، متحاشيات أن يقع عليهن بصر الجد، كان التنور الطيني مشتعلا بالنار، والدخان يلف المكان ويتصاعد عالياً عبر المدخنة متغلغلاً في كبد السماء.

وضعت راحتي على جبين المريض، ورحت أقرأ تعويذة صرف الشياطين، فارتعش الشاب، وارتفعت درجة حرارته حتى شعرت أن راحتي تكاد تحترق، عرفت إن الشيطان يريد أن يرغمني على رفع يدي عنه، وفعلا خشيت على الشاب من الهلاك، لذا تلوت عليه تعويذة الثلج حتى أصبح جسده بارد جداً، وخفت أن يتجمد الدم في عروقه، أو يتوقف قلبه، لذا طلبت من الفتيات ماء دافئا في طشت، جلبنه سريعا من بيت النار، فدلقته كله على الجسد البارد، فاعتدلت حرارته، وهكذا دارت بيني وبين هذا الشيطان معارك ضارية بالتعاويذ والرموز السحرية، وميدانها هو جسد ذلك الشاب المسكين الذي أوشك أن يموت أكثر من مرة، لولا مثابرتي وإصراري على انضمامه إلينا في وجبة الغداء كما وعدت أولئك الرجال.

كان خصمي عنيدا جداً، يملك هو الآخر عزيمة لا تلين، ربما قطع مثلي وعوداً وقسماً صارماً ألا يتخلى عن جسد ذلك الشاب حتى يصير جثة هامدة، مضى وقت طويل وأنا أناوره، حتى فتك بي الجوع والضجر، وابتعدت الشمس عن المنازل الثلاثة الصغيرة مؤلفة شفقاً باهياً، فأدركت حينها إن عزيمتي سوف تفتر ويخور جسدي مع حلول الظلام، في حين سيزداد خصمي قوة، ويقتل

مريضي، فانتقلت حالا إلى التعاويذ الكبرى، وشرعت أقرأ تعويذة القسم الأعظم، وهي تعويذة تفزع منها جميع الشياطين، ولا يجرؤ على قراءتها كبار السحرة، لأن فيها مخالفة جسيمة لوصايا الأسلاف، ولا تُقرأ إلا لدرأ كارثة توشك أن تصيب مجموعة كبيرة من الناس، وليس من أجل شخص واحد، أو لحم ديك كبير، وطعام أضحى بارداً، لكني لم أعبأ بالمخالفة، بل اعتبرت أن عدم إيفائي بالوعد هو الكارثة ذاتها، بعد أن انتهيت منها خرج صوت صاخب من جسد الشاب معلناً استسلامه، ثم ارتفع ثانية قائلا بانفعال:

ـ أيرضيك يا سيدي أن تذهب حياة ولدي هدراً؟

سألته بصخب:

ـ من أنت حتى تقاومني مدة طويلة وتحرمني من وجبة الغداء؟

ـ أتأسف على وجبة صارت باردة؟ لقد أفقدني هذا البشري أجمل أولادي، ويجب أن يعاقب.

ـ هلا علمتم أولادكم ألا يقفوا في طريق البشر، وألا يتمثلوا على شكل زواحف وطيور وحيوانات؟

صاح الشيطان بحرقة:

ـ وأنتم أيها البشر، ألا علمتم أبناءكم ألا يؤذوا الحيوانات، وأن يكفوا أيديهم الشريرة عن أطفالنا.

سألته بغضب مرة أخرى:

ـ من أنت أيها الشيطان قبل أن أحرقك؟

- لا تفعل يا سيدي، أنا زعفوط ملك شياطين آنس وبلاد الروس، ويمتد حكمي إلى صنعاء وأرحب ونهم والجوف، وأنا أمين السر في بلاط مولانا المبجل الشيطان الأكبر ملك ملوك الشياطين.

ارتعبت من منصبه، ومكانته العظمى في عالم الشياطين، رغم ذلك تظاهرت باللامبالاة، وقلت بصوت حازم:

- مهما تكون يا زعفوط قويا ونافذا لا يعنيني ذلك، أنا الآن أسيطر على روحك، وآمرك أن تخرج من جسد هذا البشري الشقي.

صاح الملك زعفوط بنزق:

- كيف أخرج يا سيدي، وهذا البشري سيعود إلى إيذاء الزواحف ويقتلها دون أن يلحقه أي عقاب!

- هاأنذا أحكم عليك بالخروج، وعلى أطفالك بعدم التحول إلى كائنات حية، وأحكم على هذا البشري بالموت في حال أصاب أي حيوان أو زاحف بالأذى لاحقا.

صاح بحماس:

- هذا حكم عادل، سأخرج من جسده، لا ريب أن هذا البشري سيعود إلى إيذاء الحيوانات، وحينئذٍ سينال عقابه المستحق، فالبشر هنا ميّالون للأذى والشر.

- ما علامة خروجك عن جسده؟

- سيسقط جزء من جبل ضوران، وتسمعون صدى ارتطامه بالأرض، سترون أيضا سحابة من الغبار تغطي السماء.

في تلك اللحظة، تصاعد من جسد الشاب دخان عظيم أصفر خرج من فتحات جسده ومسام جلده وتبخر عاليا حتى اختفى، بعد

لحظات وجيزة تزلزل المنزل، وثار غبار هائل من جهة ضوران، سرعان ما انتشر في الجو حاجباً الرؤية، أدركنا أنها علامة خروج ملك الشياطين عن جسده، سرعان ما وقف الشاب على قدميه، وأخذ يحدق في وجوه أقاربه، لما رأى الجد والجدة انحنى باحترام، وسأل بعجب عن الذنب الذي اقترفه ليستحق تلك القيود، أشرت إليهم أن يفكوا قيوده، ثم سرت مبتعداً عنهم بضع خطوات، لأداري عنهم ضعفي، ثم فجأة سقطت أرضاً بلا حراك، فهبوا لنجدتي، وصبوا في وجهي قناني الماء دون جدوى، أفقت في المساء، كان جميع أفراد العائلة الكبيرة يجلسون بصمت وحزن في حجرة واسعة، كدت أن أسألهم أين أكون ومن يكونون، لكني رأيت الديك الكبير المشوي إلى جانبي، فتذكرت ما جرى، فرحوا حين استفقت من غيبوبتي، ظلت الجدة تبتهل دون توقف، مازال لديها بصر طفيف لتميز وجه شخص غريب يعاني من خطب ما، فرحت حين رأت حفيدها صالح دون قيود، جلس الأخير قرب قدميها يدلكهما كما كان يفعل قبل أن يسكنه الشيطان، تهلل وجه الجدة أيضا حين رأتني أستيقظ، بدا الجد ويدعى قايد ممتناً وسعيدا، بدوا جميعاً فرحين ينظرون إلي بإعجاب وإشفاق.

كانت امرأة صالح أكثرهم سروراً، ظلت تبادله النظر وتبتسم بخجل وزهو، فوجئ هو أنها ظلت في انتظاره، ولم تغادر إلى بيت أهلها، لاح في عينيه أنه يتوق إلى عناقها وتقبيلها، لكن هذا الأمر غير لائق في حضور العائلة، لاسيما الجدين اللذين يملأ حضورهما أجواء الحجرة مهابة واحتراماً، يبدو إن أي شيء خاص بين الأزواج لا يحدث إلا في الغرف المغلقة، وسط عتمة مطبقة وهدوء تام، مهما يكن، فالجد قايد رغم تشدده في هذا الجانب، إلا أنه رجل منصف يؤمن بالأمور العادلة، بحيث لاحظ ما يدور بين الزوجين من إشارات ومناجاة خفية وحنين متبادل،

ولذلك طلب منهما المغادرة على الفور، فقاما وانسحبا دون أن يقولا شيئاً. وظل يخاطبني من فينة إلى أخرى قائلاً بصوت آمر:

ـ كُل يا بني من لحم الديك، لم أكن لأذبحه حتى لو جاء الأمير الأكبر إلى منزلي، فهو الذي كان يوقظني قبل صلاة الفجر، ويحتل بين الطيور المنزلة نفسها التي أحتلها في عائلتي.

ظن أنني لن أتردد عن طاعته كما يفعل أبناؤه وأحفاده، أوضحت له الأمر أكثر من مرة، قائلا باحترام:

ـ أنا لا أرفض لحم ديكك العزيز أيها الجد الشهم، لكني ـ رغم جوعي المفرط ـ لا أستطيع أن ابتلع لقمة واحدة، لأن ما حدث لم يكن سهلاً.

رد قائلا بحزم:

ـ لن تغادر منزلي حتى تذوق طعامي.

لم يكن لأي شخص في العائلة الحق أن يغادر ما لم يؤذن له، ولأسباب منطقية كما حدث في حالة صالح وامرأته، أخيراً نهض الجدان المتعبان، ونهض الجميع احتراماً، ووقفوا في أماكنهم جامدين ريثما يغادرا الحجرة، لكن الجد قايد أوقف حفيداته بإشارة من كفه قائلاً بصرامة:

ـ لا تغادرن الحجرة حتى يأكل.

مكثن في حجرتي، وأظهرن من الرقة واللطف ما يجعل الجبال تلين، لكن الطعام كان يرتد من حلقي، حين نمت أطفأن السراج، واستلقين إلى جواري، في الصباح الباكر، أفقت ووجدت نفسي في مكان غريب، وقربي بضع فتيات منتظرات، وفطور ساخن،

استطعت هذه المرة أن أبتلع شيئا من طعامهم، ثم غادرت فوق حصاني الأبيض سالكاً الدرب الذي أرشدوني إليه.

فكرت كيف يكون حال عائلتي فيما لو كان فيها رجل حازم مثل الجد قايد، لن يجرؤ أبي أن يشكوني للعامل، أو يتصرف بشكل عدواني، كما فكرت في أمور كثيرة، كان الحصان يجري صاعداً وحيناً هابطاً دون توقف، في أحيان أخرى أقطع ودياناً بركانية جافة تتدرج نحو الارتفاع، تتخللها هضاب صغيرة، فأقول لنفسي بكدر: لقد اقترفت مخالفات جسيمة في طريقي، وتأخرت على معلمي، وأخشى أن يطول عذابه وانتظاره وينفد صبره.

كانت مخالفتي الأخيرة تحز في نفسي، إذ لجأت إلى تعويذة القسم الأعظم، وأخرجت شيطاناً نافذا من جسد شاب قتل ولده بحجر، لم أكن حينها أعلم إنني سأواجه ملكا جبارا من ملوك الشياطين الذين يحكمون هذه البلاد، ناهيكم أنني أسير على أرضه فوق حصان جائع هزيل، أنا الفتى الرعديد الذي يخشى من عامل مدينة، ويرتعب من كبير قرية، أصبحت الآن في مواجهة جميع الشياطين والبشر. ماذا بوسعي أن أفعل؟ سألت نفسي باغتمام.

***

حصاني الأبيض أمسى عطشانا وجائعا، يحمحم دون توقف ويهز رأسه بانزعاج، قلبت عينيّ في المكان، لم يكن على تلك الهضاب البركانية أي أثر لعشب أو ماء، بعد مدة من البحث رأيت راعياً على أكمة صغيرة سوداء، كان واقفا على لسان صخري بارز، يراقب مجموعة سائمة من الأغنام، عجبت من حال ذلك الراعي وغنمه، فالأرض هناك قاحلة، خالية من العشب والنبات، حتى

ساورني الشك أنها تلحس الحصى والتراب، اقتربت من الراعي، وحييته، فرفع حاجبيه دون كلام، سألته عن الماء والعشب لأجل حصاني، فألقى إلى الحصان نظرة خاطفة لئيمة، ثم أشار إلى جبل بعيد، اتجهت نحو ذلك الجبل، وأنا أرى بياض ماء وسط وهج الشمس الحارق، ثم لا أجد شيئاً، حتى أضحى الجبل قريباً.

دهشت وأنا أرى قسماً ضخماً من الجبل مستلقٍ على الأرض، كانت آثار القطع ظاهرة على الجزء الراسي المتبقي من الجبل، بدا كأنه فصل بسكين عملاق، لاحت هناك قرية صغيرة بالقرب، وشراذم من الناس يتفرجون بعيون زائغة على الجزء المقطوع من الجبل، مشيرين بحسرة إلى أنه طمر عدداً من الحقول الصغيرة للأهالي، كان هناك فلاح غاضب يقف فوق الجبل الجاثم على حقوله، ممسكاً مطرقة ضخمة بيمينه المشمرة المتحفزة، من فينة إلى أخرى يثور غضبه بشكل مفاجئ، فيهوي على ظهر الجبل بالمطرقة، ثم يرفع رأسه بيأس. لم ينتبه أحد إلى عبوري، سرت إلى القرية المنزوية في شمال الجبل، شاهدت آثار الذعر بادية على وجوه السكان، معظم المساكن بدت مشققة الجدران، لكن هذا لم يمنع الأطفال من مطاردة حصاني، قذفوني بالأحجار، كان بعض الرجال يشاهدون ما يحدث ولا يحركون ساكناً، كأن ذلك لا يعدو أن يكون طقساً من طقوس استقبال الغرباء، أجفل الحصان، وأعياني الأمر، فترجلت وأمسكت عصا عثرت عليها على الأرض، ونفخت فيها، ورميتها في وجوههم، سرعان ما تحولت إلى أفعى مخيفة جعلتهم يفرون صوب منازلهم.

كان هناك بئر ونساء وطشوت ملقاة على الأرض، أسقيت حصاني، وشربت بعض الماء، كان مذاقه غريباً، مثل المياه الكبريتية في المناطق البركانية، بالقرب كان هناك عددا من حقول

البرسيم، قادني الحصان نحوها، وهو يهز رأسه، متأهباً لإشباع معدته الخاوية، لكن صاحب حقل البرسيم قفز إلى أمامي، وأشار محذراً، فقلت باحترام:

ـ هل تمن علي بقليل من البرسيم للحصان؟

رد عليّ بجفاء:

ـ البرسيم بالكاد يسد حاجة حيواناتي.

ملت إلى الحقل المجاور، قابلتني امرأة سمينة فظة، صاحت في وجهي حين سألتها البرسيم:

ـ ريالاً للحزمة الواحدة.

ـ لا أملك المال، أنا درويش فقير.

ـ كيف لا تملك المال، وأنت تركب فوق حصان باهظ الثمن، لقد صرت أشك في أمرك.

جُلْت بين أصحاب الحقول الأخرى، كانت ردودهم مشابهة، بل ووقحة أحياناً، كانوا ينظرون إلي بارتياب، بقي حقل واحد لاحت عليه فتاة يافعة وامرأة كبيرة تقطفان البرسيم، قلت لنفسي: ما الفائدة في سؤالهما، وإذلال نفسي بين يدي تلك الفتاة الصغيرة، لا ريب إن أهالي هذه القرية من رعايا الملك زعفوط.

رغم ذلك اقتربت من تلك المرأة الكبيرة والفتاة، ترددت طويلاً، خشيت أن يكون ردهما قاسياً، رفعت الفتاة رأسها، ونظرت إلي بعجب، ثم نبهت أمها إلي قائلة:

ـ شاب غريب هنا.

التفتت المرأة وألقت عليّ وحيواني نظرة هادئة، ثم نهضت وخاطبت ابنتها قائلة:

ـ قدمي ما جمعت من برسيم للحصان.

اقتربت المرأة مني وتابعت بعتب:

ـ حصانك يبدو جائعا أيها الفتى، ألم تجد شيئاً لتطعمه؟

ـ لم أجد عشباً في الهضاب البعيدة، وهنا رفض أصحاب الحقول أن يقدموا شيئاً.

ـ نعم الأهالي هنا أشرار، هناك شائعة قديمة تقول إن شياطين هذا الجبل يتبولون فوق رؤوس سكان القرية كل مساء.

قلت مهوناً عليها:

ـ هذا فظيع حقا، قريتي في قاع الحقل أزيلت بعد أن دخلتها الشياطين.

هتفت باهتمام:

ـ زوجي سعيد قطن من قاع الحقل، جاء قبل أعوام طويلة وتزوج بي.

ـ عجباً، سمعت بهذا الاسم يتردد في قريتنا الرباط.

ـ يا للمصادفة، إن قريته تدعى الرباط فعلا! سيفرح حين يراك.

ترجلت احتراماً للمرأة وابنتها اليافعة، كان حصاني يحمل على متنه حزماً من البرسيم طعامه وطعام بقرة صاحبة الحقل، فرحت أني سأقضي المساء هناك، كانت الشمس قد اختفت خلف جبل ضوران المحطم، كانت ترعبني فكرة المرور في الظلام تحت ذلك

الجبل المقطوع، خشيت أن يدرك الملك زعفوط أن المصادفة قادتني إلى قرب مقر حكمه، لن يتأخر عن سحقي كحشرة، كان حصاني يلفت أنظار الأهالي، بدت عيونهم الخبيثة تشع بغضاً ونفوراً، قالت صاحبة حقل البرسيم التي لم أعرف حتى تلك اللحظة اسماً أناديها به:

ـ انظر هناك، الأشرار ذاهبون لأداء صلاة المغرب في المسجد، إنهم يكرهون الغرباء.

أشارت المرأة إلى الرجال بحذر، تغيرت ملامح ابنتها التي لم أعرف اسمها أيضا، بحيث ظهر الخوف في عينيها جليا، وخاطبت أمها بانزعاج:

ـ هيجان في طريقه إلى المسجد.

ردت الأم بقلق:

ـ هل رآنا يا غزال؟

ـ أظن ذلك.

قالت الأم باستهانة:

ـ لن يفعل بنا الملعون أكثر مما فعل.

أشرقت في عيني الفتاة بعض الدموع أو خيل لي، انتقل قلقهما إليّ بسرعة، ولم أجد شيئاً لأقوله سوى تعليقي على اسمه، قلت:

ـ اسم هذا الرجل قبيح للغاية.

ـ نعم، هو كذلك، وأفعاله أكثر قبحا، إنه كبير قرية الجبل.

أضافت الأم متبسمة:

ـ لا تشغل بالك، أنت ضيف عزيز.

دخلنا منزلاً متوسط الحجم، يقع عند أطراف القرية، جلست في حجرة مضاءة بفانوس طفيف الضوء، بدت البسط واللحف عتيقة ممزقة، لكني كنت سعيداً في المبيت بين أربعة جدران، والحصول على بعض الطعام، قلت لنفسي أيضا: رب هذا المنزل من قريتي، سيفرح بي لا ريب.

بعد لحظات دخل الزوج وهو يسأل المرأة عن المفاجأة التي تنتظره، أخذ يقول إنه في عجل من أمره، ولا يريد أن يتأخر عن الصلاة في المسجد، جعلت تقوده وتدفعه، حتى ظهر عليّ ورآني، دهش وهو يرى شخصاً غريباً في منزله، نهضت احتراماً متوقعا أن يبتهج ويرحب بي، ظل صامتاً بعض الوقت، ثم نظر إلى امرأته الضاحكة البشوشة التي ظننت أنها تقدم إليه أعظم مفاجأة. قال أخيراً بارتياب:

ـ من هذا الفتى؟

ـ إنه من قريتك، من الرباط يا سعيد.

انفجر صائحاً بنزق:

ـ أهذه هي المفاجأة السعيدة؟

ـ نعم، ألست سعيداً بابن قريتك؟

نظر إلي منكمشاً وخاطبني بنبرات مرتابة:

ـ أنا لا أعرفك، من هو والدك؟

ـ سرحان الطحان.

أشاح بصره جانبا، وقال كأنه ينفي صحة ادعائي:

ـ لكن سلطانة لم تنجب سوى ثلاث بنات.

ـ أنا طفلها الخامس.

ـ أنا لا أعرفك حقاً، سأذهب إلى المسجد.

قال ذلك بجفاء وعناد، وخرج جاذباً امرأته إلى الصالة الصغيرة، سمعته يهمس لها عاتباً:

ـ ألم أخبرك أني لا أحب قريتي وأهلها؟

ـ لا، لم تخبرني شيئاً عن ماضيك، بالكاد انتزعت منك اسم قريتك ومنطقتك.

ـ ألا تدركين ما يفعل هيجان بالناس الذين يأوون الغرباء؟

ـ لن يفعل بنا أكثر مما فعل....

قاطعها بتوتر:

ـ هذا الفتى غير مرحب به في منزلي.

ـ سعيد.

لم أفهم سبب خوف الرجل من كبير القرية، ما استوعبته هو أنني ضيف غير مرغوب به، وقفت المرأة بخجل قرب الباب، بدت مترددة دون شك، لا تدري كيف بمقدورها أن تعلن عن قرار طردي من منزلها، كان وجهها كحبة طماطم، لذا وفرت عليها العناء، وخرجت بهدوء، كانت عيناها وعينا ابنتها غزال تشيعاني بأسى، أخذت حصاني، وذهبت منكسراً محبطاً، نظرت بخوف إلى ذلك الجبل المشئوم، اقشعر بدني حين فكرت أن علي أن أسير قربه، لم يكن هناك طريق آخر لاجتازه، اقتربت منه، في تلك الأثناء افتقدت مخلاتي، أدركت أنني نسيتها في منزل سعيد قَطَن،

كرهت العودة إلى هناك، كان بوسعي أن أتجاهلها، لكن عقار معلمي مختبئ فيها، عدت أدراجي، حفزني أن المنزل في أطراف القرية، وليس من المحتمل أن أصادف أحدا من الأهالي، أو كلباً مزعجاً، لا ريب أن كلاب هذه القرية تحمل طباع أهلها، كذلك قلت لنفسي: سأتخفى وأدخل المنزل خلسة والتقط المخلاة دون أن أنظر في وجه صاحبة المنزل المتورد. اقتربت، وعقلت حصاني خلف المنزل على ساق شجرة صغيرة، مسحت وبر رقبته وهمست في أذنه: انتظر يا رفيقي، سأعود حالاً.

درت حول المنزل متخفياً، تقدمت بحذر بالغ، فجأة رأيت رجلين قرب الباب، أحدهما يحمل بندقية والأخر يمسك عصا غليظة، سمعت صوت أنين وبكاء في الداخل، تملكني الخوف والقلق، ظننت أن كبير القرية يعاتب أصحاب المنزل على إيواء غريب دون إشعاره بوجوده، أو شيئا من هذا القبيل، كان الحارسان يسدان المدخل، ما دفعني أن أقذف حجراً إلى جانبهما الأيسر، تحركا بضع خطوات متوثبين، حين ذلك دخلت بهدوء، ظهرت من باب الحجرة التي يأتي منها البكاء، راعني أن أرى رجلاً عارياً بشعاً ضخم الجسد منبطحاً فوق غزال يتحرك نافخاً كالثور، فمه مفتوح من النشوة وأسنانه بارزة كحيوان ضاري، كان يضربها حين تتملص منه، في تلك اللحظة وجدت نفسي أبحث عن شيء ما، مطرقة، حجر، عصا، فأس، أي شيء، انبعثت في نفسي غريزة القتل التي لا أذكر أنني فكرت فيها بإلحاح، كان الوالدان يرتعدان في الحجرة المجاورة ويتعاتبان همساً، لم أجد شيئاً في المنزل للقتل، كنت مرتبكاً بإفراط، عدت إلى الحارسين وجمدتهما بالتعويذة، ترددت للحظات بين البندقية والعصا الغليظة، لكن صوت ألم حاد خرج مدوياً من ثغر الفتاة المسكينة، أرغمني أن أسحب العصا من كف الحارس، ركضت رغم قصر المسافة،

ونزلت على رأس الرجل الضخم بالعصا، لا أدري، عشر ضربات أو أكثر، كنت سأظل انهال عليه بالضرب إلى ما لا نهاية، لكن صراخ الفتاة جعلني أتوقف، كذلك صراخ الحارسين اللذين يستنجدان بالأهالي، عدت إليهما ولم يبارحني الغضب بعد، فأخرستهما بضربات وحشية، لن أصف الدمار الذي ألحقته بأجساد الرجال الثلاثة، لأن الوصف وحده يعد جريمة أو تبجحاً من قاتل أعماه الغضب، ومهما تكن دوافع القتل مبررة فقد كان بوسعي أن أميتهم بضربة واحدة، نعم كانت ضربة واحدة تكفي لكل رجل من الثلاثة.

عدت إلى كبير القرية هيجان وحملته كقشة رغم ضخامته ورميته جانباً بعيداً عن جسد الفتاة، لكن لم يند عن جسد غزال أي حركة. خشيت أن تكون قد نالت إحدى ضرباتي المدمرة، أتيت بماء ونثرت بعضا منه على وجهها المتورد، ثم كبيت عليها ما بقي في الإناء، فأفاقت كأنها خرجت من حلم مرعب، وشرعت تصيح بهلع:

ـ من هناك؟ ماذا يحدث؟ أبي، أمي.

صعد صوت الأب خافتاً:

ـ غزال هل غادر الكبير هيجان؟

ـ إنه مقتول في الغرفة.

هرع الوالدان إلى الحجرة مرعوبين، وأخذ سعيد قطن يلطم وجهه، ويصيح باكياً:

ـ وا مصيبتاه! من فعل ذلك؟ سوف تلصق بنا التهمة، خلصنا يا الله.

شردت الأم، ولم تقل شيئاً، عاودني الغضب، فرفعت العصا في الهواء لأضرب رأس الأب الرعديد، لكن غزال اقتربت وسدت طريقي، صارخة في وجهه:

ـ أنت نذل وسافل، أشك في أنك والدي.

هرب الرجل من أمامها، فيما نكست الأم رأسها بخجل، ثم رفعته قائلة بعجب:

ـ ماذا حدث يا ابنتي؟

ـ لم أر أحداً، عصا غليظة كانت تسقط على رأس هذا الملعون.

قبل أن تقول أمها شيئاً، عاد الأب من المدخل صارخاً باستهوال:

ـ يا للمصيبة، الحارسان مقتولان أيضاً، من تراه فعل هذه الجريمة النكراء؟

أجابت غزال وهي تكز على أسنانها:

ـ أنا من فعل ذلك أيها الوغد.

ـ لكنك ستذهبين إلى السجن.

ـ كلا، انظرا، أشعر بالدوار، أظنني سأذهب إلى المقبرة.

نظرت بدوري إلى حيث أشارت، كانت الدماء تخرج من تحت ردائها الممزق، سقطت على الأرض، عند هذه الوهلة قرأت التعويذة، وانبثقت أمامهم كعفريت تنشق به الأرض، فأجفل الوالدان وقالا على التوالي:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم.

ـ من أنت يا هذا؟

قال الأب ذلك، رغم أنه رآني من قبل ويعرف شكلي المميز، لكن هذا ما استطاع أن يقوله، لم أهتم، فقد كانت غزال خائرة القوى مرمية على الأرض، جلبت مخلاتي، ورفعت القطع الممزقة التي تستر أجزاءها التحتية، ونثرت على ذلك الموضع كل مسحوق دوائي الذي يوقف النزيف، وهو أقوى صنف ابتكره معلمي لإيقاف الدماء، والتئام الجروح.

قفز سعيد قطن إلى أمامي صائحا بتنمر:

ـ ماذا تفعل بابنتي يا ابن سرحان الطحان؟

قالت امرأته وهي تبكي :

ـ الآن أصبحت رجلاً غيوراً يا سعيد.

راودتني مرة أخرى فكرة قتله، نظرت إلى العصا الغليظة، كانت ملقاة بجانبي، مع ذلك لم أفعل، قال مخاطباً امرأته بنزق:

ـ لقد كنا نعيش بسلام حتى أتى هذا الفتى وحصانه اللعين.

نظرت إلى ابنتها وردت عليه بصوت مختنق:

ـ ألم يفعلها هيجان مع امرأته من قبل أمام عينيك؟

أخرس ولم يحر جواباً، هرب ناحية المدخل ووقف يراقب الطريق، فجأة عاد وهو يلطم وجهه ويصيح:

ـ فضح أمرنا، هناك مشاعل قادمة.

أخذت العصا الغليظة وذهبت، رأيت أكثر من عشرة مشاعل تقترب بسرعة من المنزل، كان سعيد قطن يتحرك بفوضى وجنون إلى جواري، ما أفقدني تركيزي، فجأة قفز ليهرب إليهم، فجمدته بالتعويذة قرب المدخل، فهي أسهل وأسرع التعاويذ، بضع كلمات

ورموز وإشارة من يدي كانت كافية، ثم رحت أقرأ على العصا تعويذة الوحوش بينما كنت أروم تعويذة الأفعى الضخمة، رغم خطأي انطلق نحو القادمين حيوان ضار شتت شملهم، واختفوا، استعدت عصاي واقتربت من سعيد قطن، صارت عيناي وسط رأسي كما يقال، لكن امرأته أمسكت بي وهي تقول بتأثر:

ـ لا تفعل يا بني، دعني أتوهم أن لدي بقايا رجل في المنزل.

بدلاً من ضربه حررته، فصار ينظر إلي شزراً ويقول بصوت كالمواء:

ـ أنت ساحر خبيث، لا أدري كيف غفلوا عنك، ولم يقذفوا بك إلى المحرقة!

نهرته امرأته قائلة:

ـ اسكت يا سعيد، لا أدري كيف غفلت وتورطت بالزواج بك.

صاح بانفعال:

ـ كيف أسكت وهناك ثلاث جثث للأهالي مجدولة في منزلي.

أخذت الجثث إلى الخارج، ولمست الأرض وقرأت تعويذة التراب، فاختفت بباطن التربة، سمعته يصيح بهوس:

ـ مازالت دماؤهم منتشرة في كل مكان، عما قريب ستصبح أطياف القتلى تجول في أرجاء المنزل.

تحركت من موضعي قرب الفتاة، وقرأت تعويذة تحويل الدماء إلى ماء، فاختفت الدماء. كان جسد الفتاة مازال حاراً وأنفاسها كانت تتصاعد ببطء شديد، حملتها إلى الحجرة، راح والدها يئن ويزن فوق رأسي شاكياً الحال الذي وصلت إليه ابنته، فكرت أكثر من

مرة أن أجعل ضحاياي أربعة وليس ثلاثة، لقد صرت قاتلاً ولا يضيرني إضافة رجل متبرم ووغد إلى رصيد جرائمي ومخالفاتي الجسيمة، لكن نظرات المرأة الصامتة الحزينة كانت توقفني.

أخيراً، وبعد مرور وقت طويل، تذكرت حصاني الأبيض، لقد وعدته أن أعود سريعاً، كان ذلك المساء هو أسوء مساء مر بي دون شك، عرجت إلى خلف المنزل، وراعني أن أجد المكان خالياً. حزنت كما لو فقدت تميمتي الحارسة، سرت متخفيا في شوارع قرية كئيبة كالحة، صرت أعدو مسرعاً، كانت الكلاب تشم رائحتي وتطارد طيفي الخفي بضراوة، ما أبغضها من حيوانات حين تصر على فضح شخص ما غريب! رأيت بعض المشاعل تتجه صوب المسجد الأبيض. سرت خلفها، كان أهالي القرية هناك، يحملون أسلحتهم، ويرسمون الخطط للهجوم على منزل سعيد قطن، سمعت بعضهم يقول إنه رأى كبير القرية يذهب إلى هناك عقب صلاة المغرب، تكلم بعضهم عن حيوان غريب طاردهم، كما أفصح آخرون أنهم سمعوا صراخ الحارسين المرافقين للكبير.

لفرط غيظي وحنقي من اللص الذي سرق حصاني، ولا شك أنه من الأهالي، قمت برسم دائرة سحرية حول الفناء والمسجد حابسا الرجال هناك، رحت أقفز وسط نباح الكلاب وصراخ الرجال المحبوسين، إلى أفنية المنازل وزرائب الحيوانات، أصخت السمع عسى أسمع صوت حمحمته المميزة، مكثت أسير حتى انهرت يائساً قرب جدار حجري متين، جثمت على الأرض ألهث كحمار يحرث الحقل منفرداً، أسندت ظهري إلى الأحجار الباردة في قرية غريبة، أفكر في مخالفاتي التي اقترفتها، قتلت ثلاثة رجال لا أعرفهم! وفقدت حصاني، أقول حصاني تبجحاً، في الحقيقة إنني لا أملك شعرة واحدة في ذيله، وقد التزمت بإعادته إلى الأختين لوزة

وحمامة، ربما صاحبه الآن يقف أمام المرأتين مطالبا بحصانه، مهددا بسجنهما، لعلهما الآن تراقبان الطرقات التي سأظهر منها. لكن الأدهى من كل ذلك هو أني سأقطع الطرقات الوعرة سيراً على قدمي حتى تتفطران، قمت بتثاقل لأغادر المكان، أثناء ذلك، سمعت ضربة حافر قوية تصدر من مكان قريب، ثم تكررت الضربات، سمعتها بوضوح تأتي من خلف الجدار، تمنيت ألا يكون حماراً أو بغلاً يخال نفسه يمشي متبختراً أمام أنثى مغرية ليلفت انتباهها إليه، بينما هو محبوس بين الروث في مخدع معتم.

تسلقت ذلك الجدار، رأيت خلفه فناء وبابا موصدا بقفل ثقيل، قرأت تعويذة الأبواب المفتوحة، فتحطم القفل وانفتح الباب، رأيت حصاني في الداخل مشدود الخطم بسيور جلدية، نزعتها عنه، وأخذته مسرعاً، لا أريد البقاء لحظة واحدة في تلك القرية، عرجت على ذلك المنزل، وقرعت الباب بهدوء، طلبت مخلاتي، كانت امرأة سعيد قطن تذرف الدموع حين ناولتني المخلاة، توقعت أن ابنتها فارقت الحياة، لكنها أفصحت أن غزال شفيت، وأن والدها سقط في نوبة من التشنج كأنه مصاب بالمس الشيطاني، وهو بحاجة إلى مساعدتي، فكرت في أن سعيد قطن قد نال حظه من النحس، وأن الشياطين يودون أن أحشر أنفي في شئونهم ثانية فينالون مني، لذا تعللت بأني لا أستطيع مساعدته، وغادرت القرية بأقصى سرعة قاطعاً طريق جبل الشياطين غير مبالٍ بأي شيء، كنت قانطاً يائساً انتظر عقوبة مخالفاتي الجسيمة، ولن أتورع عن فعل أي مخالفة، أدركت أنه مازال لدي عمل واحد صالح يجب أن أقوم به، وهو ليس صالحاً بالمعنى الحرفي للكلمة، لكني أريد أن أحرر معلمي من عذابه، لا أعرف من يحررني إذا عوقبت، لا أدري حقا ما تخبئه لي الأيام! كنت أقول لنفسي: من كتب علي هذا الشقاء؟ لِمَ لا أكون شخصاً عادياً لا يفقه شيئاً عن هذه العلوم

السحرية! فأعيش بدعة وسلام مثل كثير من البشر، لا أجد شخصاً مسئولاً لأعاتبه عما يجري لي من متاعب، صحت بقنوط: لِمَ يحدث لي كل ذلك؟ سمعت، أو خيل لي، ضحكات تتردد أصداؤها عمق ذلك الجبل الملعون، يبدو إن ذبذبات حزني أسعدت الشياطين، سار ذهني إلى ذلك الراعي وأغنامه، لقد أشار إليّ أن أعبر هذا المكان، بحيث وقعت في فخ نصبته لي الشياطين، جعلوني أقترف بعض المخالفات الجسيمة، ربما هناك من يود أن يعوقني عن إنقاذ معلمي من عذابه، هكذا ظننت في نفسي.

***

طرت بالحصان بأقصى سرعة، توقفت بعض الوقت، لأسأل فلاح يحرث الأرض بحمارين، وأدركت أنني في الطريق الصحيح، مضيت قليلاً أمشي ببطء حتى نمت على ظهر حصاني، لم توقظني سوى أشعة الشمس، دب في جسدي بعض النشاط، ولعب هواء الصبح المنعش في جسدي، وأوقعني في حال من الطيش، رحت أعدو في أرض مستوية تتخللها بعض المرتفعات والمنخفضات الصغيرة، صادفت مسافرين يركبون البغال، تجاوزتهم بسرعة مخلفاً لهم سحابة من الغبار، قائلا لنفسي: المساكين يمشون ببطء فوق حيواناتهم البائسة، بعد قليل ستلفحهم أشعة الشمس الحارقة ويرهقهم السير الحثيث ويطول بهم السفر. فجأة سمعت دوي تفجيرات متفرقة، لم آبه لذلك، التفت إلى المسافرين بغرور، كانوا يلوحون لي رافعين شيلانهم في الهواء، فانزعجت، عدت إليهم مسرعا لأرى ما دهاهم! خاطبني رجل أسمر البشرة كان يتقدمهم مشيرا إلى الجبل:

ـ ألا تسمع أيها الشاب الأحمق؟

أجبت بطيش:

- إنها تفجيرات! لكنها ليست غريبة عليّ، لقد سمعت أعظم منها في يوم ما.

- أيها الشاب الطائش، الجنود يتدربون على إطلاق النار فوق تلك القمم القريبة، ينبغي أن تسير معنا ببطء.

- لدي حصان أبيض، سوف يلاحظون ذلك.

- هذا صحيح، إنه هدف واضح، سوف تثير انتباههم وفضولهم، لن يجدوا ما هو أجمل من حصان أبيض متحرك ليمتحنوا قدرتهم على التصويب.

- هذا كلام غريب! أنا في عجالة من أمري، ولا أستطيع السير ببطء.

أسرعت متجاهلاً تحذيرهم، كنت أقول لنفسي: ما جدوى الحذر لإنسان هالك! وصلت إلى تحت تلك القمم منطلقاً كالريح الموسمية، حين ذلك انهالت علي الكرات النارية، فصهل حصاني بذعر، ورفع قائمتيه في الهواء حتى انزلقت عنه، ووقعت على وجهي وسط شجيرة شوكية صغيرة، غبت عن الوعي بعض الوقت، ثم قمت متثاقلاً، تفقدت الأضرار التي لحقت بي، كان ساقاي مكشوطين، وندوب على ذراعيّ وأشواك وخزت جسدي، صار وجهي يشتعل من الألم، بحثت عن مخلاتي، ووجدتها إلى جانبي، حصاني هناك بعيداً يأكل شجيرة ما، حواسه متيقظة، بدا مذعوراً يتحرك بهياج، اقتربت منه ببطء حتى كدت أن أمسك مقوده، انفجرت كرة نارية قريبة، وأجفل ثانية قاطعاً مسافة أطول، غمرني الضيق واليأس، صرت أتقدم بحذر مطلقاً صفيراً وأصوات نداء غريبة كنت أظنها تجدي لتهدئته، لكنه ظل يجفل، أخيراً انتبهت إلى

أنني استطيع تجميده بالتعويذة، فقرأتها، وأشرت إليه، ذهبت بيسر واعتليته، وانطلقت في طريق وعرة حتى خرجت منها إلى الطريق الأولى، كان المكان هناك آمناً، والهدوء مخيماً، رأيت المسافرين السمر ببغالهم البطيئة، تعجبت كيف سبقوني إلى الطريق! اتجهت صوبهم بسرعة خفيفة هذه المرة، ضحكوا بتشفٍ حين رأوني، ثم كفوا عن الضحك حين لمحوا ساقيّ الجريحين، مشينا معاً، أشار ذلك الرجل -الذي خاطبني في المرة السابقة- إلى الجبال الواقفة عن يميننا وقال هامساً كأنه يفشي سراً:

ـ الجنود هناك يطلقون القذائف من مدافع الهاون.

سألت كازاً أسناني بحقد:

ـ من أين تأتي ذوات الأعناق الطويلة اللعينة؟ أتمنى أن أسحقها وأدمرها ذات يوم.

ضحك الرجل على سذاجتي وأجاب:

ـ تأتي من بلدان بعيدة تقع خلف البحار، يصنعون الكثير منها في مصانع عملاقة، هناك حروب كثيرة تدور في شعوب فقيرة بائسة، وهذه المصانع تزودهم بهذه المدافع المميتة.

سألت بحماس:

ـ ما هي البحار؟ أهي اسم بلد؟

ضحك الرجل الأسمر كثيراً، ثم أجاب بتهكم:

ـ ألا تعرفها يا صاحب الحصان الأبيض! إنها بِرَك عملاقة تمتد إلى بلدان كثيرة، ينتقل المسافرون عبرها على مراكب تسمى السفن، لا شك أنك لم تركب سفينة من قبل.

أجبت بحياء:

ـ هذا أعظم حيوان أمتطيه، حتى البغل لم أجرب ركوبه.

ضحك الرجل ثانية، بدا أنه يتعمد إخجالي وإشعاري بالضعة الناجمة عن الجهل، قال مشيراً إلى رفاقه:

ـ هذا الفتى مضحك، لا يدرك أن السفينة ليست حيواناً، بل هي مركب مصنوع من المعادن والخشب.

صحت بغضب:

ـ لا تهزأ بي يا أخي، هذه أول رحلة أقوم بها، لم أخرج من قريتي أبعد من هذا الموضع، يبدو أنك رجل يحترف السفر.

ـ هذا صحيح، أنا شيطان السفر، أجوب الأرض بسرعة كبيرة.

ثم نظر إلى حصاني وأضاف:

ـ حصانك جميل أيها الفتى، سينفق في المناطق الجبلية، كما أخشى أن يقع في يد أحد الأمراء أو اللصوص.

ـ لن يحدث ذلك، لأني سأحيطه بالتعاويذ السحرية.

ـ عليك في هذه الحالة أن تحذر على نفسك، فالأمير الأكبر كما يقال يكره السحرة ويحرقهم.

كان يضحك، أتاني شعور غير مريح بشأنهم، تأملتهم، كانوا سمر الأجساد عليهم سحن قاتمة غريبة، عيونهم تومض وميضاً مخيفاً، مع ذلك طابت لي رفقتهم، فقد عانيت كثيراً في السير وحيداً، بدت لديهم معارف كثيرة وخبرة واسعة في السفر وشئونه، لاسيما من وصف نفسه بشيطان السفر، لكن غروره وتباهيه هو ما لم يرق لي فيه. ضجرت من البطء وانصرافهم إلى بعضهم يتحدثون بلغة

غريبة، عيونهم تومض باستمرار، نظراتهم لاذعة وأصواتهم فجة مبحوحة، لا أدري لجهلي أي منطقة في بلادنا يتكلمون على هذا النحو، كان في أعماقي حقدٌ دفينٌ على الرجال الذين يعرفون أكثر مني عن البلدان والبحار وغيرها، وهذا ما نسميه الغيرة، لكني حولتها إلى غضب بفعل انصرافهم إلى بعضهم، قلت لنفسي: لقد سخر مني هذا الأسمر اللعين، لا يدرك أن بوسعي أن أحوله إلى أقذر حشرة، ذبابة أو صرصور.

كانت سخريتهم بالنسبة لي ذريعة كافية لأقاطعهم تمهيداً لإفراغ ما في نفسي من حقد، فقلت:

- هل لديكم سحرة في مناطقكم؟

أجاب أحدهم باقتضاب:

- في تهامة دراويش فقط.

عادوا يتحدثون، فسألت:

- هل يزاولون السحر؟

أجابني شيطان السفر بضيق:

- إنهم رجال صالحون يقيمون الموالد وينشدون مدائح النبي، ويضربون بالطارات، ولديهم كرامات من الله.

قلت باستفزاز متعمد:

- بل إنهم سحرة وأنتم في تهامة تطلقون على الأسحار كرامات.

غضبوا وتغيرت ملامحهم، بحيث زاد نذير الخطر يقيناً في نفسي، خيل لي أني أرى شرراً يتطاير من عيونهم ودخاناً من أنوفهم، قال أحدهم بصوت له صدى عجيب:

ـ ما خطبك؟ أنت تعوقنا عن الحديث عن عالمنا.

ـ وأنتم كذلك سخرتم من جهلي بالبحر.

قلت ذلك كطفل مدلل، رد شيطان السفر ناظراً إلى رفاقه:

ـ هل تعلم، هذه أول رحلة لي هنا، أنا أجهل هذه البلاد كما تجهل أنت البحر، الجهل ليس عيبا، هل تفهم؟

ـ فهمت، سامحني، لكني لازلت أجهل كيف وصلت ما تسميها المدافع إلى هنا.

رد بانفعال:

ـ أتت عبر البحر.

قبل أن أستفسر عن المزيد، صاح أحدهم بذعر:

ـ إنه يحمل تميمة في عنقه؟

نظر إلي شيطان السفر بعينين مخيفتين قائلا بصوت مرتعش:

ـ أنت في خطر ما لم تتخلص من هذه التميمة، لم تعد طفلاً يا بني، إنهم يقبضون على أصحاب التمائم والدراويش، لعلك آخر شخص يرتدي تميمة في هذا البلد.

أخفيت تميمتي داخل جلد الخروف، شعرت بالنفور من هؤلاء الأشخاص رغم محاولة شيطان السفر إظهار الدماثة والحكمة، صار الوحيد إلى جواري بينما نفر مني رفاقه بعد أن رأوا التميمة، قلت متذرعاً للانصراف:

ـ أنا في عجلة من أمري، أريد دخول المدينة والعودة بأسرع وقت ممكن.

ـ سواء أسرعت أو أبطأت، لن تدخل المدينة إلا في الصباح.

قلت مندهشاً:

ـ كيف عرفت ذلك؟ ألم تخبرني أنك لم تضع قدميك على هذه الأرض؟

ـ هذا شيء معروف، صنعاء مثل زبيد وتعز، المدن الكبيرة تقفل أبوابها عند غروب الشمس.

نظرت بيأس إلى السماء، كان الشفق قد بدأ يتشكل في الأفق البعيد، في قرية صغيرة سقينا دوابنا من ماء بئر قديم، شرع التجار يخرجون فوانيسهم، نظروا إلي بعجب، فقلت قاتلاً فضولهم:

ـ ليس لدي سراج.

نبش الرجل أغراضه وأخرج فانوساً صغيراً، وقدمه إلي وهو يقول:

ـ لن تطلع القمر إلا في وقت متأخر هذه الليلة.

قلت متباهياً بمهارتي:

ـ أنا أرى في الظلام.

قال أحد الرجال السمر بصوت مخيف:

ـ وأنا أرى في العتمة أيضاً.

صاح شيطان السفر:

ـ احذرا أن يسمعكما سكان الجبال.

حذرنا من ترديد ذلك، لأن الناس هنا يظنون السلطان هو ظل الله في الأرض، لن يترددوا في الإبلاغ عن شخص يسير في الظلام،

لاسيما إن كان درويشا يركب فوق حصان أبيض، أخذت نصيحته على محمل الجد، سألني إن كان لدي رداء أخر غير جلد الخروف، أو ما أسميه للدلال الجُبة، أجبت بأسف:

ـ لا أملك رداء.

ـ سأعيرك واحداً.

عدنا إلى الطريق وأنا أحمل الفانوس المضيء، لأن ذلك يبعد عن المسافرين الشبهات، حين غصنا في الظلام، قذف الرجل إليّ رداء من مخلاته، لذت إلى جوار صخرة، بالكاد استطعت أن أحشر جسدي داخله بسبب غرابته، ملبوس تهامي يناسب المناطق الحارة الرطبة، كما قذف إليّ معطفا، مشينا كفريق واحد، بينما خفف شكلي من حنق الرجال السمر، فقد صرت أشبههم، لاسيما حين أكون صامتاً، أو عندما أسبقهم في السير فلا ينظرون إلى بشرتي البيضاء، طلع القمر، سرنا صامتين على ضوئها المنير مدة طويلة حتى انتهينا إلى هضبة فيها بقايا أنقاض مساكن مندثرة وشواهد قبور محطمة، وأشجار صبار عملاقة منتصبة مثل أشباح قاتمة لها ظلال مخيفة على الأرض، أفزعني المكان، نظرت إلى الرجال بارتياب، فكرت في أن المسافرين لا يمكن أن يختاروا طريقاً موحشاً مدمراً ليعبروا عليه، هتف شيطان السفر فجأة:

ـ أظننا تهنا.

راح ينظر متفحصاً الطريق بلا اهتمام، فقلت بقلق:

ـ إنها أرض مخيفة.

ـ نعم، سنبيت هنا.

اتسعت عيناي دهشة وأردت أن أعترض، فأضاف:

ـ لنبحث عن موضع هادئ ننعم فيه بالراحة، فقد تعلمت من أسفاري الماضية أن أتوقف في المكان الذي أشعر عنده بالضياع حتى لا أتوه أكثر.

استقر رأينا على المبيت قرب حيد صخري أملس تشكلت عليه تجاويف صغيرة بحيث تعطينا بعض الوهم أننا داخل كهف طويل، كانت تحف بنا أشجار الصبار بكثافة، اخترت لحصاني شجرة حولها عشب، تركته عندها، وجلسنا نأكل فطير الدُخْن المطعم بحبوب الجُلجُل، مضى الرجال يتثاءبون على نحو غريب، ثم دخلوا التجاويف، استلقوا فيها كالموتى، سرعان ما صعد شخيرهم الفج بلحن مزعج لم أسمع مثله في قاع الحقل، فقلت لنفسي: لكل بلدة شخيرها المختلف الذي يتغير كاللهجات المحلية. بقيت وشيطان السفر يقظين، هكذا كنت أعرفه، لا أعرف اسمه الحقيقي، لأني ببساطة لا أجد في الأسماء أي أهمية، يسرني أن يُطلق عليّ صفة الدرويش رغم ما فيها من خطر، تأملت أعضاء هذا الرجل على ضوء القمر، وجدتها تومض بشكل غريب، فكرت في أن هذا بسبب أسفاره الطويلة، بحيث يصبح الجسد مصقولاً مثل بعض الأواني المعدنية التي تستخدم كثيراً، بدأ يتفحص الهضبة بعينين ماكرتين، ثم تثاءب كرفاقه وأوحى لي أن المكان آمن والقمر مشع، وليس هناك ما يدعو للقلق، وما يقال عن وجود حيوانات أو أخطار في السفر هو في الغالب من صنع خيال المسافرين الذين يودون إحاطة أسفارهم بالإثارة لجذب انتباه الآخرين.

رمى إليّ لحافا صغيرا، ودخل أحد التجاويف، استلقى وغرق في النوم، اتجهت بدوري إلى أقرب تجويف فارغ، ألقيت اللحاف على أرضيته، واستلقيت، لكني لم أنم، شرد تفكيري إلى معلمي، وإلى أشياء كثيرة لم أعد أتذكرها، فطنت أن المسافرين في الغالب

يتناوبون على الحراسة، لاسيما في مثل هذه الأماكن الغريبة، لكن شيطان السفر وهو رجل خبير أكد على خلو المكان من الأخطار، بدأ النعاس يداهمني ببطء وهدوء، ظهرت أشجار الصبار في خضم نعاسي كأشباح موتى أتوا من المقبرة القريبة، تحرك فجأة في نفسي ذلك الشعور الخفي، رغم عدم وجود التميمة في عنقي، دق في نفسي نذير الخطر، نهضت بكسل، وتقدمت بضع خطوات، رميت نظري الثقيل إلى أجزاء متفرقة في المكان، لم أر حصاني قرب شجرة الصبار، تذكرت أني لويت طرف مقوده الطويل على فرع الشجرة، كدت أن أتجاهل الأمر، بسبب النعاس الثقيل الذي يوشك أن يطبق عينيّ، هممت أن أعود إلى التجويف، لكني سمعته يحمحم بقوة، وهو لا يفعل ذلك إلا في الأوقات العصيبة.

طار النعاس بعيداً، ركضت نحو الصوت، رأيته بوضوح يرفس في الهواء، لم أشاهد أي شيء قربه، دنوت قليلاً، عندئذٍ رأيت عيوناً كثيرة تلمع حول المقبرة وعند تلك الأطلال، دققت النظر، بدت كأجسام بيضاء تتقدم، هرولت صوب حصاني، تجلت أمامي حيوانات غريبة تملأ أرجاء الهضبة، أفواهها مفتوحة وعيونها تومض كعيون هؤلاء الرجال، قذفت الحصى والحجارة نحوها لكي أخيفها، لكنها لم ترتدع، وحاصرتني من كل جانب، تلوت عليها تعويذة الجمود لكنها ظلت تتحرك، صحت بهلع لعل النائمين يساعدوني للتصدي لهذه الكائنات، أو على الأقل يدركون بالخطر الفادح، فكرت إن "شيطان السفر" قد يعرف أسماءها أو شاهد مثلها من قبل، فهو الرجل الذي وصف نفسه أنه يجول الأرض في لحظات، توقف في ذهني لفظ "شيطان"، فقرأت بسرعة تعويذة صرف الشياطين فانقشعت تلك الكائنات وتوارت بسرعة، عدت غاضباً لأوقظ الرجال النائمين، وأصب عليهم غضبي، فوجئت أن أرى التجاويف خالية منهم، جلت بعيني في المكان، ولا أثر لأي

إنسان، عرفت أن الملك زعفوط قد خالف القسم الأعظم وبعث إلي شياطينه على شكل مسافرين ووحوش، فارتديت ملابسي القديمة وتميمتي ورميت ملابس الشياطين بعيداً، نزلت من الهضبة، ورأيت الطريق هادئاً سالكاً، وآثار أقدام المسافرين ظاهرة عليها.

***

في طريقي الآمن وجدت خيمة كبيرة منصوبة، قربها مجموعة من المسافرين، نصفهم كبار في السن، والنصف الآخر شباباً ورجالاً راشدين، كانوا يشدون أحمالهم وأمتعتهم على ظهور جِمال وبغال، حين رأوني اعترضوا طريقي بشكل مفاجئ، وعرضوا علي الصحبة في السفر، ظلوا ينظرون إلى الحصان بافتتان كبير، قالوا إنهم يرغبون أن أرافقهم لأن وجود حصان أبيض في موكب السفر يجلب الحظ الحسن للمسافرين، وهم سيتكفلون بمئونتي وحصاني حتى ندخل صنعاء، لكن الارتياب سكن في نفسي، لذا رفضت عرضهم ببرود وصلابة، فاستغربوا، ربما ظنوا أنني مجنون، لم يسبق أن رفض أي مسافر مثل هذا العرض، لا يوجد شخص في الدنيا يحب أن يسير وحيداً في مثل هذه الأرض الجبلية، ضربوا لي بعض الأمثال والحِكَم: "الرفيق قبل الطريق"، "الرفيق في السفر كالبؤبؤ للنظر" وغير ذلك، قلت لهم محتداً وأنا لا أعي ما أقول لفرط الإرهاق والخوف:

ـ لن تخدعوني هذه المرَّة، أنتم من أعوان زعفوط.

ضحكوا وأجاب أحد الشيوخ قائلا بعجب:

ـ من هو زعفوط هذا يا بني؟

ـ هو ملك شياطين آنس وبلاد الروس وصنعاء والجوف وأرحب ونهم، وهو أمين سر ملك الملوك الشيطان الأكبر.

ضحك الرجال الأصغر في المجموعة، لكن شيخاً بدا الأكبر سنا في المجموعة قال يخاطبني بارتياب:

ـ هل شربت نبيذاً يا بني؟

ـ كلا، لا أشرب النبيذ.

فأمسك شعيرات لحيته البيضاء قائلا بعتب:

ـ لا يجوز يا بني أن تنسبنا للشياطين، نحن حجيج من المؤمنين في طريقنا إلى مكة للحج والطواف، وهناك سنرمي الجمرات على مجسم الشيطان الأكبر.

احترت ولذت بالصمت، لم يطمئن قلبي حتى قرأت تعويذة صرف الشياطين، مشينا، حصاني الأبيض في المقدمة كما أرادوا، بينما بغالهم وجمالهم تتبعنا في خط طويل، ماشية بمهابة رافعة أعناقها الطويلة، ثلاثون رجلاً في هذا الموكب المهيب، كبار السن يركبون البغال القوية، والأصغر في السن يسيرون على أقدامهم، كنا نسير ببطء، والجمال تترنح في مشيتها تحت حمولاتها الثقيلة، أقبلت مواكب أخرى من قرى نائية تقع خلف تلك الهضاب القريبة، ولوحوا بأيديهم، التقينا عند هضبة شاسعة، بقيت في حيرة من أمري كعنصر غريب بين مجموعات كبيرة من الحجيج، انضمت إلى الموكب جمالاً كثيرة وبغالاً لا تحصى، فقلت لنفسي: يا سعد ستتوه بين جموع الحجيج، ليس لك هنا أي هدف، اذهب إلى معلمك الآن، تحركت مستغلاً انشغالهم وتعارفهم، لكن الانسلال خلسة فوق حصان أبيض أمر مستحيل، فقد رأوني أسير بالحصان الذي يظنون أنه زينة موكبهم وجالب حظهم الحسن، لذا صاحوا علي

ورموا شيلانهم على الأرض متوسلين، توقفت، بدت حججي واهية لاسيما وقد ظهر آخر موكب ينتظرونه هناك، أفصحت أن بوسع بغل أبيض جميل أن يحل محل حصاني في قيادة موكب الحيوانات، لكنهم غضبوا من مقترحي، فالبغل مهما كان جميلاً يظل بغلاً، لن يقبلوا أن يقود موكبهم المبارك بغل، لقد كانوا يودون دخول صنعاء بأبهة وجلال، وهناك سيقود موكب الحجيج إلى مكة الأمير القاسم شقيق أمير البلاد.

كان موقفي ضعيفاً، وحجتي الكبرى في إنقاذ معلمي ظلت حبيسة في صدري، لم أبح بها، بينما عيون كبار السن الرحيمة المستجدية سدت عليّ منافذ الهرب، قبلت البقاء على مضض، وبينما نحن هناك ننتظر، سمعنا النداء يأتي من رأس إحدى الهضاب القريبة:

" يا مواكب الحجيج، مولانا المبجل الأمير الناصر ينتظركم عند سور المدينة لتبصقوا على الشيطان العجوز".

فهمت ما يدور، كان الصبح قد طلع، والضياء يكسو المكان بحلة باهتة هادئة، تحرك موكبنا الكبير، وأنا على مقدمته بحصاني الأبيض الزاهي وشكلي الغريب، بعد قليل أشرقت الشمس على استحياء، ثم ظللنا الغمام، وفرح الحجيج، تحدثوا عن ذلك بسرور، قالوا إن الله يؤيدهم من السماء ويبارك قدومهم، عندما تجاوزنا تلك الهضاب ظهرت صنعاء على قاع منبسط محاط بأشجار شوكية وأجمات صغيرة كثيفة الشجيرات، ظهر سورها وحشود المستقبلين، كلما اقتربنا دق قلبي بشدة، وازداد نذير الخطر في أعماقي، قلت لنفسي بعجب: أيريدنا الأمير أن نبصق في جسد معلمي الذي يسميه الشيطان العجوز؟ سألت نفسي عما يجعل الأمير الأكبر يقسو عليه إلى ذلك الحد الذي يفوق الوصف، اقتربنا أكثر بحيث ظهرت بجلاء ذوات الأعناق الطويلة منتشرة حول

السور فوق كثبان عالية من الرمل، رأيت الجنود ببنادقهم العتيقة منتشرين ومتأهبين إلى جانبها، آخرون كانوا قرب البوابة موزعين بشكل فوضوي حول الحشود التي ينبغي أن يكون الأمير في مقدمتها، أدركت أنني مقبوض عليّ في حال ظهرت عليهم بجبتي المصنوعة من جلد الخروف.

بدت المدينة بقصورها ودورها العالية مهيبة وعتيقة، مثل جدة صارمة الملامح، عرفت أنها لن تقبل بشخص يرتدي ملابس درويش، لذا قرأت تعويذة التنكر بزي الوجهاء المحليين، نظر إلي الأشخاص القريبون بدهشة، دعكوا عيونهم مراراً، لكن أصوات مدافع استقبال الحجيج دوت وأخرست الألسن وأصمّت الآذان، أجفلت حيوانات الموكب وارتدت على أعقابها، لاسيما وقد ظل إطلاق النار مستمراً جامحاً، أصابني الذعر، وتذكرت ما جرى في هضبتي، بعد أن هدأ الجو انبرى منظمو الموكب يعيدون النظام إلى سابق عهده، حرصوا على الإمساك بمقود حصاني، وأعادوه إلى المقدمة، بحيث خاب أملي في الانسلال أثناء الارتباك الذي حدث، وجدت نفسي أمام الأمير الناصر بجسده الممتلئ ولحيته الكثة وسحنته القاسية المتكبرة، كان حوله حشد من الأمراء والأعوان، ووجوه متورمة واجمة لبعض الوجهاء والأثرياء في المدينة، إضافة إلى جنود الحماية، اقتضت تقاليد سفر الحجيج، أن تتزين المدينة وأن يستقبل الأمير الموكب في وقت مبكر من الصباح، ثم يصافح قائد الموكب الذي يكون ممثلاً لجميع الحجيج، وعلى الرجل الذي أخذت مكانه أن يهبط من حصانه على الفور، ثم يجثو على ركبتيه ويُقبِّل قدمي الأمير الأكبر، ثم يستمع إلى وصاياه وتعليماته حول الأمور المتعلقة بالحجيج، ومن واجباته الهامة أن يوصي الحجيج أن يرفعوا الدعاء للأمير عند أركان الكعبة المقدسة، بأن يسدد الله خطاه ويعينه على أعدائه، كان الحجيج ربما يظنون أن

هذا الأمر لا يعوزه التنبيه، لأن أي شخص سيقابل الأمير يدرك أن عليه أن ينحني ويقبل قدميه، لا أحد يجهل ذلك.

لكني كنت أجهل كل التقاليد مثل جهلي بغيرها من الأمور الأخرى، وهكذا، في تلك اللحظة الحرجة وقفت متصلباً كالأبله، في حين ظل الأمير منتظراً، يهز رأسه مستحسناً شكل الموكب والحيوان الأبيض الرشيق الذي يتقدمه، ثم نظر إلي بعجب كما نظر كثيرون من الحجيج ورجال المدينة، ما لبث أن أحنى ركبته اليمنى إلى الأمام، وكأنه يشجعني على القيام بذلك الأمر، مع ذلك لم أترجل، كنت أظن أنه سيرفع راحته بالتحية ويقول رافقتكم السلامة، اذهبوا، لا تتأخروا عن موسم الحج، لكزني الحجيج الواقفين خلفي هامسين بخجل:

ـ الأمير الأكبر ينتظرك.

أجبت هامساً بلا وعي:

ـ ينتظرني! لماذا؟

ـ ترجل وصافح الأمير، هيا، قبِّل قدمه كما يفعل قائد الموكب كل عام.

غشاني العرق، لعنت الحجيج في سري، عرفت أنني لا أستطيع أن أقوم بهذا التقليد، حتى لو كانت حياتي في كف الأمير، لأني ببساطة لم أصافح أحداً بأناملي، لا أعرف أي شكل من أشكال السلام والتحيات رغم أنني أرى الناس يفعلون ذلك، ترجلت عن حصاني بتثاقل واغتمام، عرفت بواسطة شعوري المرهف أن الجميع يراقبونني وينظرون إلي بعيون طامعة جشعة، أصلحت سرج الحصان المائل مواجهاً الحجيج مولياً الأمير ظهري، لمحت وجوههم الملطخة بالخجل والخزي، كانت رموش أهدابهم تتحرك

بقلق بالغ، وشفاههم مفتوحة جافة مبيضة بفعل الجزع والذهول، التفت للخلف بشكل عفوي متعمد، كان صبر الأمير قد نفد، بدت قدمه اليمنى المائلة المتأهبة ترتعش بفعل الإجهاد والانفعال، ظهر الخزي يرفرف على كل الوجوه، لا أدري كم مكثت أصلح سرج حصاني حائراً، مقاوماً الخوف والخجل الذي بدأا يسريان في نفسي، كنت أظن أن الأمير سيقول شيئاً أو ينسحب، لكن هذا لم يحدث، صار كل منا متشبث بموقعه لا يتزحزح، ثم فجأة صدم سمعي صوت صارم جاء من الخلف:

ـ أيها الحاج الحثالة، لا تدر ظهرك للأمير.

رغم الرعب الذي حل بي إلا أنني فضلت البقاء في وضعي المتجاهل الحائر، على أن أقابل وجه الأمير المتجهم القاسي، وصدر صوت رجل من الحجيج:

ـ لعله أطرش.

رفع الرجال أذرعهم ملوحين بأناملهم، لاسيما الحجيج القريبون مني، كانت السبابات تشير إليّ أن أنظر خلفي، لكني لم أحفل بهم وبإشاراتهم، ونبع صوت من الخلف:

ـ أهو أعمى أيضاً؟

أجاب أحد الحجيج:

ـ لا، لا يبدو أعمى.

سمعت أحد الحجيج يهمس لرفيقه:

ـ ألم يكن الفتى ذي الجبة الصوفية راكباً على الحصان قبل قليل؟!

رد صاحبه متعجباً:

ـ أواه، لازلت أسأل نفسي كيف ظهر هذا الرجل الوجيه بشكل مباغت! كنت أظن أنني الوحيد الذي لاحظ ذلك.

لم يطل الأمر، حتى أقبل جنديان وسحباني من ظهري وأرغماني أن أنحني حتى وضعا وجهي على ركبة الأمير، لا أخفي مقدار الضعة التي شعرت بها آنذاك، حتى سولت لي نفسي أن أعض تلك الركبة المرتعشة الغاضبة، لكن الجنديين رفعا رأسي ليقابل وجه الأمير الأكبر، ارتعشت حدقتا عينينا على حد سواء في تحدٍ وعناد، اقترب الأمير الأكبر مني وهو يكز على أسنانه مكشراً ككلب يوشك على الهجوم، خيل إلي إنه سيعضني في عنقي، غير أنه لطشني في وجهي وهو يقول بغضب أهوج:

ـ كيف توليني ظهرك أيها العاصي وتتجاهل وجود الأمير الناصر لدين الله؟

لا أدري بم أجبت، لعلي قلت:

ـ سامحني يا أخي، أنا أجهل هذا الأمر.

أثاره رفع الكلفة بيننا، فصاح بانفعال كبير:

ـ أنا أميرك ولست أخوك، ولولا أنك قد عقدت نيتك على زيارة بيت الله الشريف لأرقت دمك قرب السور.

قلت بلا وعي:

ـ بوركت أيها الأمير.

حين سمع صوتي الهادئ الخجول انبسطت ملامحه وانطفأ غضبه كما ينطفئ السراج الذي نضب زيته، أظنه أحس أنه أخذ حقه مني، أو سمع في صوتي ما يوحي باستسلامي لإرادته، فغيَّر لهجته الصارمة قائلاً بحزم:

ـ أنا أصفح عنك، لكن بقي عليك أن تقذف الشيطان العجوز بحصاة وتبصق في وجهه قبل أن تمضي في طريقك إلى الحج.

تذكرت القنينة، فقلت:

ـ بوركت أيها الأمير، لقد جمعت بصاقي في قنينة صغيرة سأفرغها في وجه هذا الشيطان، إنها في مخلاتي.

أشرت إلى الجندي الواقف جواري أن يجلبها بحركة حازمة من أصبعي، فجلب المخلاة، أخرجت القنينة، وطلبت منه أن يعيد المخلاة إلى ظهر الحصان، دخلنا عبر البوابة إلى باحة كبيرة، ظهرت المحرقة عرض السور، عرفتها ببساطة بفعل الجزء الأسود المحروق في الجدار، رأيت كذلك رؤوساً وأطرافاً آدمية وبقايا أجساد متدلية كأعذاق النخل موزعة في أجزاء متفرقة منه، معلقة بواسطة خطاطيف أو بشيء ما، كانت مائلة تفوح منها الروائح الكريهة، تقززت وصرفت نظري عنها بتأفف، لم استطع كبح اشمئزازي من هذا المشهد الرهيب، نظر الأمير إلي بتجهم قائلا بحدة:

ـ أنا أنفذ أمر الله والنبي أيها الحاج الجاهل.

قلت لنفسي: لم اسمع أن الله قد أمر شخص ما أن يفعل ذلك، لا ادري أهو ذلك النبي الذي تذرع أبي بأقواله وسلب مني الأرنب والطيرين وسطا على مالي، كنت قد عشت في وسط عائلة يهودية وفي قرية لم تهدأ أوار مشاكلها، لذا لا أعرف كل هذه الأشياء التي سمعتها منه.

لاحظت مجموعة من الأطفال والأهالي يتفرجون على الأعضاء البشرية باهتمام، راح الصغار يضحكون من تعبيرات وجوه الموتى، ويحاكون ذلك مكشرين بوجوههم، ثم ينفجرون ضاحكين،

لمحت بعض الأمهات يشرن إلى الصغار المتربعين على صدورهن أن ينظروا إلى الجدار، فتحت ثغري مندهشاً متعجباً مما يدور، لعل الأمير لاحظ دهشتي فقال مشيراً بزهو إلى الصغار:

ـ انظر، أطفال المدينة أكثر شجاعة منك!

سرنا قليلاً يحف بنا الجنود والأمراء ووجهاء المدينة، فكرت في أنني محظوظ إذ لازلت حياً، تصورت رأسي معلقاً على الجدار، بينما يتصفح أطفال المدينة جثتي، ويستمتعون بمظهر موتي، ازداد وجيف قلبي، صرت أقاوم تقلصات تنبع من أحشائي، أوشكت على التقيؤ، أشحت بصري بعيداً، تشاغلت بالنظر في وجوه الرجال والجنود المحيطين بي، كنا نمشي ببطء ليتاح لنا التمتع بمشاهدة الموتى، حتى وصلنا إلى زاوية عليها مقاعد خشبية كثيرة، جلسنا هناك وأنا محل حفاوة كبيرة والجميع ينظر إليّ بود، فأنا أحمل صفة قائد الحجيج، واحتل موضعي قرب الأمير الأكبر، سرعان ما أرغمني الأمير على النظر إلى السور ثانية، مشيراً بإصبعه :

ـ انظر، ها هو الشيطان العجوز.

نظرت إلى حيث أشار، رأيت ما يشبه إنسانا ناحلا عاريا محروق الجلد مغطى بطبقة حمراء من الجروح، مصلوباً على عمودين حديديين، ليس هناك ما يشي بأنه حي، وقلت لنفسي: أهذا هو هيكل الشيطان الذي يريد الأمير أن نبصق عليه؟ هل هو رجل ميت جعل منه تمثالاً يحمل اسم الشيطان؟ بدا وجهه مكفهرا معذبا، بحيث انطمست ملامحه، دققت النظر فيه طويلاً، ثم قلت لنفسي: أيكون هذا العجوز هو معلمي؟ لا أظن ذلك! لكني سأرى الآن، كان الأمير الناصر يتأملني بتمحيص ليستشف رأيي في الشيطان العجوز، فقلت:

ـ لا شك أنه اقترف ذنباً جسيماً أيها الأمير.

ـ هذا الساحر غذي جسد عدوي بالتعاويذ الخطيرة، وساعده على الفرار، لكن أين يفر؟

قلت بسذاجة متعمدة:

ـ بوركت أيها الأمير، إنه كهل، لا ريب أنه ميت.

ـ كلا، ليس ميتاً، لا شك أن لديه سبعة أرواح ليتحمل كل هذا العذاب، مع ذلك لم يرشدنا إلى مكان الفتى.

أشار إلى أحد الجلادين المشمري السواعد، فجلب وعاء به مسحوق أصفر، أرانا إياه للتأكيد، ثم أنزل العمودين بواسطة بكرة حديدية دائرية متصلة بسيور جلدية، ثم قذف المسحوق على جسد الكهل، ففز من غيبوبته وجعل يتقلب ألواناً، تقلصت عضلات وجهه وبطنه، نزلت الدموع من عينيه، فاقشعر بدني مما رأيت، نزلت دمعتين متوازيتين من عينيّ، وصرفت نظري بعيداً، أدركت مقدار الألم الهائل الذي يجعل الجسد يصبح قاتماً كالليل، سمعت الأمير يقول بزهو:

ـ هذا مسحوق الفلفل الحيمي، انظر ماذا يعمل!

مسحت الدمع، كان يجب أن ألتفت إلى وجه الأمير وهو يخاطبني، حين رآني بذلك الحال، صرخ في وجهي مستنكراً:

ـ أتبكي أيها الحاج من أجل هذا الشيطان، هيا، ابصق عليه، وانصرف حالاً، لقد بددت وقتي مع رجل ضعيف بكَّاء.

أخرجت القنينة، واقتربت من الكهل، نزل العمودان بحيث صار وجه الشيطان العجوز المعذب مقابل وجهي، قررت أن أقذف محتوى القنينة في وجهه وأحرره من عذابه، سواء كان هذا الكهل

معلمي أو شخصاً آخر، لكن كان لدي ومعلمي تعويذة كنا نتواصل من خلالها حين يكون أحدنا نائماً، ويريد الآخر شيئاً منه، فيناجيه دون أن يستيقظ من سباته، كان الأمير يظنني متردداً، ظل يصرخ علي من الخلف دون أن أشعر، لكني كنت أقرأ تعويذة المناجاة الصامتة، وإذا بالشيخ يفز ويفتح عينيه، فاندهشوا، كانت عيناه حمراوين كالدم، صرت أخاطبه بصوت يتردد في أعماقي وأتلقى إجاباته الخفية..

ـ هل أنت معلمي الشيخ رعدان؟

ـ أخيراً جئت يا سعد.

ـ سامحني، لقد تعذبت كثيراً من أجلي.

ـ ليس من أجلك فقط، لقد أخذت عقوبتي المستحقة.

ـ هل تريد أن أنقذك؟

ـ لا.

ـ هل تريد أن تموت؟

ـ أتمنى ذلك كل لحظة.

ـ هل تريد شيئاً آخر غير الموت؟

ـ شيء واحد وحسب، إذا ظفرت بهذا الأمير اللعين ضع أوقية من الفلفل في دبره ليذوق قليلاً من الألم.

ـ معلمي، لقد ارتكبت في طريقي إليك مخالفات جسيمة.

ـ لا عليك، الجميع يخالف، ويعاقب، ويتحتم أن تفعل ما لم أستطع فعله يا بني.

ـ وما هو يا معلمي؟

ـ لم أستطع أن أعاقب العقل البشري الذي ابتكر أبشع وسائل التعذيب والدمار بالآخرين.

ـ سأفعل ما بوسعي يا معلمي.

ـ هيا خلصني من العذاب، أسرع، فالأمير يصرخ من خلفك.

أنهيت مناجاتي وفتحت عينيّ، كان الأمير الناصر يصرخ بغضب:

ـ هيا ماذا تنتظر أيها الرعديد؟ ابصق في وجهه وإلا صلبتك إلى جواره.

عند هذه الوهلة تقدمت برهبة وحزن إلى أمام معلمي، دلقت محتوى القنينة في شفتيه المنفرجتين، رأيته يخرج لسانه كلسان الحرباء ويمتص السائل، لذت بالفرار والدموع تسيل على خديّ، وتسقط من ذقني إلى الأرض، سمعت بقايا صوت الأمير وهو يهلل قائلاً:

ـ أخيرا، فعلها الرعديد، ليأتي الحاج الآخر.

***

رأيت حصاني الأبيض، قفزت إلى ظهره وخرجت من بين حيوانات الحجيج، ابتعدت عن سور المدينة، رأيت بعيداً عمالاً يقومون بتوسيع طريق صغير عليها آثار عجلات عربات الجنود، كانوا يضربون الأرض بحماس، حين رأوني والحصان صاح أحدهم بانفعال:

ـ لا خيول ولا بغال ولا حمير بعد اليوم، العربات قادمة.

رفعوا أذرعهم بالتحية باحترام، لعلهم خافوا أن أكون من أقارب الأمير الأكبر، ربما عتبوا على صاحبهم أن يخاطب الوجهاء بهذه الطريقة الفظة، لكني كنت قد تخلصت من جسدي المتنكر فرحاً بنجاتي وتنفست الصعداء، ربما لم تمكنهم سرعتي من ملاحظة جبتي الصوفية المصنوعة من جلد الخروف، كانت هذه الطريق منسابة هابطة، بحيث ذرعتها بسرعة فائقة، على طولها تناثر عمال من جميع الأعمار، ظل القرويون يرفعون أذرعهم بالتحية، تمنيت ألا يهتموا بي، لأن ذلك يشغلهم عن العمل، استمر الحصان في الجري دون أن يتعب أو يحمحم، أدركت انه مستمتع ونشوان مثلي بهذا الطريق الممهد، تعجبت كيف غفلت عن رؤية هذا السبيل الممهد عند صعودي، لقد ضللتني عنه الشياطين لا شك، أظن الحجيج قادونا بعيدا عنه وسط الهضاب، فكرت في معلمي، وأغمضت عينيّ وقرأت تعويذة المناجاة، سمعته يضحك، ويخاطبني قائلاً بجذل:

ـ أحسنت صنعاً يا بني، الأغبياء مازالوا يبصقون على جسد ميت.

ـ معلمي، اغفر لي.

ـ شكراً يا بني.

ـ معلمي، لن أراك ثانية.

ـ لن تستطيع أن تناجيني مرة أخرى، سيكون نومي عميقاً جداً، لا ترهق نفسك، لن تستطيع أن توقظني، وداعاً يا سعد.

ـ معلمي..

- ...

فتحت عينيّ، كانت الحقول مفتوحة أمامي ملونة كقوس قزح، منها اليانع الأصفر، ومنها الأخضر ومنها الرمادي، محاصيل وقرى كثيرة في قاع جهران، هضاب وجبال بعيدة، فطنت أني غدوت قريباً من سوق رصابة، شعرت بالحسرة، لأني سأعيد الحصان إلى لوزة وحمامة، صرت متعلقاً بالحيوان، بحيث سولت لي نفسي أن أتجاهل المرور على الأختين اليهوديتين، لكني في النهاية أشحت هذه الفكرة الخبيثة من رأسي، وقلت لنفسي: سوف أعيده إلى ذلك الفناء حتى لو تفطرت قدماي من السير.

حمحم الحصان، عرفت أنه جائع وظامئ ومرهق، أنا أيضاً كنت جائعاً بضراوة، لم أبتلع سوى كعكة صغيرة قذفها إلي بعض الحجيج امتناناً على قبولي أن أقود موكبهم، لذا خففت من سرعتي، كنت في نهاية ذلك القاع الشاسع الخصيب، رأيت مجموعة من العمال عند منعطف صغير يلقون معاولهم، ويغسلون أيديهم بماء في طشوت صغيرة، حين دنوت منهم قذفوا شيلانهم، قبلت دعوتهم بلا تردد، كان الطعام مبسوطاً عند طرف أحد الحقول، جثمت على العشب، التهمت الخبز مغموساً بالمرق، وأكلت العصيدة المحلية الرخوة، اكتفيت بذلك، لأن هذا هو كل ما لديهم من طعام، وقد جلبه لهم السكان المحليون في القرى المجاورة.

كان حصاني قد تلمس طريقه بنفسه، وشرب قليلاً من الماء المترب الذي خلفه العمال داخل الطشوت، لم يكترث - لفرط عطشه - بشكله الأغبر القاتم الملوث بتراب الأرض، ظل يحمحم رغم ذلك، نظر إليّ أحد العمال وقال كأنما أحس بما يجول في نفسي:

- تبدو مغتماً، حصانك جائع، أعرف ذلك، لا تقف مكتوف اليدين يا رجل، الحقول تملأ هذا القاع، افعل مثلي هكذا...

مال إلى أحد الحقول، وشرع يقطف قصب الذرة الشامية الخضراء، رأيت فلاحاً يهرول ناحيته، فأوجست بالفجيعة، صرخ الفلاح في وجه العامل بغضب:

ـ ماذا تفعل أيها العامل؟ ليس لك الحق أن تقطف الذرة، عملك في الطريق، وليس في حقلي.

صرخ العامل بدوره قائلاً بمكر:

ـ ماذا تظن؟ هل أدع حصان مولانا الأمير يموت جوعاً؟

اندهش الفلاح وقال بصوت واهٍ:

ـ حصان مولانا الأمير؟

ـ نعم، إنه هناك، الحصان الأبيض.

أشار العامل بثقة عالية إلى الحصان، مضيفا بصوت حازم:

ـ خادم الحصان هناك، سيشكوك للأمير، سترى كيف تأتي الجنود لتقتلع زرعك وتدمر قريتك، ثم تقاد ذليلاً إلى السجن.

أرتجف جسد الفلاح، وصاح في العامل برجاء:

ـ أنا وكل ما أملك فداء حصان الأمير، اقطف المزيد من الذرة، وأنا أذهب لأصطلح مع الخادم.

أقبل نحوي متأثراً محملقاً عينيه، ظننت في البدء إنه جاء للشر، فتفاديته قليلاً، لكنه قفز إلى أمامي، وأمطر رأسي بالقبلات وهو يقول بانهيار:

ـ عفوك يا خادم مولاي، كيف لي أن أعرف حصان الأمير!

ثم مال إلى الحصان وقبله بين عينيه، وسأل بلهف:

ـ هل شرب؟

أجبت:

ـ بعض الماء الملوث مما خلفه العمال في الطشوت.

ـ لا يجوز ذلك.

وصاح على ابنته البعيدة:

ـ يا خيزران، اجلبي الماء في الطشت الكبير.

عاد العامل ورمى حزم الذرة أمام الحصان، لكن الحيوان الماكر ربما أحس بجو التكريم المحيط به، سرعان ما رفع خطمه عن الذرة الخضراء، وحمحم بغضب، فسارع الفلاح يقول بتملق:

ـ حصان مولاي لا يأكل الذرة، هذا طبيعي، لدي برسيم هناك، سأجلبه على الفور.

هرول الفلاح مبتعداً، بعد لحظات جاء الماء في الطشت الكبير، فعب الحصان من الماء النظيف حتى ارتوى، كان العامل ينظر إلي ويغمز بعينه كأنه يود أن يقول: انظر، هكذا يجب أن تتصرف.

لكن هذا السلوك لم يلق ترحيباً في أعماقي، لأني ببساطة لم أعتد على مثل هذه الحيل، فكرت بأسف أن الفلاح لم يكن ليطعم حصاني لو لم يصنع العامل هذه الحيلة، عاد الرجل حاملاً حزمة كبيرة من البرسيم وضعها أمام الحصان بلطف، فأكل بزهو وظل يتأنى ويلتهم الأعواد بدلال، ضاق صدري وشعرت بالقلق، أمسك الفلاح مقود الحصان قائلا بجذل:

ـ هناك مفاجأة في الطريق.

عند ذلك داهمني ذلك الشعور الخفي بشكل طفيف، وأنذرني أن أرحل، لكن الحصان مازال يأكل باستمتاع ونهم، ويوشك أن ينتهي، بدأت أتهيأ للصعود على صهوته، فجأة طلع علينا رجل مهيب يحمل عصا من خشب البان معقوفة الرأس، وخلفه حشد من الرجال، نظرت إلى الفلاح بقلق، فقال بفرح وهو ممتن من نفسه:

ـ جاء الأهالي.

التفت إلى ذلك العامل المتحاذق ليخلصني من هذه الورطة، لكني لم أره البتة كأنه تبخر في الهواء، كيف فر بتلك السرعة؟ سألت نفسي بعجب! خمنت أن الشياطين مازالوا ينصبون لي الفخاخ والمتاعب، غمرني العرق والغضب والخوف، كان كبير القرية والأهالي يرفعون أيديهم مرحبين باحترام، برز منهم رجل عريض المنكبين مفرطح الوجه، عرفت من لبسه ومشيته أنه الكبير، فقد كان أبي كبير قرية ذات يوم، نظر إلى الفلاح قائلاً بحدة:

ـ هل أطعمت حصان مولانا يا ناجي؟

هز الفلاح رأسه بتواضع موافقاً مشيراً إلى البرسيم وطشت الماء، التفت كبير القرية وخاطبني بأدب:

ـ هل أنت خادم مولانا الأمير الناصر؟

ظهرت الحيرة في وجهي، كما يحدث حين أتلقى سؤالاً لا أجد له سوى جواباً واحداً زائفاً، في مثل هذا الظرف يجبرك الناس على الكذب، لكن لحسن الحظ رفع الحصان رأسه وصهل رافعاً قائمتيه الأماميتين في الهواء، قفزت إلى متنه وقلت:

ـ سامحوني، أنا في عجلة من أمري.

لويت مقوده، ومضيت مسرعاً، سمعت كبير القرية يصيح على إثري:

ـ كان ينبغي أن تحل ضيفاً في منزلي.

رفعت راحتي في الهواء مستغنياً عن الجواب، لم أتوقف حتى دخلت سوق رصابة عند المغيب، استقبلتني الشقيقتان بالفرح، وأصرت لوزة ألا أذهب، ووجدت أن الظلام يؤيد رأيها.

سألتاني حين تسامرنا في الغرفة عن الحصان الأبيض، فأخبرتهما بما تسبب لي من مشاكل، ماعدا ذلك كان ممتعاً، وقد أحببته، ضحكتا من المواقف الطريفة، لم أخبرهما عن معلمي رغم رغبتي في سرد كل شيء، كنت أحتاج إلى السؤال المناسب لأنفض كل أسراري البغيضة وأستريح من ضغوطها وآلامها المبرحة في صدري، كنت أشعر بالضيق حين قالت لوزة مازحة:

ـ كنت ستواصل السفر إلى مكة لأداء مناسك الحج، لأنك نلت مركزاً مرموقاً وهو قائد الحجيج.

وافقتها حمامة قائلة بمرح:

ـ كنت على الأقل ستدعو الله هناك أن يزوجني بمن أحب.

قلت بصوت جاد:

ـ لا حاجة إلى الدعاء، سأفعل لك تعويذة تجعله يأتي إليك حبواً كالطفل، اخبريني فقط عن اسمه، أو أشيري إليه من بعيد.

مدت أصبعها إلي وقالت وهي تضحك بخجل:

ـ ها هو أمامي الآن.

ضحكتا بشدة، حاولت أن أجاريهما وأضحك، لكني لم استطع، بدا علي الاغتمام، قالت لوزة:

ـ لن أقبل هذا، سيظل هكذا مشتركاً بيننا، لي ثلثين منه لأنني الأكبر، ولك الثلث فقط.

صرخت في وجهيهما بنزق:

ـ أنتما تنظران إلي كأني خروف ابتعتماه من هذا السوق.

قالت لوزة بدهشة:

ـ إننا نمزح وحسب.

ظهر عليها الوجوم، فتكدرت بدوري، ترددت قليلاً قبل أن أقول مبرراً سلوكي:

ـ لدي مشاكل كثيرة.

ـ هذا واضح، تبدو مكتئباً متعباً بفعل السفر، يجب أن تنام.

أخذتني لوزة كطفل صغير إلى الفراش، رغم عدم رغبتي في ذلك، لكن حنانها ورقتها تغلبا علي، ثم أطفأت حمامة السراج، خلعت الأختين ملابسهما، ونامتا إلى جواري، بحيث تكرر ما حدث في المرة السابقة، رغم ما حصدته من متعة نمت نوماً خفيفاً مضطرباً، ظلت أذناي مصغيتان لنداء الهضاب والقلاع القريبة، لم أسمع شيئاً مزعجاً، سوى نباح الكلاب، وحديثا متقطعا لزبائن يتحركون في فناء المنزل، صرت أسأل نفسي: هل أدرك الأمير الناصر أني قتلت معلمي وحرمته من متعة تعذيبه؟ في الصباح تأهبت للمغادرة، خرجت لأسير على قدمي، لكن لوزة أصرت أن احتفظ بالحصان، لأن صاحبه لم يحضر، وقد انتهت مهلة سداد الدين، وأصبح الحصان مملوكا لهما حسب الاتفاق.

٣

كان حصاني الأبيض هو أول حيوان يدخل الهضبة بعد فرار الحيوانات، بدا سعيداً يحمحم تحت شجرة التالق، سمحت له أن يتحرك بحرية، ويتعرف على مأواه الجديد، صعدت إلى أعلى فرع في الشجرة، وجعلت أمط عنقي مصوباً نظراتي هنا وهناك، باحثاً عن أختي حليمة، بقيت هكذا بعض الوقت، ثم هبطت إلى الأسفل، حيث كنا ننام تحت التجويف، لمحت الدثار الذي كانت تتدثر به مرمياً بإهمال، تقدمت نحوه، وحملته بين يدي بفجيعة، قلبته على وجهه الآخر الملاصق للأرض، رأيت التراب مترسباً بين شعيراته السوداء الخشنة، حدقت في موضعه على الأرض، كانت حوافه قد تركت علامات تدل على عمر بقائه هناك، فقلت لنفسي: حليمة لم تتدثر بهذا اللحاف منذ أيام عديدة، أين تكون يا ترى؟

اعتليت الحصان، نظرت صوب هضبة أبي بارتياب، دهشت حين رأيت منازل شعبية قرب المنزل الكبير، هكذا ببساطة، أمست على هضبة أبي قرية صغيرة يبدو أنها بنيت أثناء غيابي بأبسط المواد والأدوات، فهمت أنه أصبح كبيرها، لا ريب أنه أغرى ما تبقى من أهالي الرباط بالسكن إلى جواره في الهضبة، لم يكترث أن ينفق بعض المال لينشئ قرية يكون فيها كبيراً، هذا كان طموحه الوحيد، أظنه سيرفض لو عرض عليه منصب عامل مدينة، لا أدري، أتوقع أن يفعل ذلك رغم ما في الأمر من مبالغة، لا يهم، دخلت تلك القرية الوضيعة التي لا يوجد فيها شيء مرموق سوى منزل أبي العملاق، لم يجهلني أحد فيها، سوى بعض الأطفال الصغار الذين ولدوا في سجون صنعاء، خاطبت أولئك الأولاد الذين كانوا يلعبون بعض الألعاب التي اكتسبوها في المدينة، نظروا إلي باندهاش، فتى

وحصان أبيض يدخل القرية ويسأل عن الأهالي! تكلموا برهبة وتحفظ كما لو كنت عابر سبيل، بدت القرية شبه مقفرة، النساء يبحثن عن الماء في البئر القديم للقرية المنكوبة، بينما الرجال في منزل الكبير، هكذا قالوا ببساطة.

كان على منزل أبي بعض أشكال الزينة التي تعلق في الأعراس، قطع قماش ملونة مهلهلة، وعلى مكب قريب بقايا عظام ورماد مما يخلفه الناس بعد ولائم الأعراس، تعجبت من هذا، رأيت أخي إسحاق يلعب في الفناء، ومريمة إلى جواره، تبسمت لي من قبيل الترحيب، ثم سألتني بلهفة عن معلمي، فقلت لها كما قالت ذات يوم، بأنه شبع موتاً، لم أشأ أن أخبرها بما حدث، حتى لا يتجدد الحزن أو يرتفع العويل رغم معرفتي أنها اعتادت على غيابه منذ وقت طويل، رغم ذلك نكست رأسها بحزن، لا ريب أنها عرفت من الأهالي أنه مازال يتعذب، وربما أدركت أني سافرت المدينة لأفعل ما فعلت، تركتها وطفلها ودخلت المجلس، اكتفى أبي بالقول مخاطباً الرجال كأنه كان ينتظر قدومي:

ـ ها هو سعد.

نظروا إلي بلا اهتمام، ثم عادوا يتناقشون حول وضع القرية الجديدة، ظلوا يبحثون عن طريقة ما لإشهارها، وتحسين علاقاتها بالقرى الأخرى المجاورة، بدا من الحديث الدائر إن أبي يصبو إلى استعادة أمجاد قرية الرباط، ويبحث عن سبل للإعلان عن ميلاد قريته الجديدة، كان يبدو حزينا لأن أهالي القرى القريبة لا يعلمون شيئاً بعد عن وجود قرية على الهضبة، في البداية، اختلفوا حول اسم القرية، هل تحمل اسم قريتهم القديمة الرباط، أم اسم جديد مبتكر؟ أفصح أبي بمكر إن كثير من القرى نسبت في الغالب إلى صاحب أول منزل بني فيها، وأحيانا تسمى باسم صفة ما تميزها

عن غيرها من الأماكن، لكن هذه القرية ليس لها أي صفة مميزة، لا يمكن أن تسمى مثلاً قرية الهضبة لأن هناك هضاب أخرى إلى جوارها، ولم يعد هناك من خيار سوى أن تُنسب إلى اسم مؤسسها وبانيها، قرية سرحان، لم يعترض أحد على تسميتها، لأنهم أيضاً باتوا أجراء في حقوله، ومدينين له ببناء منازلهم، لم يجدوا شخصاً غيره يستقبلهم أو يتعامل معهم بعد أن صارت سمعتهم في الحضيض، وقد وصل الامتنان بالبعض أن يسمي طفله باسم سرحان، وهذا جعل قلب أبي يرفرف في صدره فرحاً وامتناناً، وربما عاش هذا الصغير محاطاً برعايته وإحسانه لمجرد أنه يحمل اسمه، عادوا مرة أخرى يثقون في أبي، ربما أقنعهم أن النحس الذي أصابهم في الرباط لن يتكرر، وأن الفتى المنحوس سعد، لم يعد يسكن في داره، لذا كان وجودي قربهم ثقيلاً في نفوسهم، كانوا يتحدثون بقلق ولا ينظرون ناحيتي، أرادوا أن ينجزوا كل شيء ويخرجون من منزل أبي بسرعة، بقي الاختلاف محصورا حول كيفية الإعلان عن القرية، تعددت الآراء، لكن رأي مثنى صالح زعزع قلوبهم، وزعق غالبية الرجال بصوت واحد:

ـ العُرس الجماعي مرفوض يا مثنى.

لقد سبق أن فعلوا عرسا جماعيا، وكانت نتائجه مؤلمة، لذا انتقلوا إلى خيارات أخرى، ظلوا في بحث دائم لا يستقرون على رأي موحد، انتابني الضجر، فخرجت من المجلس دون أن يشعروا، كدت أن أقول لهم إن أجمل الخيارات ألا يعلنوا عن القرية، لأنها أمست كائنا ملموسا على الهضبة، وأي جدوى في أن يعرف الجميع بوجودها! خشيت أن يغضبوا، ويحسبوني دخيلا يحشر أنفه في شئونهم، لأني ببساطة أسكن في الهضبة المجاورة، في الفناء مازالت مريمة تراقب أخي الصغير وهو يلعب، رأتني أحدق في

الزينة المعلقة على جدار المنزل بقلق، كان جسدي ينتفض خوفا حين توقعت سبب هذه الزينة، لم أجرؤ أن أسأل، ولم تتردد امرأة أبي عن إيلامي وتأكيد مخاوفي حين قالت باقتضاب:

ـ زواج حليمة.

ـ أين هي الآن؟

ـ في مزنة.

لم أحب مناقشة التفاصيل، ركبت حصاني تنتابني مشاعر شتى، لكن حزني كان واضحاً، أضافت قائلة:

ـ لديك حصان جميل، أين تذهب؟

أشرت إلى الهضبة، فاستمهلتني للحظات، ثم عادت بمخلاة ثقيلة، تضوعت رائحة الكعك، أخذتها دون أن أشكرها، وانطلقت إلى شجرة التالق التي افتقدتها كثيراً.

***

أعدت بعض النظام إلى الهضبة، أصلحت حوض الماء ونظفته من الأحجار والطين، عدت إلى الصيد وأكل بعض نبات الهضبة، صرت أجلس وحيداً على أحد فروع الشجرة، حصاني الأبيض رفيقي الوحيد، يظل يحمحم باستمرار في الأسفل، أظنه مثلي يخشى السكون، والبقاء حبيساً بمكان واحد، كنت أعلم ما يساوره من قلق، فأدعه يسرح ويمرح في الهضبة كما يحلو له آملا فراره، لم أعد أصعد إلى الشجرة لأرى أين يكون، مع ذلك أجده في المساء تحت الشجرة يتحرك بخفة ويحمحم معلناً عن حضوره، فأهبط إليه وأمسح وبر رقبته معلناً له عن حضوري، كنت بين فينة وأخرى

أتوقع أن يطب علينا الجنود، كيف يغفلون عن ذنبي؟ لا أظنهم لم يكتشفوا موت معلمي بعد، بوسعهم أن يتتبعوا آثاري، من السهل تعقب خطوات رجل يعتلي صهوة جواد أبيض، كنت في حال من الضيق والكدر، بحيث صار من السهل القبض علي، لكنهم الآن كفوا عن مطاردتي لأني صرت بائساً وحيداً، تمنيت أن ينتشلني أي شيء من الهضبة، لم أعد أطيقها، سألت نفسي أكثر من مرة بقلق، أين الجنود لكي أسلمهم نفسي؟ مر أسبوعان ولم يأتوا بعد، هذا غريب! ماذا دهاهم؟

دخل الأسبوع الثالث، صار حصاني يحمحم ويرفس بقدميه وينط تحت الشجرة جيئة وذهاباً لفرط الاكتئاب، أدركت أنه ضاق ذرعاً بالروتين الرتيب، لا ريب أنه يروم الخروج للنزهة، ليس معتاداً على البقاء ساكناً، ربما كان مالكه القديم رجلاً يحب الأسفار، عقدت هذا الصباح أن آخذه في نزهة، ما إن صعدت على ظهره حتى رفع قائمتيه في الهواء بفرح، وانطلق نحو أطراف الهضبة، لم يكن في ذهني أي مكان أو هدف، فكرت وحصاني يعدو بي، أين بوسعنا أن نذهب؟ خطرت حليمة في رأسي، فلويت مقوده وانحدرت به نحو تلك القرية البائسة الفقيرة، بدت جاثمة على ظهر قاع ميت، شكلها لا يسر، مع ذلك اقتربت من أرضها البركانية، وبيئتها القاسية، خشيت على حوافر حصاني من التفتت وسط صخورها المشققة، سرت ببطء، أفكر في أمي التي خرجت من هذا المكان الموحش، وأنا خرجت من بطنها الصغير، دنوت من مشارف القرية، رأيت فلاحاً كالح البشرة يجر حمارين، حين سألته عن حليمة، لم ينظر في وجهي، كانت عيناه معلقتين على حصاني الأبيض، صرخت في وجهه، فانتبه إلي، وكررت سؤالي، فأشار إلى القرية قائلاً بصوت أجش:

ـ في أكبر دار.

سرت وسط القرية الكئيبة، متوغلا بين أزقتها الضيقة، متصفحا المنازل القذرة باشمئزاز، فجأة التف حولي حشد من الأطفال العراة، بأنوف تسيل بالمخاط، أجساد قذرة غير بريئة، راحوا يطاردون الحصان، ويصرخون خلفه ما جعله متوترا، أخذت عصا صغيرة وحولتها إلى أفعى، ورميتها في وجوههم، وتقدمت بسلام، نبحت الكلاب، وخرج الرجال حاملين فواريعهم وعصيهم، وأطلت النساء من أبواب المنازل البائسة بملابس قذرة وأفواه مفتوحة، وقلت لنفسي: ما أغرب قرية أمي.

صارت الكلاب الشرسة تحوم حولي، ظننت أن الرجال الذين اقتربوا مني سوف يزجرونها عن عابر السبيل الذي يزور قريتهم لأول مرة، لكنهم صاروا يحثونها على الهجوم، عند هذه الوهلة قرأت تعويذة النار، ونفخت في وجوههم لهباً طويلاً، فولوا وكلابهم هاربين، تقدمت من أكبر منازل القرية، رأيته بحجم أصغر منزل في قرية الرباط قبل أن تدمر، دنوت أكثر حتى وقفت في ركن ذلك المنزل بتأثر، فكرت بخجل، كيف بوسعي أن أواجه شقيقتي التي تركتها وحيدة في الهضبة، ما جعلها تلجأ إلى أبي الذي سرعان ما زوجها إلى رجل في هذه القرية الكئيبة، كانت وديعة صغيرة السن، ومن يراها يظنها طفلة لبراءتها، كنت حزيناً أعاتب نفسي، فجأة سمعت صوت حليمة المميز وهي تصيح باكية:

ـ أرجوك، لا تضربني يا حنظل.

خرجت فجأة من الباب متخبطة كعصفورة صغيرة يائسة، يتبعها شاب ضخم يمسك سوطا طويلا أخذ يضربها به، وهو يصرخ قائلا:

ـ اللعنة عليك وعلى أهلك.

لم أحتمل رؤية هذا المشهد، فتقدمت بحصاني، وقفزت على زوجها مسدداً إلى وجهه لكمة أطاحت بزوجين من أسنانه، وجعلته يرتطم على الجدار بقوة، فتح ثغره متألما ومندهشا، وهو يرى شابا غريبا على حصان أبيض يهجم عليه، كان الدم يسيل على ذقنه العريض، مع ذلك اندفعت نحوه بحمية أكبر لأقضي عليه، فوجئت بشقيقتي تقف في طريقي متنمرة غاضبة، قائلة بنزق:

ـ لا تؤذي زوجي، لا شأن لك يا سعد.

أصابني الذهول وتجمدت بمكاني، صرت أتأمل وجهها الصغير المحتد، كانت هي شقيقتي حليمة، لم تكن فتاة أخرى كما توقعت! أضافت بحدة:

ـ ما جاء بك إلى هنا؟

سؤال غريب لم أتوقع سماعه، قلت بارتباك:

ـ لا أدري، أظنني أبحث عن سلوى.

ـ إنها في الخربة.

ـ والرعديدة؟

ـ في قتاب.

ـ وداعاً أختي.

ظننت أنني لن أراها ثانية، كان هذا شعوري حين غادرت ذلك الركن الكئيب، تجاوزت عدداً من المنازل، حتى وصلت إلى الطرف الآخر للقرية، ما إن قطعت مسافة قصيرة مبتعدا حتى لحق بي حنظل صارخا مشمرا ثوبه بشكل مبتذل، كانت حليمة على

حجرة كطفلة صغيرة، ساقاها عاريان ملفوفتان حول خصره، ويداها تلتويان حول رقبته، كانت تضحك للأسف، وهو يهصرها في حضنه بقوة، ويصيح متأوها بشبق:

ـ انظر، أنا أولج في أختك بوحشية، عضوي ضخم للغاية.

أجبت بلا اهتمام:

ـ هذا لا يهم.

أخذ يهزها بتشفٍ، كان يريد أن يغيظني بأي حال، حين رآني غير مكترث، رفع طرف إزارها كاشفا عن مؤخرتها الصغيرة، ثم أبرز عضوه اللعين ثم بصق إلى يده ودسه في...، أشحت بصري متأففا، اعتراني غضب غير مسبوق حتى شعرت بشيء يفور في رأسي، لم أهدأ حتى صنعت له تعويذة اختفاء العضو، ثم مضيت في طريقي غير مبالٍ بالوصايا القديمة التي تحذر من استخدامها، في ذلك الصباح الغريب زرت شقيقاتي الثلاث، وليتني لم أفعل، كانت بطونهن منتفخة، كأنهن أبرمن اتفاقاً على الحمل في وقت واحد، رغم ذلك يكدحن في المنازل والحقول، حين ظهرت تلونت وجوههن المتعبة الكالحة، وقالت لي الرعديدة:

ـ ما جاء بك يا سعد؟ هل حدث شيء ما؟

أجبت باقتضاب:

ـ جئت لأراك وحسب.

ـ أنا سعيدة حتى هذه اللحظة، أرجوك يا أخي، ارحل، لا تجلب لي التعاسة والنحس، زوجي يكره السحرة.

ـ وداعاً يا رعديدة.

مشيت مكابراً، لكن قلبي كان يبكي في صدري، لا ألومها على ذلك، قلت في سري أيضا: أنا منحوس، لا أنكر ذلك، ارتبط النحس بميلادي كنت أظن أنه انتهى بتدمير القرية، لكنه مازال يلاحقني أينما ذهبت، جميع الناس يرددون ذلك.

كانت الخربة قريبة من قتاب، اقتربت من الأخيرة وقلبي نافر، سألت عن سلوى امرأة طيبة تقف قرب الدار، فدعتني للدخول، لكني بقيت مترددا، محبذا أن تدعوني شقيقتي، لم تتغير سلوى، ماعدا بطنها البارزة للأمام، كانت ترتدي ملابس جميلة، بدا منزلها نظيفا مرتبا بشكل لائق، استقبلتني عند الباب، وعلى ملامحها اشمئزاز واضح، قالت لي هامسة بلؤم:

ـ شكلك مزري يا سعد، هلا ارتديت ملابس نظيفة لأعرفك على زوجي وعائلته؟

ثم أخذتني إلى ركن بعيد من أركان المنزل، فقلت بضيق:

ـ ماذا تفعلين يا سلوى؟ لقد جئت لأراك وحسب، لا شأن لي بزوجك وعائلته.

ـ لكنك تخجلني يا أخي، لا أستطيع استقبالك وأنت في هذا الحال.

ركبت حصاني وقلت:

ـ لقد رأيتك، وهذا يكفي، وداعاً.

تحركت، فجأة خرج شاب حسن الوجه من المنزل، ورجاني أن أتوقف، ثم اقترب مني، وقال معرفا عن نفسه:

ـ أنا ناجي زوج سلوى.

ـ وأنا سعد.

احمرت وجنتا سلوى وتوارت داخل المنزل، فقال بسرور:

ـ أهلا بك، يسرني أن أدعوك إلى منزلي وطعامي.

ـ مرة أخرى، أنا في عجلة من أمري، سامحني.

مضيت، سلكت طريقاً يؤدي إلى هضبتي، كنت كئيباً بعد أن لمست لطف ناجي وجفاء سلوى، كما شاءت المصادفات أن أرى شقيقتي الكبرى صفية في وادٍ قريب من قريتها، كانت تعمل في طرف أحد حقول الذرة، وزوجها يعمل في الطرف الآخر، بدت ضخمة متكورة، عرفت أن في أحشائها كائن بشري ينحدر من سلالة سيلان، فاندفعت أصيح بفرح مفاجئ:

ـ هيه، صفية، أنا سعد.

سرت صوبها متحمسا، حين وصلت إلى حيث كانت واقفة، لم أجد أحداً، رأيت قصب الذرة الكثيفة تتحرك، ألجمتني المفاجأة، ولم أتمكن من النطق، لماذا توارت جوف الحقل؟ سألت نفسي بعجب، أقبل زوجها يعدو خلفي، ودعاني إلى طعامه، لا أدري ما قلت له بالضبط، كنت غاضباً، أظنني أخبرته أنني لا أبحث عن الطعام، مضيت حزيناً، وسمعت سيلان يوبخ صفية قائلاً:

ـ كيف تفرين من شقيقك هكذا؟

ردت بامتعاض:

ـ أنا لا أطيقه، إنه ساحر رهيب، وتصرفاته غريبة.

ـ أعلم أن مظهره مخيف، لكن باطنه طيب، لقد صرف الأفاعي عن قريتي.

ردت بخبث:

ـ أنت لا تعلم شيئاً.

سردت له قائمة طويلة من المصائب التي حلت بعائلتنا وبالأهالي، حتى ذكرت موت أمي، في النهاية نفخ زوجها الهواء من صدره وقال مقتنعاً:

ـ أنت على حق، صار الابتعاد عنه أمراً لا مفر منه.

٤

نظرت إلى نفسي بمقت، يئست من كل شيء، فكرت في حياتي وجدواها، لم يعد فيها ما أعيش من أجله، أمسى كل شيء يطردني، غضبت كثيراً حين فكرت أن أبي سعى طويلاً من أجل أن يرزق بي، لكنه الآن أضحى مشغولاً بقريته، صار لديه ولد آخر، وأنا أصبحت فائضاً عن الحاجة، شقيقاتي متزوجات حاقدات عليّ، قلت لنفسي: يا سعد، إن كان لا بد أن تُعاقب لا ينبغي أن تنتظر العقوبة في الهضبة، اذهب إلى مكمن الخطر ومُت هناك بعيداً عن هذه الأرض المشؤومة. حقدت على كل شيء، عدت لأخاطب نفسي بشراسة لم أعهدها: أنت الآن شرير في عيون وأذهان الجميع، إذا كنت ستموت عليك أن تُهاجِم قبل أن تُهاجَم، مُتّْ محارباً، لا تقف عاجزاً مثل حيواناتك، أنت أخطر ساحر عرفته الأرض.

احتلني حنق عارم لا أعرف مصدره، لويت مقود حصاني، وأسرعت عازماً الانقضاض على كتيبة مدينة يريم، قررت أن أجمدهم وأحرق آلياتهم ذات الأعناق الطويلة، امتد غضبي إلى العامل الذي لا أعرفه، عزمت أن أحوله إلى أقذر حيوان وهو القرد، لم أكن يومئذٍ قد سمعت عن الخنزير، لم أعد متأكداً من عودتي ثانية إلى هنا، سأفارق هضبتي ريثما أقضي على جميع الأخطار التي تهدد استقراري، هكذا فكرت، قبل أن أختفي خلف رابية صغيرة، التفت ملقيا نظرة عابرة أخيرة على هضبتي وشجرتي الأثيرة، اجتزت بضع خطوات، ثم ارتددت محتدا متسائلا بعجب، هل رأيت حيوانات ترعى وتتحرك بأناة على الهضبة أم يخال لي؟ أمعنت النظر، وجدت نفسي محقا، تذكرت بأسف أن هضبتي لم تعد محصنة بالتعاويذ بعد أن ضربتها الكرات النارية.

صرخت من الغيظ، اتجه غضبي كله صوب الشخص الذي اقتحم هضبتي، أخذت أخاطب نفسي بثورة كازاً على أسناني: سأدمر هذا الراعي تدميرا، وأحيط الهضبة بمائة دائرة سحرية لا يستطيع أي ساحر أن يفك رموزها، أدركت أني مرتبط روحيا بهذه الهضبة، ولا أستطيع الاستغناء عنها، كانت تلك الشجرة العتيقة تحتل في نفسي منزلة الأم الحبيبة، ناهيكم أن مخلاة معلمي التي تحوي كتبه الخطيرة مازالت مطمورة هناك، لذا لن أقبل أن يقترب منها شخص غيري. عدت إلى الهضبة، فوجئت بشدة، كانت هناك خيمة منصوبة قرب الشجرة، إلى جانبها رجل كهل عيناه مبيضتان يجلس على حجر أملس، ممسكا عصا رقيقة طويلة من الخيزران، ما ينم على أنه يتلمس طريقه بواسطتها، فضلاً عن نظراته التائهة، لا يبدو أنه يسمع سوى القليل، عرفت ذلك بمجرد أن قلت أخاطبه باهتمام:

ـ أيها الشيخ أنت ترعى في هضبتي؟

لم يسمع ما قلت، لكنه صاح:

ـ كاملة، هل تتحدثين إليّ؟

رفعت صوتي قائلاً بسخط:

ـ لست كاملة أيها الشيخ، أنا صاحب هذه الهضبة.

ـ كاملة، انظري ماذا يريد هذا الرجل؟ أظنه يقول إنه صاحب هذه الهضبة.

سمعت صوتاً عذباً يصدر من الخيمة:

ـ ماذا تريد يا جدي؟

خرجت من الخيمة فتاة يافعة في مثل عمر أختي حليمة، كدت أن أسقط عن ظهر حصاني، وأنا أراها، لا يكفي أن أقول إنها جميلة وفاتنة، وغير ذلك من الألفاظ السقيمة التي نقولها حين نرى فتاة حسناء، بل كانت فعلاً فريدة ومميزة، ساحرة وخارقة، ومن اختارها لتغويني، لا شك إنه الشيطان الأكبر نفسه، اقتربت الفتاة ونظرت إلي بانفعال، ثم تجاهلتني ولها الحق في ذلك، كررت قولها مخاطبة الكهل بصوت رافع:

ـ ماذا تريد يا جدي؟

كرر الكهل خطابه السابق مشيراً بعصاه إلى جهة يظنني فيها:

ـ انظري، هناك رجل يقول أننا نرعى في هضبته، هل هناك أحد هنا؟

أجابت:

ـ لا تكترث، هناك فتى فوق حصان أبيض.

ثم نظرت إليّ، وأضافت بصوتها العذب:

ـ ماذا تريد أيها الفتى؟

بالكاد قلت:

ـ هذه هضبتي.

سألتني بدهاء:

ـ هل تملك وثائق ملكيتها؟

طأطأت رأسي إلى الأرض، وأجبت بصدق:

ـ لا، ليس لدي وثائق.

ـ إذاً هي ملك الجميع، ولا يحق لك أن تمنعها.

قلت بمكابرة:

ـ عشت فيها وأختي وحيواناتي مدة طويلة، انظري، هذه شجرتي، وأغراضنا مبعثرة حولها.

ـ حيواناتك! أين هي؟ لا توجد حيوانات أخرى على الهضبة.

ـ كما ترين، الشجرة محروقة، لقد هاجمنا الجنود، وسقطت علينا الكرات النارية، فتفرقت حيواناتي وهربت.

اقتربت ونظرت إلى الشجرة واكتفت بالقول:

ـ نعم، إنها محروقة.

صمتت برهة ثم تابعت بارتياب:

ـ لِمَ يفعلون بك ذلك؟

ـ لا أدري حقا، ربما لأنهم يظنون أني ساحر.

ـ في منطقتنا قبضوا على جميع السحرة وأحرقوهم، هل أنت ساحر فعلا؟

باغتتني سؤالها فأجبت:

ـ أنا لا أؤذي أحداً، ولا أريد أن يؤذيني أحد.

امتقع لون وجهها وقالت بتأثر:

ـ أنت فتى مسكين.

صاح الكهل الأعمى بحنق:

ـ ماذا يريد هذا الرجل يا كاملة؟

نظرت إليّ متبسمة بمكر، وصاحت بصوت رافع مخاطبة جدها:

ـ لقد رحل، ليس لديه وثائق ملكية.

ـ فليذهب إلى جهنم.

قالت تخاطبني بصوت خفيض:

ـ إنه غيور جدا، لا يحب أن أتكلم إلى أحد غيره، لو يدرك أنك لازلت هنا لن يسكت.

قلت بضيق:

ـ هل لديه وثائق ملكية؟

انفجرت ضاحكة بصوت عالٍ، فصاح الكهل بتوتر:

ـ لِمَ تضحكين؟ هل مازال الرجل هنا؟

ـ لقد رحل ، لا أحد، أنا أسعل.

ـ احترسي على نفسك يا بنيتي، الرجال لا يرحمون.

أخذت تضحك بصوت واطئ وتسعل بظُرف غريب لتوحي للكهل بالاطمئنان، ثم قالت هامسة:

ـ سأرى الأغنام الآن.

قلت:

ـ وأنا سأرى شجرتي.

شيعتني بنظرة ودودة قبل أن تغيب، نظرت إلى الكهل بحقد، تمنيت أن يموت، جلست على فرع في الشجرة أفكر في هؤلاء الدخلاء، مدلياً قدمي في الهواء، ظل الكهل جالساً في موضعه كأنه تمثال لا

يتحرك، كرهته من كل قلبي، ساورني شك في أنه شيطان، وإن الفتاة جنية جاءت لتغويني، قرأت تعويذة صرف الشياطين، لكن الكهل بقي بموضعه.

لم أذق شيئاً من الطعام منذ البارحة، نزلت من الشجرة، ودرت في أرجاء الهضبة باحثا عن صيد، ولم أجد شيئاً، عدت خائباً ومرهقا عند الغروب، رأيت الفتاة قادمة خلف القطيع، يرافقها كلب أسود يبدو متنمرا، وبغلان ضخمان يسيران بوقار، فجأة هرول الكلب صوبي مكشراً أنيابه، لحقت الفتاة لكي تنقذني، فقفزت إلى الشجرة، رأيته يتقدم صوب حصاني متحفزا، فخشيت أن يعضه في ساقه، فقرأت تعويذة الجمود، وأشرت إلى الكلب الأسود، فتجمد بمكانه، ذعرت الفتاة، وابتعدت عني، وصاح الشيخ:

ـ كاملة، الكلب ينبح شخصا ما، اخبريني ماذا يجري؟

حررت الكلب من الجمود، فابتعد وهو يعوي بذعر، اقتربت منها وسألتها هامسا بحزن:

ـ هل تخشين مني؟

رأيت الخوف جلياً في عينيها، ولم تجب، ظلت صامتة، فاستطردت:

ـ لن أؤذيك، أنا لا أؤذي أحداً.

صمتت قليلاً، ثم سألتني:

ـ أين تبيت؟

ـ على الشجرة.

تغيرت ملامحها ورددت ما قلت باستنكار:

ـ على الشجرة؟!

ـ نعم، أنام دائماً على الشجرة.

ـ أنت فتى غريب.

ـ صحيح، أنا كذلك.

صمتت فأضفت:

ـ هل تودين أن أرحل؟

ردت بخجل:

ـ نعم، إن شئت.

لم أقل شيئاً، تركت حصاني ببساطة، ورحلت منفرداً، دخلت قرية أبي متخفياً، سرقت طعامي من أحد المنازل، ثم تسلقت جدار أحد الأهالي ونمت على السطح، في الصباح عدت إلى الهضبة، رأيتها هناك ترعى القطيع، جلسنا نتحدث، كان حصاني والبغلان يقتاتون العشب بألفة، صهل حين رآني، ثم عاد يأكل قرب صديقيه الجديدين، لكن الكلب فر حين رآني، فضحكت الفتاة وقالت:

ـ يا لك من وحش مخيف، انظر كيف هرب منك كلبي "بارع"!

تأملتها، راحتاها بضتان، وبشرتها طرية ونقية، تعجبت أن تكون هناك راعية في الدنيا لا تلوح الشمس بشرتها! فقلت لها:

ـ أنت أميرة.

فزت مرعوبة، وسألتني:

ـ ماذا تقصد؟

ـ أنت أميرة خرجت من إحدى الحكايات الشعبية التي كان يقصها عليّ معلمي أحيانا.

تبسمت، وسألتني:

ـ أين نمت البارحة؟

ـ هناك، أبي كبير تلك القرية.

أشرت إلى منزل والدي الظاهر على الهضبة الأخرى، فقالت بصوت رقيق:

ـ هل غضبت مني؟

ـ لا، كيف أغضب من أميرتي؟

انزعجت وقالت:

ـ لا تخاطبني هكذا، أنا لم أعرفك بعد.

ـ لا عليك، أنا فتى غريب.

رأتني حزيناً فقالت:

ـ هل تحب أن تبيت هذه الليلة على الشجرة؟

ـ نعم، إن شئت ذلك.

ـ هل نصطاد شيئاً لنأكله؟

ـ نعم.

ـ هيا بنا، لنبحث عن صيد، لدي بندقية في الخيمة.

ـ لا حاجة للبندقية.

ذهبنا وبحثنا طويلاً، بالكاد عثرنا على أرنب في أطراف الهضبة، عدنا به، وهي مندهشة من طريقتي الغريبة في الصيد، شوينا الأرنب جوار الشجرة، أخذ الكهل يصيح دون أن نعيره انتباها، أفصحت أنه يريد طعامه، فأوقدت ناراً على موقد صغير في الخيمة، وطهت للعجوز وجبته الدائمة عصيدة وحساء ذرة لأنه فقد معظم أسنانه، ثم دعت كلبها بارع، فاقترب بحذر، ومكث منتظرا حتى رميت له البقايا، وصرنا منذ ذلك الحين أصدقاء، دخلت كاملة خيمتها لتنام، واتجه الكلب ليحرس الأغنام، ويمنعها من الابتعاد عن الهضبة، في حين بقي الكهل في موضعه تحت الشجرة، وأنا صعدت بحذر إلى أعلاها، وتمددت على فرع كبير، وصرت أنتظر عودتها من خيمتها.

خرجت آخر النهار، وأعادت القطيع إلى قرب عين الماء، بحيث يقوم الكلب بحراسته ومنع أي حيوان من الابتعاد عن المكان، في المساء خرجت متسللة، وجلبت الموقد والعجين، وطهت خبزاً وعدساً وقهوة بن، أكلنا تحت الشجرة وسط ظلام رهيب، ثم طلبت أن نرتقي إلى الأعلى، ساعدتها على الصعود، ثم طلبت مني القهوة وشيئا من النور، جلبت الجرّة الصغيرة والأقداح الخشبية والسراج، وجلسنا متقابلين على الفروع المتقاطعة التي تتيح لنا مد سيقاننا، وشرب القهوة بانسجام، بعد قليل عادت إلى الخيمة حين سمعت صراخ الكهل، كان عليها أن تساعده على قضاء حاجته قبل أن ينام، ثم آبت وهي تضحك، فقلت:

ـ كيف تتحملين هذا العجوز؟

ـ ماذا أفعل؟ إنه جدي.

صمتت قليلاً وأضافت:

ـ هل تود أن تعرف شيئاً عني؟

ـ لا.

شعرت بوجومها فاستدركت:

ـ لا يهم، لا أريد أن أعرف.

ـ لكني أود أن أعرف عنك الكثير.

ـ لا بأس، بوسعي أن أخبرك كل ما أعرفه عن نفسي.

ـ ألا تحب أن تظل مجهولاً؟

قلت بضجر:

ـ هناك أشياء كثيرة أجهلها عن نفسي، هل تصدقين ذلك؟

ـ نعم، أصدقك، حياتك تبدو شائكة مثل نسيج العنكبوت، هذا واضح، إنك تبدو حزيناً كمن اقترف ذنوباً لا تغتفر.

نظرت إليها بدهشة وقلت:

ـ هذا صحيح، لذا أود أن أنفض كل ما في أعماقي وأتطهر.

ـ ألا تخشى أن أبوح بأسرارك أو أغدر بك؟

ـ لم أعد أخشى شيئاً، لأني أنتظر العقاب، وأفضل أن يكون على يديك.

فوجئت بها تبكي، فاحتويتها في صدري بأنامل مرتعشة، فكفكفت دموعها وسألتني:

ـ هل تحبني؟

قلت بصراحتي المعهودة:

ـ أنت الأمل الوحيد المتبقي في حياتي.

ـ لِمَ تظن ذلك؟

ـ انظري إلي، أنا وحيد ينفر الناس من حولي، أبي وشقيقاتي، حتى حيواناتي جعلوها تفر مني، مازال لدي هذه الشجرة وهذا الحصان، وأنت جئتِ أخيراً.

ـ هل تثق بي؟

قلت بصدق:

ـ يجب أن أثق بك.

ـ رباه، أنت تحمل تميمة أطفال! ماذا يعني ذلك؟

ـ لا أدري، أظنها تحميني من شيء ما، لا أعرف، أظنها تمنحني الشعور بالقوة.

قالت بدلال طفلة:

ـ هل تعطيني هذا الشعور إن وضعتها على عنقي؟

ـ لا أدري، لنرى...

أخذتها وعلقتها في عنقها، فجأة نزعتها صارخة، وقذفتها نحوي خافضة رأسها بألم، ثم داخت، فحملتها بين ذراعي إلى الخيمة، تمددت جوارها، ضممتها إلى صدري المشفق، كان قلبانا يتناجيان، لم أجد في حياتي كلها لحظة رائعة مثل تلك اللحظات، لا أظن إن هناك جسد لدن ينبعث منه ذلك الدفق الرقيق من الأمان مثل جسدها، بينما أنا في خدري وتحليقي في سماء رقتها ودفئها، صاح الكهل بصوته البغيض:

ـ كاملة، ساعديني لأقضي حاجتي.

إذ ذاك أشارت إليّ أن أقوم بهذه المهمة، شعرت بابتسامتها العذبة في ظلام تلك الخيمة، قمت مغتاظاً منزوعاً من فردوسي، سرت إلى الكهل، وأمسكت يده بتوتر، لا ريب أنه أحس بخشونتها، أو تضوع رائحة رجل غريب في الخيمة، إذ صاح بفزع:

ـ أنت لست كاملة!

رأيتها تحاول النهوض ولا تستطيع، فقلت له رافعاً صوتي:

ـ أنا صاحب الهضبة جئت لمساعدتك.

أشاح كفه بعيداً، ورد بصوت خشن:

ـ أين كاملة؟

ـ مريضة. قلت بصوت حاد

ـ كاملة، كاملة.

كانت تجيب عليه، لكن صوتها كان خافتاً لا يصل إلى أذنيه المغلقتين، فصحت قرب أذنيه:

ـ أنا أساعدك.

ظل متبرماً رافضاً مساعدتي، حتى سال البول على الأرض، عند ذلك مد كفه الأسمر الخشن إليّ، فأخذته إلى موضع قريب من الخيمة، فصاح بتبرم:

ـ ليس هنا.

أخذته إلى موضع أبعد، هناك جلس يقضي حاجته، فجلست انتظره طويلاً ساداً أنفي بأناملي، ثم مد راحته، فأعدته إلى الخيمة، ثم

عدت إلى حيث كنت، سمعتها تضحك، أمسى حالها أفضل، نمنا محتضنين، في الصباح أرعبنا صوت الكهل، أفقنا وهو يصيح:

ـ كاملة، هل أنت هنا؟

نهضت أنا أولاً، حاولت هي النهوض، لكنها وقعت متثاقلة على صدري، أخذتها إلى تحت الشجرة، ولم نعر صياح الكهل أي اهتمام، كانت تحس بخدر شديد في جسدها، رحت أتلو عليها تعويذة زوال الخدر والخمول، حتى عادت نشيطة كما كانت، مع ذلك ظلّت بضعة حروق حمراء تغطي عنقها وصدرها على المواضع التي لامستها التميمة، طلبت منها أن تنتظر ريثما أعود.

أخذت حصاني، وهرولت إلى صاحب منحل أعرفه في قرية سيلان، لم يكن الرجل في المنزل، لذا تخفيت وصعدت إلى سطح داره، فتحت باب المنحل، وسرقت فطيرة عسل كبيرة، ثم عدت إلى كاملة، وجدتها قرب جدها، سمعته يجري معها حديثاً طويلاً حول خطر وجود رجل غريب قرب الخيمة، أشرت إليها، فأقبلت وهو يهذي دون توقف، جعلتها تستلقي تحت الشجرة، ثم اقتطعت لها من الفطيرة قطعة لتمتصها ريثما أداويها، أمطت رداء صدرها بأصابع مرتجفة، رحت أمسح بالعسل البقع الحمراء حول عنقها، بعد لحظات انتقلت إلى صدرها، أمسكت نهدها الصغير، فانكمشت متوردة الخدين، وقالت باضطراب:

ـ لا..

قلت بخجل:

ـ أنا طبيب.

أغمضت عينيها حتى لا تشاهد ما أقوم به على صفحة نهديها، حين مسحت الحلمتين قامت تجري وهي تضحك، لحقت بها وأنا أصيح:

ـ انتظري أيتها المريضة المتمردة.

أمسكت بها، وأعدتها إلى تحت الشجرة، مكثنا صامتين لاهثين بعض الوقت، حتى قالت بعد أن هدأت أنفاسها:

ـ تميمتك خطيرة جداً، شعرت بالنار تشتعل في صدري.

ـ أوه، لم أكن أدرك هذا. قلت بأسف

ـ تبدو كطفل صغير وأنت تحملها.

ـ لسبب ما لا تكاد تفارقني منذ طفولتي، إنها تجعلني نشيطا وقويا حين أضعها على عنقي.

كان الكهل يصيح منادياً الفتاة، فقالت متأوهة:

ـ أوه، كيف نسيت أن أقوده إلى تحت الشجرة!

انكفأت عائدة، ما لبثت أن قادت الرجل العجوز إلى الحجر الذي يجلس عليه كل يوم، ثم ذهبت وكلبها بارع لتفقد القطيع في الجانب الآخر من الهضبة، جلست بعيدا عن ذلك الكهل الذي يصيبني بالاشمئزاز بسبب صراخه وتطلبه الدائم، رأيت فجأة شخصين قادمين، فقلت لنفسي: من يفكر في صعود الهضبة؟! لما اقتربا عرفت أختي حليمة وزوجها البغيض حنظل، صارت ترتدي ملابس قذرة مثل نساء مزنة، غدت أطرافها قوية خشنة، وملامحها تفتقد البراءة، رغم ذلك تبدو كطفلة بجسدها الأمرد الصغير وعنقها النحيل المائل، أما الرجل الذي يرافقها فمازال ضخما مثل بغل، كما بدا أكبر منها سنا بعشرة أعوام أو أكثر، هرولت نحوي،

ودفنت رأسها في صدري، لم أحس بأي حرارة أو دفء في عناقها، لقد نفد مخزونها القديم من البراءة والحنان.

جثا حنظل على ركبتيه أمامي، لاح فكاه خاليين من بعض الأسنان، قال منكساً رأسه بخجل:

ـ سامحني يا سعد، لقد كنت مخطئاً.

قلت متظاهراً بالجهل:

ـ ماذا تريدان؟

أجاب بخجل:

ـ أرجوك، أعد لي ذلك الشيء البغيض، لقد مضى شهر وأنا أتنقل بين المعالجين والسحرة، لم يستطع أحد منهم أن يعيده إليّ، قالوا جميعا إن صانع السحر هو من يستطيع أن يفك رموزه.

نظرت إلى أختي الهزيلة فنكست رأسها بحزن وخجل، كانت تبدو راضية عن حياتها البائسة، أو ليس أمامها خيار سوى العيش مع زوج فظ تنجب منه بعض الأطفال، لقد انسجمت مع حظها الرديء، ليس عليّ أن أزيد من شقائها، هكذا فكرت، لاحظ حنظل تفكيري العميق، فظن أنني أرفض مساعدته، فأضاف:

ـ لن أضربها مرة أخرى، أقسم لك.

قلت باهتمام:

ـ هذا ما كنت أنتظر سماعه منك.

شردت قليلا ثم أضفت بحزم:

ـ اتفقنا، سأعيده إليك، إياك أن تمسها بسوء، تعرف أن بوسعي أن أمحو مزنة من الأرض.

ـ أعرف، أعدك ألا أؤذيها.

بدا جادا وسعيدا في الوقت عينه، في تلك الأثناء أقبلت كاملة بطلعتها البهية، فأحدث ظهورها ارتباكاً شديداً في الزوجين، فاستدركت معرفا:

ـ هذه كاملة، رفيقتي في الهضبة.

تابعت أخاطبها بلهفة:

ـ اقتربي يا كاملة، هذه أختي حليمة وزوجها أتيا لزيارتي.

تصافحت الفتاتان ببرود، ظلّ ثغر حنظل مفتوحاً وهو يرى رفيقتي، كما ظهرت الغيرة في عينيّ حليمة، فحاولت أن تخفيها بالنظر ناحية شجرة التالق ثم قالت:

ـ أود أن أتذكر الأيام الخوالي يا سعد، دعونا نستظل تحت الشجرة ونشرب الماء.

ذهبنا إلى هناك جميعاً وجلسنا، قال حنظل أخيراً بسذاجة قروي مشيرا إلى كاملة:

ـ كيف هبط إليك هذا القمر؟

أجبت بانتشاء:

ـ لا أدري، نزل إليّ ذات نهار حزين.

ـ إنها الشمس في هذه الحال..

كانت حليمة تعب الماء من إناء جلبته لها كاملة، فأسرعت في الشرب، ثم أبعدت شفتيها عن الإناء بعصبية، وخاطبت زوجها بحدة:

ـ لم أسمع منك هذا الكلام منذ تزوجنا.

أجاب بصدق:

ـ الحق يقال يا امرأة، لا أظن أن هناك أي رجل يستطيع أن يحتفظ في وقاره أمامها.

اقتربت كاملة، وجلست إلى جواري، وسألتني متبسمة:

ـ ماذا يقول زوج أختك؟

قلت بصراحة:

ـ يقول إنك أجمل امرأة رآها، بينما أختي تعتب عليه، وتقول إن هذا الكلام ينبغي أن يقال لها.

ضحكت بدلال وأجابت:

ـ جميع النساء متشابهات في هذا الجانب، حتى أمي لا تعترف بذلك.

صاحت حليمة باستغراب:

ـ أمك؟ أين هي؟

نكست رفيقتي رأسها وردت بارتباك:

ـ عند رجل آخر.

كان لدي شعور خفي أنها لا تقول الحقيقة، لكني في الوقت عينه، لا أريد أن أسمع أي شيء حقيقي عن ماضيها أو حاضرها، لم يعجبني أن تحشر حليمة أنفها في شئون الفتاة.

فقلت أخاطب زوج أختي:

ـ أتود أن أعيد إليك ذلك الشيء المفقود الآن؟

أجاب حنظل بابتهاج:

ـ هذا ما يجبرنا على البقاء إلى جوارك.

قرأت تعويذة إظهار العضو المخفي، بعد قليل أحس حنظل بشيء ينبعث في جسده، فقام بسذاجة وفرح، ونظر إلى ذلك الموضع ليزداد يقينا، بحيث لاحظت كاملة ما يدور، فأشاحت نظرها بعيداً باشمئزاز، وسرعان ما صاح زوج أختي بانتشاء:

ـ ها قد عاد يا امرأة، هيا بنا نذهب.

أمسك بمعصمها وقادها كحمل صغير، ثم هرولا مبتعدين عن الشجرة في اتجاه مزنة، بعد لحظات ارتفع صوت الكهل:

ـ كاملة، ماذا يجري هنا؟

اقتربت منه وصاحت بانفعال لأول مرة:

ـ لا شيء.

سارت بعيداً، كانت تبدو حزينة غاضبة، فارتقيت الشجرة بتوتر، جلست على فرع قوي رغم رغبتي في اللحاق بها، لكني كرهت أن أفعل ذلك، مكثت هادئاً مدارياً وجومي بالتفكير في أمور شتى، ثم سمعت صوتها يأتي من الأسفل، رأيتها تمد ذراعها، فأمسكت

راحتها وجذبتها إلى الأعلى، جلست جواري صامتة للحظات، ثم تنازلت عن كبريائها قائلة بامتعاض:

ـ لقد قلت أنك لا تؤذي أحداً.

سألتها بدوري ببرود:

ـ أتودين أن تعرفي السبب؟

ـ يتحتم أن أعرف، فأنا رفيقتك في الهضبة.

حملت إليّ تلك الكلمات الصغيرة دفقاً هائلاً من السعادة، تلك أول مرة أسمعها تعترف أنها رفيقتي، كما إن اهتمامها وحنقها عنيا لي أشياء كثيرة رغم صعوبة الأمر، ضممتها إلى صدري برفق، فدفعتني بلطف، لا أدري كيف شرحت لها الموقف، بحيث رأيتها تضحك، أظنها وجدت من تصرف حنظل ووقاحته شيئاً مضحكاً، استفدت من انبساطها، وجذبتها إلى صدري ثانية، فلم تمانع، فأغمضت عينيّ، وقلت بتأثر ونحن في عناق دافئ:

ـ أتكرهين السحر؟

ـ نعم.

ـ أنا لا أؤذي أحدا دون سبب.

ـ لكنك حقود وانتقامي.

ـ ومتسامح أحياناً.

ـ هل تستطيع أن تؤذي من تحب؟

ـ أستطيع أن أؤذي نفسي أحيانا.

ـ ماذا عن شخص يحبك، لكنه مجبر على إلحاق الأذى بك؟

ـ لا أدري، أخشى أن يصاب بالأذى، لأن أي شخص يمسني بمكروه يعاقب.

ـ بِمَ تشعر حين نكون قريبين من بعضنا هكذا؟

ـ أنسى الأخطار المحدقة بي، وأفقد شعوري بالزمن.

ـ ماذا تسمي ذلك؟

ـ انتحار لطيف.

انفصلت عني فجأة، وعادت إلى خيمتها، لا أدري ما خطر في بالها، ربما شعرت أني في خضم عناقي لامست الجرح كما يقال، ظننت أنني أدرك ما تخطط له، رغم ذلك لم يكن لدي أي شعور واضح، كان ذلك مجرد هذي فارغ، وإن كنت أرتاب منها أحياناً، لكني ما ألبث أن التمس لها المبررات، لم أشأ أن تتبدد سعادتي بأي حال من الأحوال، لم تكلمني بعدها بضعة أيام، شعرت أن هناك صراع عاصف يدور في أعماقها يشبه ما يدور في أعماق الأشخاص الذين يجدون أنفسهم مجبرين على فعل شيء لا يريدون فعله.

***

صرت أفكر في الابتعاد عنها والهروب إلى مكان بعيد، لكني كلما اتجهت بعيداً نحو أطراف الهضبة يشدني شيء ما من أعماقي، لذا تهت في قرية أبي وسرقت طعام الأهالي، ونمت على سطوح المنازل، كنت أزور الهضبة متخفياً، اقترب منها بحيث لا تشعر بوجودي، كانت هي الأخرى غير سعيدة، رأيتها ترمي بعض الأواني الفخارية فتتحطم على جذع شجرة التالق، ثم تعود لتجمع

القطع المتناثرة حتى لا أفطن إلى حالها المتأزم، صارت تصرخ في وجه الكهل لأتفه الأسباب، كان يدور بينهما حوار غير مفهوم بواسطة الإيماءات، أضحك بقلب موجوع وأشعر بالتشفي، لأنها تعاني كما أعاني، رغم ذلك لم أكلف نفسي بمصالحتها، لأني نفسي غير واثق من أسباب خصامها واضطرابها، كنت أود أن أصارحها أنها أيضاً فتاة غريبة، لأجل هذا ظهرت على فرع شجرتي بعد مرور عشرة أيام من الخصام والهروب، كانت تلك المدة هي كل ما استطعت أن أتحملها، حين رأتني المسكينة لم تستطع الاحتفاظ بكبريائها، بل هرعت إليّ محاولة أن تخفي بهجتها بظهوري، مدت راحتها، حاولت أن أبدو غير مبالٍ، لكن ذراعي أفلتت رغماً عني ورفعتها للأعلى، سألتني بامتعاض:

ـ أين كنت طوال عشرة أيام؟

قلت باضطراب:

ـ لا أدري.

ـ لِمَ تفعل بي ذلك؟

بدلت لهجتها حين شعرت أنها أبدت قلقها وضعفها، فاستدركت بتلعثم:

ـ أقصد، هل ضجرت من البقاء في الهضبة؟

ـ لم أضجر، أظن أنك فتاة غريبة، سامحيني على قول ذلك.

تجهمت وأجابت:

ـ وأنت غريب أيضاً، نحن سواء، وعلينا أن نعتاد الأمر.

ـ لا أستطيع، أنت تنفرين مني، لا أدري ما يجول في ذهنك.

ـ أنت أيضاً تقول كلاما منفرا، أظن أن هناك ما يساورك بشأني.

ـ لا يهم، علينا أن نقوم بأدوارنا التي قُدر لنا أن نقوم بها، إن التفكير الدائم حول عواقب أفاعلنا يزيدنا بؤسا، علينا أن نستمتع باللحظات المتاحة لنا دون تردد.

ـ ها أنت ذا تخيفني، وتشعرني بشيء ما.

ـ تجاهلي ذلك.

ـ أنت كذلك تجاهل ما حدث.

هكذا اصطلحنا ببساطة، وعدنا نحلق في أرجاء الهضبة، ظل الكهل يصيح بغضب في أوقات كثيرة، ويكيل اللعنات على حفيدته، صرنا مجبرين على تحمل صرخات عجزه وضعفه، ولم نعد نكترث لأمره، صرت أكرهه وأشفق عليه في آن.

طوفت كاملة في قرية سرحان، استقبلتها مريمة باندهاش وفرح، لكن أبي لم يندهش وهو يراها، بل نظر إليها باحترام كبير كأنها شخص مرموق رآه من قبل! دفع بي هذا إلى العجب، أضحيت أزهو برفيقتي الجميلة الغريبة كما يزهو صياد الأفاعي بأفعى نادرة رقيقة وناعمة عثر عليها حيث لا يتوقع وجودها، صرنا ننام محتضنين، وفعلنا ما يفعله الزوجان على الفراش، كان يطيب لنا أن نرفع أصواتنا متلذذين بغفلة الكهل عما يدور قريباً من موضعه في الخيمة، أمست الهضبة فردوس الأرض، كنت أعلم يقينا إنني سأدفع الثمن غالياً، أحياناً أقول لنفسي: يا سعد، لا تتشاءم، أنت سعيد الآن، لقد تبخر النحس بمجرد أن هبطت عليك هذه الرفيقة المثيرة، وإن حدث شيء ما، فقد ذقت طعم السعادة.

بعد أيام اكتشفت المزيد من العلامات المريبة في الخيمة، ريالات أميرية كثيرة مخفية بمكان ما، رأيت جواهر باهظة وعطور في قناني عليها أختام مهداة إلى أميرة تدعى شوق، كما رأيت بحوزة الفتاة قطع زاهية من الحلل النسائية، ومشابك شعر ذهبية، وهذه المقتنيات كلها لم يكن من الطبيعي أن تملكها راعية ريفية، مع ذلك لم أشأ أن أكدر صفوها بالحديث عن ذلك، كما لا أريد أن أعكر صفو نفسي بأي شيء مزعج، في يوم قريب رأيتها تتقيأ قرب الخيمة، حين رأتني انخرطت في البكاء، تمزق قلبي لأجلها، واقتربت منها حتى ربت على كتفها قائلا بارتباك:

ـ ما الأمر يا كاملة؟

أجابت بصوت مختنق:

ـ ألا ترى، الوحم يظهر عليّ!

لذت بالصمت مندهشاً، ثم قلت باغتمام:

ـ ماذا تريدين مني أن أفعل؟

قالت دون تردد:

ـ اذهب إلى والدك وأفصح له عن رغبتك في الزواج بي، افعل ذلك بأسرع وقت ممكن.

ـ لكن علاقتي ووالدي انقطعت منذ سنوات.

ـ لا شأن لي بهذا، يجب أن تستعيد علاقتك بوالدك قبل أن تبرز بطني أمام الأنظار.

ـ اسمعي يا كاملة، نستطيع أن نقيم زواجاً صغيراً في الهضبة بعيداً عن أبي وأهالي قريته.

ـ لا أقبل بالزواج السري، اذهب إلى والدك كبير القرية، وإن رفض أن يقوم بإشهار زواجك ساعتها سنفكر في حل آخر.

حشرتني في زاوية ضيقة كما يقال، وجدت نفسي مرغماً على الارتماء في حضن أبي ثانية، تمنيت أن يتعنت ويرفض، وهذا ما ظننته، سرت إلى قريته ووجدته خارج المنزل وزمرة من الأهالي يتدارسون نفس المشكلة القديمة، كيف يعلنون عن وجود قريتهم الوليدة، وهي بطبيعة الحال لم تعد وليدة، لقد مضى عليها عام أو عامين من الزمن، لا أعرف! كان الوقت يمر سريعا في الهضبة دون أن نشعر بمروره، تقدمت نحو أبي وقلت أخاطبه بكبرياء:

ـ هلا سمحت لي أن أكلمك على انفراد أيها الكبير؟

تنحى جانبا قائلا بانفعال:

ـ أنت ترى مدى انشغالي بشئون القرية! اخبرني ماذا هناك؟

ـ لن أطيل عليك، في السابق، زرت الأولياء والصالحين لترزق بي، لكنك الآن لا تكترث لأمري، ها أنا ذا أريد الزواج، وأرجو أن تقوم بواجبك كالآباء الآخرين.

شرد قليلاً كأنه لم يستوعب قولي، أو شاء أن يبدو الأمر جدياً، فسأل باستخفاف:

ـ هل وجدت فتاة تقبل الزواج بك؟

ـ نعم.

ـ ومن هي هذه التعيسة؟

ـ رفيقتي في الهضبة.

ظل يهز رأسه نافياً، استمر هكذا لوهلة قصيرة، ثم رد بارتياب:

ـ هل أنت واثق من ذلك؟

ـ كما أثق أنك والدي.

ـ تلك الفتاة يا بني أميرة بل إنها أجمل من أي أميرة، أرجو ألا تخطئ في الفهم والتقدير، ما أقصده هو إنها جميلة جدا، ولا أظنها تقبل بشخص مثلك.

حز كلامه في نفسي، رغم ذلك قلت متذرعاً للانسحاب:

ـ أنت ترفض، هذا واضح، لا يهم.

مشيت بضع خطوات، ثم سمعت أبي خلفي يصيح بحرقة:

ـ يا لك من وغد! إنها حقا تستحق العناء، لن أبخل عليك بها.

حين سمعت ذلك تملكني شعور ممتزج بالفرح والجزع، وجدت ذلك مؤثراً ومغرياً، ركب أبي فرسه البيضاء، بدا منتشيا طلق الوجه، شعرت بالحبور، لأن أبي غدا يهتم لأمري، في الهضبة أخذ يفاوض الجد من أجل إتمام هذا الزواج، تحمل كثيراً من صرخاته الغاضبة الفجة، أبدى أبي له مزايا هذا الزواج، معلناً عن نفسه بأنه أكبر إقطاعي في قضاء يريم، ناهيك أنه كبير قرية سرحان ومؤسسها، عند ذلك رفع الرجال أصواتهم من حوله مؤيدين قوله، طلب الكهل مهراً باهظاً ليرغمهم على الانسحاب، مائة ريال أميري، وهو مبلغ خيالي، لكن أبي دق صدره، وطلب أن يجلبوا المال من منزله.

في محاولة أخيرة لإجهاض الزواج، عرض الكهل عليهم أن يسمعوا موافقة الفتاة الصريحة على الزواج، لأنها بِكر والبكر أو الشابة ـ كما يظنون- لا تجاهر بموافقتها، وهكذا ظهر أبي مغلوباً على أمره، وقال الأهالي إن الفتاة دون شك لن تجرؤ أن تأتي إلى

الرجال لتعلن عن قبولها بالفتى، حتى أنا انتقلت إلي مخاوفهم رغم ثقتي، أخيرا أقبلت كاملة من الخيمة تمشي واجمة مضطربة، وصرخت في أذن جدها بقوة: "أوافق على الزواج بالفتى سعد".

ثم عادت بسرعة إلى الخيمة، ووجنتاها متوردتان لفرط الخجل، تأثرت أنا بالموقف، وسالت الدموع من عينيّ، في حين نكس الكهل رأسه كالمهزوم، وقرر أبي أن يكون الزواج في نهاية الأسبوع، برر ذلك بصوت خافت بأنه يخشى من مكر هذا الكهل الذي سيؤول حاله إلى الضياع بعد زواج حفيدته الوحيدة، بدا كل شيء حقيقياً، حتى أني رغم ارتيابي وترددي، صرت أتعجل قدوم يوم الزفاف، سرعان ما جاء أبي إليّ وأجبرني بكلامه المعسول أن أرمي جبتي المصنوعة من جلد الخروف قرب شجرة التالق، وأخذني إلى منزله، مرتدياً ملابس الوجهاء، مفصحا بأني لا يجب أن أظل قريباً من العروس، ولا يعقل أن تزف كاملة من الخيمة إلى الشجرة.

بطبيعة الحال، كنت أمقت تلك المظاهر والتقاليد، لم أتصور أني ذات يوم سأمارس هذه الطقوس السخيفة، ولا أظن أنني فكرت في لحظة عابرة أن ارتبط بامرأة أو بأي شيء، لكن أبي سحرني بكلامه المعسول وصوته الحنون، لم أشعر باهتمامه سوى في هذا الموسم من العام، بحيث صمم أن استقبل عروسي في منزله، ووعدني أن يكون عرسي هو الأشهر في قضاء يريم، صرت أرتدي ملابس جديدة تليق بابن إقطاعي وكبير قرية، ولم يعد أبي والأهالي يناقشون مشكلة إشهار القرية، فقد أتت إليهم الفرصة من تلقاء نفسها، لا أعرف كيف حبكوا لعبتهم في رأسي، ما أعرفه هو أنني كنت أحب كاملة وأتوق إلى لقائها بأي حال، لا شيء استطاع

أن يبطل مفعول تميمتي الحارسة وأن يفقدني ميزة الشعور بالخطر سوى الحب.

***

هل ما يجري حولي حقيقي؟ سؤال ظل عالقا في رأسي دون جواب، لم يكن طبيعياً أن تنقشع البلاد برمتها وتدخل إلى قلب قرية صغيرة مجهولة، كيف يحدث ذلك في زفاف فتى شريد مثلي؟ حتى وجاهة أبي وصيته لا يمكن أن تكون موازية لهذا الاحتفاء الفريد من نوعه، امتلأ رأسي بالأسئلة كما امتلأت الهضبة الصغيرة بالوافدين، حظيت القرية بإقبال لا نظير له، سكانها القلائل توقفوا مندهشين عاجزين عن تلبية احتياجات ذلك العدد الضخم من الضيوف.

ظهر أهالي قاع الحقل والقرى المجاورة للمساندة، رأيت سيلان وناجي وحنظل ومثنى زوج نعمة الرعديدة، هؤلاء بدوا مذهولين ينظرون إلي بعين التبجيل، استغرب الجميع، لاسيما أهالي القرى المجاورة وحتى أهالي قرية سرحان أنفسهم، كيف يتحول عرس شخص انطوائي غريب إلى حشود عظيمة لم يسبق أن شوهدت في أي مكان آخر؟ استغربت أنا أيضاً، لم تصدق عيناي! فالطبول تصم الآذان، والراقصون حشروا في باحات ضيقة يقفزون وسط حلقات كبيرة وصغيرة من المعجبين، هنا يقاس حجمك ومنزلتك في مثل هذه المناسبات، كلما كان عدد الناس حولك أكثر ينم هذا عن أهميتك ورفعة شأنك، يا لها من طريقة ساذجة لقياس أوزان الأشخاص وقيمتهم! بدا أبي واثقا متباهياً لا يفارقني لحظة، موحياً إلى نفسه بأنه والد العريس، وقفت استقبل الضيوف في باحة عريضة يغطيها سقيف أنشأه الأهالي على عجل في المساء، رصت

تحته مقاعد طويلة من جذوع أشجار الطنب بريت وثبتت على الأرض بشكل سيء، جلست وزمرة من الوجهاء المجهولين على جذع طويل رافع، كان أغلبهم من كبار السن الذين وجدوا في سنهم ما يبرر لهم البقاء تحت الظل قرب العريس، لكن الجذع الذي جلسنا عليه مال حتى أوشكنا أن نسقط، هرع الرجال وثبتوا الجذع بالأحجار وهم في غاية الخجل، حين ذلك سمعت رجلا طاعن السن يقول بارتباك:

ـ اهتزاز موضع العريس فأل سيء.

قلت بانبساط:

ـ لم أعد أكترث أيها الشيخ، لقد اعتدت على الهزات والمتاعب.

ـ ليحميك الله يا بني.

كان أبي واقفاً على كثب يتلفت بشكل دائم ما يثير القلق في نفس كل شخص يراه، ظل يطوح أنامله في الهواء مشيراً لأهالي قريته المحتارين أن يفعلوا هذا وذاك من الأعمال، لكنهم يعودون متبرمين قائلين إن هناك أشخاصا مجهولين من قرى مجاورة أو حتى أغرابا لا يفصحون عن أنفسهم يقومون بأعمالهم، فأوصاهم أبي بالقيام بمهام الإشراف على سير العمل دون التسبب بأي إزعاج للمتطوعين.

صار أهالي قاع الحقل ينصبون الخيام، ويخدمون الضيوف، ويمهدون باحات الرقص، ما لبثوا أن أعلنوا إن هذا العرس لا يخص أهالي قرية سرحان وحدهم، وأن الضيوف جاءوا من الألوية القريبة والأقضية والنواحي في لواء إب، ما استدعى المشاركة بواجب الضيافة، بل صار بعض أهالي القرى يجلبون معهم طباخيهم وذبائحهم، وقدموا الهدايا التي تقدم لأهل الزفاف كما

يفعلون في مثل هذه المناسبات الكبيرة، كان كل شخص مرموق من الضيوف يبرز ترفه ومنزلته بتقديم (رِفْد) كبير يتباهى به، كباش وعجول ورزم ضخمة من القات البلدي، يقدمونها في حضور الدوشان الذي يصرخ بأعلى صوته معلناً عن حجم الهبة المقدمة، طامعا هو الآخر بكرم الضيوف لاسيما الأثرياء، لأجل ذلك أمطرهم الدوشان بكلمات المديح المعروفة التي توارثها عن أجداده، سرعان ما تمتد أياديهم إلى الجيوب ويعطونه بشهامة بحيث يلتقط ما يقدم إليه من مال دون أن ينظر إليه احتراماً لمشاعر الوجهاء الذين لا ينفحون الشيء اليسير، بدأ أبي يعرفني ببعض الشخصيات الصغيرة من كبراء القرى والإقطاعيين الصغار في قاع الحقل، لكنه عجز عن تقديم أشخاص وجهاء يحتلون مناصب مرموقة في الإمارة، أمراء وعمال ورجال أثرياء فوق أحصنة، بل إن البعض وصل بمركبات ذات عجلات أوقفت بعيداً عن القرية التي ليس فيها طرق ممهدة، لا أدري كيف عرفوا الطريق إلى هذه القرية الوضيعة المنسية، وأي صلة تربطهم بأبي، لكن بدا واضحاً أنه نفسه بدا محتاراً صامتاً.

راح دوشان قضاء يريم جرعون وأخوه علوان يصيحان بأسماء الوجهاء، الذين تقدموا لمصافحتي وتهنئتي بالزفاف، راحا يعددان مناقبهم، ويبالغان في تصوير صفاتهم وتضخيم أجسادهم كما لو كانا شاعرين في بلاط الخلفاء العباسيين، كل دوشان اتخذ زاوية ليتكلم بما عن له دون حدوث اختلاط في الكلمات والأصوات، كان جرعون قريباً مني باعتباره الأكبر والأكثر خبرة من أخيه في نظم الأقوال وإمتاع الضيوف الوجهاء، كنت بديعاً بتلك الملابس والأكاليل التي أحاطت بي، ومتضايقاً منها في اللحظة ذاتها، شعرت بها كقيد يكبل جسدي، كانت قد جلبت إليّ من مدينة يريم، خاطها حِرَفي يهودي شهير بحيث تكون على حجم جسدي دون

زيادة أو نقص، ألبسوني ملابس عريس من طبقة الأشراف بحيث استغرب الأهالي ذلك، ظهرت في عيونهم الظنون، سمعت بعض الهمس والتساؤلات حول ذلك، أفصح البعض أن ذلك اللبس يعود للطبقات الرفيعة من الأشراف الذين يقترنون بنساء من السلالة الأميرية، قلت في نفسي بتفاخر الأحمق: إن عروسي أجمل من أي أميرة، وتستحق أن أرتدي من أجلها أجمل ملبوس، لم يكن لدي ذلك الحس الذي يميز بين رداء ورداء، ببساطة، لقد ارتديت ما جلب إليّ، قميص فضفاض وعمامة خضراء، وحزام ذهبي وخنجر باهظ يميل باتجاه اليمين. لم أفكر بأي شيء، لأن عقلي خرج من رأسي لفرط ما يجري حولي من أمور تدعو للغرابة، لكن الأمور تفاقمت والمفاجآت توالت، إذ سمعت جرعون الدوشان فجأة يصرخ قائلاً بصوت صاخب:

ـ أهلا بالسيد الماجد حسن بن حسين عامل قضاء يريم، الأسد المهاجم والسيل العارم، يا طويل الرقبة، يا فسيح العتبة، يا شهير في حسبه ونسبه...

فز قلبي في صدري، فأكملت بعد الدوشان في سري على السجع ذاته: "ومشرد حيواناتي من الهضبة".. تمنيت بقليل من الرهبة أن أرى وجه هذا الرجل طويل الرقبة – حسب وصف الدوشان – إنه الشخص المسئول عن ضرب هضبتي بالكرات النارية بواسطة ـ ما يطلق عليه ـ مدافع الهاون، تخيلته رجلا طويلا ضخما، لم أكن قد سمعت مبالغات الدواشين وكلماتهم المزيفة، أخيرا تقدم مني العامل وصافحني بحرارة زائفة، شد يدي بقوة، لا أدري هل ذلك بفعل الشوق أو الحقد، لم يتبسم، أو يبادلني أي كلمة، كأنه يقوم بعمل لا أهمية فيه للكلام، أو غير مقتنع بالقيام به، ظل يهز رأسه من قبيل التهنئة، رغم إن الموقف يستدعي أن يرسم المهنئون ابتسامات

صغيرة مجانية على شفاههم، تأملته، رجل متجهم ضئيل الجسم، خمسيني العمر، رقبته قصيرة ملتحمة بكتفيه، على رأسه عمامة الأشراف الخضراء، لحيته بيضاء مشذبة، تغطي التجاعيد وجهه المهيب الوقور، عيناه خبيثتان ماكرتان بوضوح، ما لبث أن غادر سريعا ليتيح للآخرين فرصة الاقتراب لتهنئتي، يتبعه عشرة جنود موحدي الملابس، سريعو الحركة، بنادقهم لامعة من نوع زاكي كرام، عرفت أنه جلب سرية مدفعية، لإحياء العرس والتعبير عن تضامنه، كانت أصوات مدافعه تتردد بصخب في الجوار، فأزعجتني بشدة، وذكرتني بالماضي الرهيب، همس أبي في أذني حين رآني مشدوهاً:

ـ العامل يريد أن يعبر لك عن أسفه على مهاجمة هضبتك، لذا جلب خمسة مدافع تطلق النار ابتهاجاً بزفافك.

قلت هامساً بثقة عريس مجاب المطالب:

ـ أرجو أن تتوقف هذه المدافع في الحال.

ـ لكن لا يجوز أن نكسر خاطر العامل، إنه يظن أنه يقوم بعمل عظيم.

ـ لا أريدها، عليك أن تسكتها بأي حال، حتى لو اضطررت إلى طرد العامل.

اتسعت عينا أبي دهشة، ووجد نفسه في موقف لا يحسد عليه، كان مضطراً أن يلحق وراء العامل مفكرا في ذريعة مناسبة لإقناعه بالتخلي عن إطلاق النار الهادر، اختفى قليلاً، ثم عاد، لا أدري كيف استطاع كتم أصوات المدافع، لم أعد أسمع سوى هدير البنادق الخفيف، في تلك الأثناء، تقدم صوبي أمير لواء إب الأمير الحسن بن القاسم، وحشد من مرافقيه، فأخذ الدوشان يصيح معرفاً عنه

معدداً مناقبه حتى بح صوته، حين ذلك ازدادت شكوكي، وذهبت بي الظنون إلى حدود قصية، همست في أذن أبي بعد أن غادر:

ـ ماذا يحدث يا أبي؟

قال مستفهماً بمكر:

ـ ماذا تعني؟

كررت سؤالي بضيق شديد، فأجاب بتباهي:

ـ إذا كنت تقصد العرس الضخم، فاعلم إن أباك قد بعث الدعوات إلى كل حدب وصوب، فالقرية أيضاً يجب أن يعرفها الجميع.

ـ هذا غريب مريب، هناك أمراء ووجهاء!

ـ كما ترى، أنا شخص مرموق، إقطاعي وكبير قرية، لا يوجد شخص في قضاء يريم يجهل والدك.

ـ كيف سنطعم كل هؤلاء الضيوف؟

نظر إليّ بضيق وهمس متجاهلاً سذاجتي:

ـ لا تشغل بالك، أنت عريس، مدبرو العرس من أرجاء قضاء يريم، لقد أصبح العامل معنياً باستقبال الناس، وها هو يشرف بنفسه على تنظيم الأمور.

استغربت أن يكون أبي - وهو سجين سابق في القضاء – قد استمال العامل، وفاز بصداقته، لا أخفيكم إن هذا ظل يشغل نفسي رغم أني لم أعد أولي أي شيء أي اهتمام، فقد امتلأ رأسي بالأحداث الغريبة، ما اضطرني إلى طمس كل شيء، وتفريغ بالي من كل المنغصات، كانت تلك هي اللحظات الوادعة والهادئة في عمري، لأن فرحي باهتمام الناس بي طغى على كل الوساوس

والملابسات الغريبة التي تحدث من حولي، بعد قليل صافحني أمير تعز وأمير ذمار، ومالوا إلى أبي يتحدثون إليه، ويمزحون، فانطلت في رأسي فكرة أن أبي قد وصل إلى شأو كبير دون أن أشعر، أفرحني ذلك، فأنا رغم كل شيء ابن هذا الرجل الشهير المتباهي، كانت هضبتي قد غصّت بالخيام، فصرت أتنقل أثناء المقيل بينها، وهي كثيرة، بحيث لم أستطع المرور عليها كلها، كانوا يحشون أغصان القات في أفواههم ويلوكونها ويتحدثون، لا أدري كيف يستطيعون فعل ذلك في وقت واحد! تكلموا عن العرس العظيم الذي لم تشهد له المنطقة مثيلاً، وقالوا إن العريس- الذي هو أنا - سيزف إلى أميرة من عائلة مرموقة، وإن هذا الزواج غريب وغير متكافئ، وليس من العدل أن يحظى بلقب أمير، أو يقترن بفتاة بمثل ذلك الحسن والجاه، فالعريس كان درويشاً قذر الجسد رث الملابس، ليس عدلاً.. ليس عدلا..

كرروا هذه العبارة القصيرة مراراً بتشاؤم ولؤم كبيرين، ثم ينظرون إليّ ويبتسمون ويرفعون حواجبهم الكثة مهنئين كأنهم يتحدثون عن شخص آخر، لا أدري هل كانوا يتغابون أو إنهم بالفعل حمقى يجهلون أنني الدرويش القذر الذي يقصدونه؟ ليس هذا وحسب، بل راحوا يسرحون في وصف مفاتن أميرتي، حينا يصفونها بالحورية التي تفوق النساء نضارة وفتنة، وفي حين آخر يقولون إنها جوهرة في يد فحّام، ثم يطلقون التنهدات والزفرات المتحسرة الأليمة، لم يكن بوسعي أن ألومهم على المقارنة بين الأميرة والدرويش، أظن إن كل ما نطقوا به هو الحقيقة، فأنا حقا لا أستحق زغب إبطيها، لكن تكرارهم وتماديهم جعلني مكدراً، ببساطة لم أكن أود تذكيري بهذا الأمر، فقد استسلمت للفرح الذي أنا مقبل نحوه باقتناع رغم مخاطره، حتى إنني تحاشيت التفكير فيه، لم أشأ أن أعيد إلى نفسي مقولة أن العرس الكبير تكون نهايته

تعيسة، لقد بت أطمع – لا أخفي ذلك - أن أظل متشبثاً بالسعادة حتى اللحظة الأخيرة التي أطرد منها ككلب ضبط وبفمه لحم أضحية العيد.

في نهاية المطاف ضقت ذرعاً بثرثرتهم، فاستدعيت أبي وبعض مدبري العرس، كنت أعرف أهميتي كعريس مُجاب المطالب، لذا قلت لهم بصوت يغلب عليه الأمر على الرجاء:

- اسكتوا هؤلاء، أو ارموا بهم خارج الخيام، لا أريد أن يتحدثوا عن زفافي ومفاتن عروسي بهذا الشكل.

نظر أبي إلي متفحصاً ليقيس جديتي، ثم رد باستنكار:

- ألا ترى يا بني إن الضيوف كُثُر، وفيهم أمراء ووجهاء وأشخاص ذو مراتب عالية في الإمارة.

- لا أكترث، اطردوهم إن رفضوا الانصياع، وإن لم تفعلوا ذلك سأضطر أن أطردهم بنفسي أو أحولهم إلى جرذان بالتعاويذ.

مد أبي ذراعيه إلى آخرهما، هامسا باستسلام ورجاء:

- لا تفعل ذلك أيها العريس، سأعالج المشكلة، انتظر فقط حتى يلهمني الله بحكاية ملفقة، فالأكاذيب تفيد في بعض الأوقات، عندي في ذلك خبرة قديمة.

حك قرن رأسه وخرج وبعض المنظمين، بعد قليل انتقلت إلى خيمة مجاورة، رأيت أبي عند خروجي وحوله حشد من المدبرين والمنظمين، لمحت أيضا عامل القضاء بينهم، سمعت صوته الشحيح الكلمات الذي لا يخرج من شفتيه إلا بمشقة، وبجهد كبير، هذا النوع من الناس تكون أفعالهم أوضح وأقسى من أقوالهم، لكن في هذا اليوم كان يوافق أبي ويكرر: تمام.. تمام.. بصوت لا يكاد

يسمع، لكني كنت ألتقط كل ما يدور في الخيام، مازال الضيوف أزواجاً وجماعات يتحدثون عن العُرس بشكل مزعج، انتظرت بضجر أن يصمتوا، أخيراً سمعت أصوات المدافع تهدر في الهضبة، فارتجفت قلوب الضيوف، وكادت روحي أن تصعد، قلت لنفسي: هذه ليست حكاية ملفقة، إنه رعب شامل يذكرني بما حدث في الهضبة.

أدركت إن هذا اقتراح عامل القضاء الذي يؤمن بأن أصوات مدافعه سوف تخرس الألسن، لا يعرف من طريقة أخرى لمعالجة المشاكل غير تلك، وفعلا صمت الناس قليلاً ثم عادوا ببطء وحذر يثرثرون، عند هذه الوهلة، أوشكت على قراءة تعويذة التحويل، لكن صوتاً عاليا انبثق من رأس الخيمة:

ـ هيه، هناك حِسْبَة جديدة وردت من متحسب في يفرس، وهو الشيخ عقيل الرائي بنور الله، يقول فيها إن شيئاً ما سيحدث في يوم خميس، فيتحول الناس إلى عرايا يهجرون المنازل ودور العبادة، ويسيرون في الطرقات بلا عقول كالمجانين، فالحقوا بالبيت الحرام قبل أن يهجر ويندثر، وأدوا مناسك الحج والطواف.

شرع أحد الضيوف يتكلم، ادعى إنه رافق جده إلى موسم الحج في مكة، واصفا ما شاهده في تلك الصحارى، وكيف احتشد الحجيج كالنمل الأبيض في جبل عرفة، وعن شكل الكعبة المربع والحجر الأسود الشهير، وعن الحجاج الأفغان بلحاهم الطويلة التي يوشكون أن يدوسونها بأقدامهم، وعن الأشخاص المتجهمين الذين يبكون قرب المقامات الشريفة، رغم ذلك لم تتحرك في رأسه شعرة واحدة، لم يجد في المكان أي رهبة أو إثارة، كان وقتها شاباً يافعاً يواكب خطوات جده العجوز وأحياناً كان عقله يشرد إلى قريته،

فأخذ يفكر في فتاة كان يحبها، لم يدرك كيف خيل إليه أنه وجدها قرب أحد الحقول بمفردها، فقبلها في فمها، استغفر الله العظيم...

استغفر الضيوف الله كثيراً، رغم ذلك شطحوا بأشياء مماثلة تقود إلى التعجب والضحك، فالقرويون السذج يجهلون آداب الشعائر المقدسة، يذهبون إلى الحج بقلوب نقية جاهلة بريئة، وأحياناً يتحدثون قرب المقامات عن أمورهم الخاصة وأحوالهم، وفي تلك الأثناء تتوه نساءهم في الزحام، فيصرخون بأسمائهن بملء الصوت، ما يدفع الحجاج إلى الشكوى والتبرم لسلطات الحرم المكي، قال أحدهم إن جدته ضاعت حول البيت المقدس حين تدافع الأفغان والبنغال قرب الحجر الأسود، فصار جده ينادي عليها بملء الصوت: يا عاتقة، يا عاتقة، لكن الحجيج الأفغان كانوا يهتفون بصوتهم المكسر نداء التلبية: لبيك ألهم لبيك، والجد العجوز ينهرهم صائحاً: اسكتوا يا شياطين، أنتم تنادوا على من لا يضيع، نادوا على عاتقة.. يا عاتقة... ضحك الحاضرون حتى دمعت عيونهم، ثم سكتوا واستغفروا الله كثيراً، كأنهم تذكروا فداحة ما سيجري لهم في يوم الخميس الموعود.

بعد لحظات دار مفعول القات في رؤوسهم وتخدروا، فصاروا أكثر كآبة وتشاؤماً، ربما فكروا في إن اليوم الموعود لا محالة قادم، وعليهم أن يستعدوا بالأعمال الصالحة، لكن الضحك والهزل في مثل هذا الموقف لا يفيد، فجأة شرع البعض ينتحبون، وجاء أبي إلي وطفق يضحك ساداً ثغره براحته مراعاة لمشاعرهم أو خوفاً من غضبهم، وقال لي هامساً:

ـ انظر إلى المساكين كيف تنطلي عليهم الأكاذيب! كان من الأفضل أن أدعك تحولهم إلى حيوانات، لأن عقولهم الصغيرة صارت عبئاً عليهم.

كان أبي يلوك أغصان القات، ويمسحها مسروراً، فجأة تغيرت ملامحه وظهر عليه الوجوم والقلق، ما لبث أن انحنى صوبي هامسا بصوت متذبذب:

ـ المشكلة إن أكاذيبنا تتحول إلى حقائق مع مرور الوقت، أخشى أن أجد نفسي عارياً أحاول أن أهدم ما بنيت، لن يعرف منزلتي أحد، لن أكون كبير قرية، بل مجنوناً يجول بين مجموعة كبيرة من المجانين.

إثر ذلك أخذ ينشج بحرارة، كان الصمت مطبقاً والضيوف قد سكتوا، التفت الرجال المكتئبون إليه بغضب، كشخص مخالف شاذ، فكفكف دموعه، ووجد إن الأنظار مصوبة عليه، فأحس بالخجل، أخذ يتظاهر بالسعادة، فالناس أحياناً يبكون من الفرح، ثم انسحب من الخيمة، كان هذا مضحكاً ومسلياً، فالناس هنا كانوا مضحكين في حزنهم وفرحهم، كانت عيونهم تلاحق خيالات وأطياف على جدران الخيمة وسقفها العريض الكالح اللون، صاروا يحركون أناملهم كأنهم يدافعون عن أنفسهم بسبب ما اقترفوه من آثام، كنت أعرف أنهم سيضحكون وينسون كل شيء بمجرد أن تحين ساعة الزفاف، وهذا ما حدث، تم استدعائي من الخيمة لاستقبال عروسي، كنت عند باب منزل أبي حين دوت المدافع، وصدرت الزغاريد، بعد لحظات أقبلت العروس تمسك ثوبها الطويل فتيات صغيرات غريبات، فقدت شعوري كأي عريس يرى طالع سعادته ينبثق، لا أدري كيف انفتح قلبي عند قدوم موكب رفيقتي في الهضبة، أو الأميرة كما يسميها الضيوف. عرفت في تلك الوهلة إنها سر سعادتي، مرت الطقوس وأنا غائب عن الوعي، سمعت المغنيات يقرعن الدفوف ويطلبن مني أن أحملها للأعلى، نبهني والدي ألا أتردد عن حملها، كانت المغنية تترنم والجميع يصفقون:

يا أمير يا نجم ساطع نورك بلغ أبين ويافع

القمر سامر وطالع في سما سعد السعود

العروس غادة أميرة كاملة حلوة مثيرة

احمل البنت الصغيرة واحترس عين الحسود

حملتها إلى الأعلى بخفة أثارت إعجاب الحاضرين، وأغلقت الغرفة خلفي، ظهرت من تحت ردائها الأبيض الناصع مثل جنية تغوي جميع الشياطين، أكلنا وجبة خفيفة، كانت تنظر إليّ بحزن، عيناها حمراوان وجيدها مائل بإشفاق كأنها على وشك أن تعتذر أو تدلي باعتراف ما، لم أقبل منها هذا المظهر الكئيب، أضحكتها، شربنا قليل من شراب لاذع قوي قدمته إليّ بأنامل مرتجفة مخضبة بنقوش الحناء، كبيت القدح كله إلى جوفي دون حذر، سكبت لي المزيد فشربت، ولو أسقتني السم لن أتردد عن تناوله من كفها المخضب المثير، عانقتني، ثم تخلصت من ثيابها، كانت بطنها بارزة قليلاً بثمرة علاقتنا في الهضبة، ساعدتني كذلك في نزع ثيابي، طالبة مني أن ألقي تميمتي جانباً، لأنها تخشى منها، فسلمتها إلى يدها بنفس راضية، ولذنا بالفراش متعانقين، وفعلنا ما يفعله الأزواج، ونمنا.

٥

أفقت في الصباح محتضنا وسادتي، لم أجد أي أثر للعروس قربي، ولولا أني رأيت بقايا ملابس زفافها لقلت لنفسي إن ذلك أجمل حلم رأيته في منامي، تفقدت غرف دار أبي الواسع، نظرت إلى الحَمَّام، كان مفتوحاً فارغاً، تضوعت رائحتها داخله، ارتديت ثيابي بعجل، وألقيت نظرة إلى الخارج، كانت الشمس تشرق من الهضبة على استحياء، غمرني هذا بالأمل، خرجت، بدت القرية خاوية سوى من بعض النساء اللواتي انتشرن قرب ملاجئ الأبقار، كن منهمكات بالعمل اليومي المألوف كأن شيئا لم يحدث في القرية. صعدت إلى الهضبة، رأيت آثار الخيام على الأرض وبقايا نفايات القات، وجدت ذلك الرجل الكهل قرب شجرة التالق جالساً على الحجر ممسكاً عصاه بالطريقة ذاتها، كان حصاني الأبيض بالقرب يبدو مفزوعاً بفعل الضجيج وأصوات المدافع في المساء، مازالت خيمة كاملة منصوبة كذلك، بدت كئيبة موحشة، أعرفها حين تكون خالية من كاملة، لكني هذه المرة أوغلت رأسي وألقيت نظرة طائشة إلى داخلها، شعرت بالكهل يضحك وهو يسمع حمحمة حصاني، ما لبث أن صاح بتشفٍ:

ـ أهذا أنت يا سعد؟

سألته بخجل:

ـ هل رأيت كاملة؟

ـ ألم تكن معك في المساء؟

قلت بغيظ:

ـ ها أنت تسمع أيها العجوز الماكر.

ـ نعم، وأرى أيضاً.

أماط عن عينيه رقاقتين ذوات لون أبيض ملصقتين على عينيه البنيتين الخبيثتين، قلت باستياء:

ـ خدعت نفسك أيضا، لن تنجو من العقاب.

ـ لِمَ تقول ذلك؟ لقد عقدت لك بالأميرة كاملة، كل رجل في الدنيا يتمنى أن يمس ظفرا من قدمها، ولا يستطيع.

تابع سائلا باهتمام:

ـ هل فقدت شيئا آخر غير كاملة؟

ـ نعم، تميمتي، أنا لا أهتم، لقد سلمتها إليها بمحض إرادتي.

ضحك مجيبا بخبث:

ـ لازلت تحبها وقد فعلت بك كل هذا! ما أتعسك من شاب!

سألته بانقباض:

ـ هل لأبي ضلع في ذلك؟

ـ أيها المسكين، هو من اقترح هذه الخطة يوم اعتقل في القضاء، أنت كبش الفداء الذي أخرجه من السجن.

امتلأت عيناي بالدموع، وقلت:

ـ لِمَ يفعلون بي ذلك؟

ـ السر في التميمة.

ـ فعلا، أنا أستحق العقاب، لأني خالفت وصايا الأسلاف القدامى.

سرت إلى الخيمة وارتديت ملابسي القديمة، وسمعته يقول:

ـ لو تعرف العذاب الذي ستناله لا ريب أنك ستفر أو تقتل نفسك.

سألته ببرود:

ـ أين الجنود لأسلمهم نفسي؟

ـ لا تتعجل، فاللحظة بجانبي مغنم كبير لك، أنا هنا من أجل أن احترس عليك من الفرار.

ـ وهل تظن أن بوسعك منعي؟

ـ أستطيع حقا، لأني أشهر ساحر في هذه البلاد، أنا قاسم الوضري.

نظرت إليه بحقد، وقلت:

ـ مادمت ساحراً، لن يطول الأمد حتى تعاقب، فقد تماديت في الغدر والخيانة للإيقاع بشخص لم يمسك بسوء.

ضحك قائلا باستهتار:

ـ دعك من وصايا الحمقى، طالما عشت عمري مخالفاً، لن تجد ساحراً نقيا من الأخطاء، لقد مكثت شهوراً في الهضبة معذباً أقوم بدور أعمى بغيض غيور، أليس هذا عقاباً؟

لذت بالصمت، وجلست تحت الشجرة أتأمل أطراف الهضبة، لم أعد ثاقب السمع أو البصر، صرت شخصاً عادياً متثاقل الجسد واهن الأعصاب، لا يعرف أي شخص قيمة مهاراته إلا حين يفقدها، كانت التميمة تجعلني خفيفاً كالريشة قوياً كالصخر، الآن بوسع أي فتى في سني أن يصرعني بيسر، أما التعاويذ التي أحفظها فصرت غير متأكد من وجودها في ذاكرتي، كان شعوري غريباً، كان الحزن الممتزج بالإحباط يثقل على روحي، لما رآني

قاسم الوضري - ذلك الكهل المحتال - شارداً دق على الوتر الحساس في قلبي، قائلاً بلؤم:

- أنت فتى بائس، كنت البارحة في حضن أميرة فاتنة والآن تجدك مشرداً تنتظر الشقاء.

جعل يضحك مفتوناً بدوره المنحط في إذلالي وخداعي ثم أردف نافثا بغضب:

- كيف قبلت أن تلبس ثوباً لا يليق بجسدك؟ كيف قبلت أن يطلق عليك لقب الأمير سعد؟ كيف تجرأت على قضاء وقت ممتع مع أميرة لم تُطِق روائحك الكريهة؟ حقا لا أظنها استساغت لحظة واحدة في صحبتك!

ثارت الدماء في عروقي، ونهضت والعرق يسيل على جبيني، وخاطبته وأنا اقترب منه:

- كيف تطلق أحكاماً بعيدة عن الحقيقة أيها الكهل القذر؟ كيف قبلت أنت أن تمثل هذا الدور اللعين عليّ؟

استقبلني بتعويذة، وجعلني الحقد أخرج تعاويذي من رأسي بعد أن ظننت أني فقدتها، تقاتلنا قتالاً ضارياً رغم عدم ثقتي أنني أستطيع مواجهته، أظنه أراد استفزازي ليدفعني إلى الشروع في مهاجمته ليثبت أنه يستطيع إخضاعي، كان كل منا يقدم أفضل ما عنده من الفنون السحرية، بحيث دارت بيننا حرب شاملة لا توصف، انقلبنا إلى أشرس الحيوانات وإلى أقذر الحشرات، ثم دخلنا في حروب الطبيعة والتعاويذ المهلكة، فدوت الرعود في الهضبة، ونزلت الصواعق واهتزت الأرض، ثم تدحرجنا على المنحدر ونحن في صورة قردين من نوع السعدان، رغم ذلك، لم يتغلب أحدنا على الآخر، حتى راودتني نفسي أن أقرأ على جسده تعويذة القسم

الأعظم التي أخضعت بواسطتها الملك زعفوط يوم استعصى علي، لكني لم أكن متأكداً من حفظها، وأعظم من ذلك خشيت من الضرر الذي سيلحق بي بفعل قراءتها للمرة الثانية، اكتفيت أن أواجهه بالتعاويذ التي يلقيها عليّ، بقينا نتصارع، ولم توقفنا إلا قذائف الهاون التي ضربت الهضبة من جميع الجهات، عند ذلك لذنا بالشجرة، جلس الكهل إلى جواري وهو يلهث، صمتنا بعض الوقت حتى قال بصوت منكسر:

ـ اعترف لك يا بني أنك ساحر خطير، لكن هذا لا يمنع أن أسميك بالمغفل والساذج.

قلت وأنا ألهث أيضا:

ـ اللوم زاد النفوس الجوفاء، هكذا سمعت معلمي يقول.

ـ إن شئت يا بني أن تفر، هاأنذا أخلي سبيلك.

ـ فات الأوان يا صديقي الساحر.

ـ ما حدث أمر مؤسف، لقد أجبرت على فعل هذا الأمر السخيف مقابل أن أعيش وعائلتي بسلام، حتى والدك فعل ذلك مجبرا، لكني سأغادر إلى قريتي عبوم بضمير معذب بعد أن أنهيت مهمتي الدنيئة.

قلت لأبث الرعب في نفسه:

ـ أظن أنك مطلوب أيضاً، إنهم يكرهون السحرة، ولن ينفعك ما قدمت من واجب القبض عليّ.

ـ لم أعد أكترث، كما ترى أنا رجل هالك، أتمنى أن يدعوا عائلتي وشأنها.

حدثني عن شبكة كبيرة من المتعاونين والمخططين والجواسيس، تبدأ بالأمير الأكبر والأمراء والأميرات في سلالته، ثم يأتي هو ممثلاً عن السحرة، وتنتهي هذه الحلقة الدنيئة بشقيقاتي ووالدي الذين أيدوا فكرة القبض عليّ لقاء إخلاء سبيلهم، وقد تمثَّل دور أبي بالتمهيد لهذا الزفاف ليبدو حقيقياً، والغرض منه هو المبالغة في توضيح سذاجتي وإيلامي نفسياً، لقد أجبروا المحيطين بي على النفور مني وبغضي، وإسماعي أبشع ألفاظ الازدراء، وذلك من أجل زعزعة ثقتي بنفسي وتكدير حياتي بالمشاكل والمنغصات تمهيداً للقبض علي، ومن ثم تعذيبي بأبشع أدوات التعذيب الجسدي التي عرفتها البشرية.. انتهى قائلا بشيء من التقزز:

ـ أيها الساذج، هناك فِرق من الجلادين تدربوا لتعذيبك، البعض منهم أشخاص أجانب، وقد استوردوا أبشع أنواع الآلات لسحق جسدك.

أعترف لي ثانية أنه أرغم على عمل ذلك، فهو رجل كهل لم يعد يطيق عمل الدسائس، لكن عائلته وأقاربه مهددين بالموت حرقاً، كذلك أبي وشقيقاتي، الجميع مكره على مجاراة الأمراء والعمل معهم.

الجميع عقدوا اتفاقاً على إخلاء سبيلهم، والدي أيضاً قبل التضحية بي ليحيا ومريمة بسلام، فهو ابتكر مسألة إغوائي بفتاة جميلة، وقد استحسنت الفكرة إحدى الأميرات وتدعى شوق، فاستدعت الساحر الكهل وجعلته يجول في قصور صنعاء لينتقي فتاة ذات مواصفات فريدة، لكنه لم يجد امرأة فاتنة مغوية تمتاز بالذكاء والقدرة على تمثيل الدور، ثم فجأة رأى فتاة تطل من نافذة قصر الأمير محمد بن القاسم، فأشار إليها بالبنان، وسرعان ما جلبها الجنود إليه، كانت لديه صلاحيات واسعة من الأمير الأكبر نفسه، أن يختار الفتاة،

وهي لن تستطيع الرفض، كما لن يجرؤ والدها على التلكؤ في تسليمها للقيام بدور المغوية، لأن الأمير الأكبر أكد هذا الأمر في اجتماع العائلة الأميرية، وقد عرض بناته أمام الساحر الكهل، لكن التعالي والصلف صفات غير مستحبة في البنت المختارة، كانت معظم فتيات الأمراء والوجهاء الجميلات يفتقدن للرقة والفطنة، لكن تلك الفتاة بمجرد أن رآها وهي تتبسم لشخص ما داخل فناء القصر قال في نفسه: وجدت بغيتي، هذه هي.. كانت هذه الفتاة بالمصادفة بنت الأميرة شوق، بحيث امتعضت أمها وكرهت أن تكون ابنتها هي الفتاة المختارة، لأنها تعلم أن ابنتها المدللة ستذهب وحيدة بصحبة ساحر كهل مدة غير معلومة متقمصة دور راعية، وقد تتزوج بالفتى القذر الذي تريد العائلة الأميرية إخضاعه، لكن الاختيار وقع عليها، بحيث قبلت الأميرة شوق ذلك مرغمة.

في البداية راق للفتاة المراهقة أن تقوم بدور غريب تحاكي فيه فتاة راعية فقيرة من بنات العامة. كانت كاملة إضافة إلى جمالها فتاة ذكية متحمسة تحب المجازفة، ظنت أنها ستقوم بعمل جميل، تمت تغذيتها منذ صغرها بمعلومات كثيرة عن مدى خطورتي على مستقبل العائلة الأميرية والبلاد، لهذا جاءت إلى هضبتي وهي تؤمن أن ما تقوم به هو عمل جليل يشبه عمل المقاومين الذين يدافعون عن أوطانهم وأرواحهم ضد هجمات المحتلين، مع مرور الوقت باتت تتصورني شخصاً ذا وجه قبيح تومض عيناه بالشر وتبرز من فكيه أنياباً حادة إلى الخارج، ورغم حماسها بالإيقاع بعدو عائلتها وبلادها، ظلت تبكي طوال الطريق إلى الهضبة، لأنها لم تكن تظن أن بوسعها احتمال وجهي البشع وروائحي الكريهة، ظلت تسأل الساحر الكهل بغيظ: لِمَ علي أن أقترب من ساحر شرير قذر من أجل إيقاعه والقبض عليه؟ ألا توجد وسيلة أخرى لاصطياده دون الحاجة إلى اقترابي منه؟ كان يجيب على تساؤلاتها

بأن الجنة فرشت بالأشواك كما يقول رجال الدين، وأنها ستكون أعظم وأشهر امرأة في البلاد، بل وأعظم من كل الرجال الذين عجزوا عن القبض على هذا الساحر الشقي، وهي في سبيلها لتنقذ بلادها وعائلتها من الساحر الشرير ومن غضب الأمير الأكبر على حد سواء، كان هذا يخفف عنها بعض الاغتمام، حين رأتني لم تصدق عينيها، إثر ذلك تبادلت الحديث الغامض الملغز مع الساحر قاسم الوضري الذي مثّل دور الجد الغيور بإتقان لا يضارع، كانت نظراتها تقول له إن هذا الفتى لا يمكن أن يكون ذلك الرجل الشرير المطلوب الذي يهدد بلادها وعائلتها الأميرية على وجه الخصوص.

كانت تشير إليّ بما يوحي إلى أني أبدو فتى ساذجاً، لم تجرؤ أن تقول صراحة بأني أبدو طيباً ومسالماً أيضاً، لعلها في أعماقها رددت كلمات محظورة لم يكن ليُسمح لها بالتفوه بها في حضور الأمراء من عائلتها، أولئك الذين يؤمنون بكل ما جاء في وثائق المستكفي قبل قرون، أحس الساحر الكهل أنها بدت بدافع الفضول تهتم كثيراً باستكشاف حياتي، أخذت تتأمل ملابسي الرثة، وتميمة الأطفال الغريبة التي أحملها وقررت أن تجرب لبسها، ثم ظلت بعض الوقت تحاول الابتعاد عني بعد أن احترق صدرها، لكنها لا تلبث أن تعود إليّ، كانت حجتها التي قدمتها للساحر الكهل أنها جاءت لغرض الإيقاع بي وإغرائي، وهي لن تستطيع أن تفعل ذلك دون أن تقترب مني إلى أقصى حد، بدأ هو ينصحها بعدم الانجرار إلى اللقاءات الكثيرة والثرثرة، ظل يقول لها – هكذا اعترف الساحر الكهل قاسم الوضري – إن الحب يتسلل مع الألفة كما يتسلل الماء بين الأصابع، ثم لاحظ أنها غدت تتأخر مستغلة تقمصه دور الأعمى، بحيث لا يستطيع أن يجري خلفها ليردعها، كما لم تواته الجرأة ليرفع تقريرا للإمارة بأن الأمور تجري على عكس ما

خُطط لها، لكنه بالأخير حذرها - بالإشارات الغامضة - بأن تحتفظ بجسدها سليماً لحين يتم الزواج، أظهرت قبولها بهذا، لكن ما لبث بعد ثلاثة شهور أن سمعها تتقيأ، ومن ثم عرف أنها خالفت تحذيره، إثر ذلك دار بينهما حوار طويل غامض، كانا يفعلان ذلك عن احتراس، إذ كانوا يدركون - من والدي - أن لدي مهارة التقاط الأصوات القريبة والبعيدة التي تدور حولي، كانوا مبالغين في حذرهم على كل حال، لأني لو سمعت ما يوحي بما يخططون له، لن أكترث، بل سأدعي الجهل حتى النهاية، لكن ما يحز في نفسي أن كل شيء بدا حقيقياً، لقد أجادا التمثيل أيضا، واعتبراني ساذجاً، رغم أنني كذلك، لكن الفتاة كما يقول الكهل كانت أيضاً ساذجة تميل إلي، كان قلبي الشديد الاحتراس يؤكد ذلك، ولا يدق نذير الشؤم في نفسي حين اقترب منها، لا أدري بعد ذلك ما حدث، هل تواطأت تميمتي الحارسة مع الفتاة؟

صارت كاملة رغم رقتها تتمتع بنزق ما، شعرت بثقل ضغط الكهل عليها، لم أكره شخصاً في حياتي كما كنت أكرهه، باتت رفيقتي تنفخ في وجهه بغضب، وها هو يخبرني أنها حذرته بأن الرقابة على تصرفاتها ليست من اختصاصه، وأن عليه أن يلتزم بتنفيذ دوره، وهي الأخرى تقوم بدورها بالطريقة التي تجدها مناسبة، أوعزت الماكرة إليه إن الخصم، وهو أنا، كثير الشكوك، ثم لوحت في وجهه بثقة بأنها مجبرة أن تمنحني جسدها لتخفف من حدة ظنوني ونفوري منها، وأنه مادام المطلوب منها أن تنتزع مني التميمة الحارسة، فإنها في طريقها لتفعل ذلك، ولا يهم نوع الطريقة التي تستخدمها في التعامل معي، حقا لقد بالغت في تصوير حرني وتصلبي، لأني كنت لها ألين قياداً من حصاني، كان بوسعها أن تجرني إلى المحرقة بإشارة من يدها، ولعل أكثر مدة عمدت إلى خصامي كانت عشرة أيام، كان كل منا متورطا بأفكاره الخاصة

ومشاعره المضطربة، حتى الكهل انغمس في دوره حتى بات يظن أنها حفيدته فعلاً، صار يغار عليها ويكرهني بشدة، فكر في أكثر من مرة أن يقتلني حين كان يحس أن هناك ما يجري من وراء ظهره، لكن ها هي تضحك على الجميع وتختفي دون أن تودعه أو تترك وراءها ذرة أسف لما سيلحق بنا من أذى، ذهبت منتصرة لتصبح أشهر شخص في الإمارة، وسوف تكرم بألقاب كثيرة، ويسك وجهها خلف وجه الأمير الأكبر على الريال الأميري، في حين تركتني والساحر الكهل تحت الشجرة نهدر وقتنا المتبقي في الثرثرة العقيمة، في انتظار قدوم الجنود، أنهى كلامه قائلاً بسخط:

ـ لقد خدعونا يا بني، وقضوا على معلمك الساحر الشهير، ولن ينجو منهم ساحر في هذه البلاد.

ـ في الحقيقة كنت مدركا ومستسلما للسعادة والحب بحيث رميت حياتي في كفها دون اكتراث، وقد قدمت لها تميمتي الباهظة كهدية في يوم زواجنا..

ـ دعك من هذا الكلام السخيف عن الحب، أتظنهم يعرفون ماهية الحب، إن الناس مجرد نعال وقذارة في عيونهم، دعنا نتحالف ونقاتلهم جميعا.

بات يوعز لي أن نقوم بتجميد الجنود القادمين، ونستخدم تعاويذنا الطيارة ونموت واقفين، بدا جاداً رغم أني لم أشعر ناحيته بالثقة، راح ينظر إليّ بعينين تسحان الدموع الغزيرة، لم يكن في نفسي رغبة في المقاومة، كنت منهاراً، وناقماً على نفسي، شعرت أنني صرت مرة أخرى بلا هدف أو أمل، طلبت منه أن يغادر إلى قريته إن شاء، لكن الساحر الكهل ظل متشبثاً بموقعه تحت الشجرة، زاعماً إن خمسة وسبعين عاماً من عمره أمست زائدة عن حاجته، أمدني ببارقة أمل كاذب بأنه سيظل إلى جانبي ليشفع لي،

ويظهرني في عين الأمير الأكبر بأني شخص غير عدواني، وليس لدي أي نزوع نحو السلطة، وأني سلمت تميمتي الشريرة التي كتبها ساحر مجنون في زمن غابر، ولم يعد هناك ما يخشون منه، في هذه اللحظة سألته عن أسباب مخاوف أولئك الناس مني، وعما أشكله في نظرهم من تهديد على الناس، طلبت منه أن يمدني بما خفي عن علمي من تلك الأمور الغامضة، اندهش بفعل هذا السؤال ورد صارخا بسخط:

ـ أولا تعلم بما يدور حولك؟ لعل كاملة على حق حين حسبتك ساذجاً لا تستحق كل ذلك الاهتمام.

ـ نعم، لا أدري ما يدور، كيف لي أن أعلم؟

إذ ذاك حدثني عن الوثائق القديمة التي تبشر بقدومي، كان هذا يزيد من ألمي، لا أدري ما كنت سأفعل لو أدركت ذلك من قبل، لكن صعب علي أن أدرك أنني خطير وشرير إلى تلك الدرجة، وأكون آخر من يعلم، قلت كازاً على أسناني بحقد:

ـ أوقعت بي رفيقتي في الهضبة، لا أصدق ذلك.

ـ إنها زوجتك.

صحت في وجهه بحنق:

ـ لا تقل ذلك ثانية أيها الوغد.

ـ نعم، عندك حق في ذلك، إنها من سلالة شيطانية رغم رقتها وجمالها.

صرت صامتاً لا أحتمل مزيداً من الكلام، والكهل يثرثر دون توقف كأنه يكلم جذع شجرة التالق.

***

حين رأيت الجنود قادمين كفكفت دموعي بسرعة، أتوا مصوبين أسلحتهم إلينا، نهضت وقدمت إليهم يدي، فوضعوا القيود فيهما، ورفعوني على ظهر حصاني الأبيض، أوثقوني بالسيور المتينة، وساقوا الكهل مصفداً أيضا، أخذونا بعيدا عن الهضبة، كانت المدافع تضرب وترج الأرض معلنة القبض على أخطر ساحر مطلوب في تاريخ البلاد، وارتفع النداء من أعالي الهضاب القريبة موجهاً بشكل صاعد نحو يريم، كنت أعرف أنه لن يمر قليل من الوقت، حتى يصل نداء القبض علي إلى صنعاء، إلى الأمراء والأميرات وإلى رفيقتي في الهضبة، كنت أقول لنفسي محاولاً عبثاً حبس دموعي الغزيرة التي تفلت غصباً من عينيّ: فلتهنأ بانتصارها، ولتكن أشهر امرأة في الأرض، لا أكترث بذلك.

يا لألاعيب القدر البغيضة! انضم إليّ أقاربي أسرى، راكبين فوق بغال وحمير، مكبلين على ظهورها في حال مزرٍ من الحزن، رأيت أبي ومريمة راكبين على بغلين، حتى طفله الصغير موثقا فوق جحش يناسب عمره، كذلك شقيقاتي الأربع، كان حصاني في المقدمة يضفي بركة على الموكب أو بالأحرى لعنة من نوع ما، وقف أهالي قاع الحقل على الطرقات بحشود عظيمة يتفرجون ويقذفونا بالشتائم وبقايا الطعام وهم يصرخون بتشفٍ:

ـ اقتلوا السحرة، إنهم سبب انحباس المطر عن قاعنا الخصيب.

كنت أقول وأنا أنظر إليهم باحتقار وحنق: هؤلاء الأوغاد حضروا حفل عرسي، كانوا ينظرون إلي بغيرة واحترام، أعرف أن الناس في بلادي متقلبون كالطقس والفصول الأربعة، يسيرون بعد الكبير،

والكبير يسير بعد العامل والعامل يسير بعد أمير اللواء، وهذا الأخير يتلقى التعليمات من أمير البلاد، لا أدري وراء من يسير هذا الحاكم، لعله يسير وراء الشيطان الأكبر، مؤمنا بوثائق أجداده البالية.

في يريم خرج الأهالي ليشتموني، نظر إليّ العامل وضربني في خاصرتي بقبضته القوية، لم أسمع ما كان يدور بينه وبين قائد الجند من حوار خافت، أظنه كان يحثه على الإسراع ونقل انطباع حسن عنه إلى الأمير الأكبر، زغردت نساء المدينة ونحن نمشي في شوارعها القذرة الضيقة، وشيعنا الأهالي إلى هضبة المرايم، ثم وقفوا هناك والعامل حتى اختفينا خلف التلال الصغيرة، استقبلتنا حشود قرى كومان ووادي الحار وعنس مبتهجين بالقبض على ساحر شاب لا يعرفون عنه سوى ما قيل لهم عن شره وضرره الكبير بالبلاد، وهكذا ظلت تلاحقني نظرات الازدراء، بينما الجاويش قائد الجند يلقى حظاً كبيراً من نظرات الإعجاب، كان يرتدي ملابس تميزه عن أفراد سريته الخمسين، يسير فوق حصانه الداكن بخيلاء، مبتهجاً بالغنيمة الدسمة التي يحملها إلى محرقة الأمير، سمعت أصوات الأهالي في قرى لواء ذمار وهم يصيحون بشماتة واحتقار:

ـ ضعوه في المحرقة، إن من علامات اليوم الآخر أن يظهر الدجال من يريم مرتديا جلد خروف.

في منطقة مرام سمعتهم يهتفون:

ـ يا جاويش، نار ذمار أكثر تأججاً من نار صنعاء، لدينا محرقة هنا، ومن كذَّب جرَّب.

تبسم الجاويش واكتفي برفع ذراعه شاكراً، لأن هذا العرض قد يجره إلى أبشع العقوبات لو اتخذه من دون إذن مولاه أمير البلاد، أخذوا يلحون قائلين بظرفهم الذي أرهق نفسي في ظل هذا الوضع المزري:

ـ إلى محرقة مرام، هيا لا تتردد، محرقة ذمار تسقط الطيور التي تحلق عالياً في السماء.

أجاب الجاويش الذي كان هو الآخر من لواء ذمار قائلاً المثل المحلي المعروف:

ـ نار صنعاء ولا جنة ذمار.

فأخرسوا بعد ذلك ولم يسمع منهم أي همسة صوت، كانت الشمس تكوي جسدي المثبت بانحناء على ظهر الحصان، لحسن حظي أنني لم أشاهد في تلك الوضعية وجوه الناس الشامتة والمبتهجة، سرنا ببطء حتى مالت الشمس عن الرؤوس، كان جبيني يتفصد عرقاً، بقيت أفكر في حال الأسرى الآخرين لاسيما أخي الصغير الذي لا يتوقف عن البكاء، من حين لآخر أسمع صرخات أبي المهددة المتوعدة، وهو يخاطب الجنود والجاويش المتبختر، إنهم سوف يندمون على اعتقاله، فهو رجل شهير يعرفه كل الأمراء، ولا يجهله الأمير الأكبر نفسه، كذلك صوت مريمة وهي تطالب بمعاملة طفلها بإنسانية تليق بالبشر لاسيما المسلمين الذين يزعمون أنهم أصحاب فضائل وأخلاق عالية، لكن لا أحد يرد عليهما، وصلنا رصابة قبل مغيب الشمس بقليل، احتشد المتسوقون عند مداخل السوق، حفوا حول حصاني ينظرون إليّ بفضول، لم أكن أر سوى أقدامهم، زجرهم الجاويش المتكبر الذي كما ظننت يريد أن يكون محط الأنظار، تمنيت أن نواصل المسير، لكني رأيت أثناء انكبابي على ظهر الحصان قدمين مخضبتين بنقش الحناء،

تكهنت أنهما للفتاة اليهودية حمامة، فاسودت الدنيا في وجهي، وقلت لنفسي بأمل: ليست هي، هناك نساء يتخضبن بالحناء. لكن القدمين اقتربتا مني حتى رأيت قماش ملابسها وتضوعت رائحتها، أمسكت رأسي وسمعتها تهتف بفجيعة:

ـ هذا الدرويش الشاب، ماذا فعل أيها الجاويش؟

كانت تخاطب الجاويش الذي بدا متساهلاً معها ومعروفاً من قبل، قال بصوت متضخم رنان:

ـ إنه ساحر خطير مطلوب منذ زمن طويل، وقد تمكنت من القبض عليه بيسر.

ثم أضاف يخاطبها:

ـ جهزوا النُزل، إننا منهكون، سنبيت عندكم هذه الليلة.

انصرفت الفتاة، وتقدم الموكب نحو النزل القديم، سمعت الجنود يطردون النزلاء من الغرف، ويحتلوها، حتى لم يعد هناك من غرف للأسرى، فاقترحت لوزة أن نبيت داخل خيمة على السطوح، فوافق الجاويش المتغطرس، ومن ثم نصبت لنا خيمة فرشت بلحف وحصائر رقيقة قديمة، ولم نزود بأغطية، لكن لوزة استطاعت أن تستخدم مهارتها في الإغراء ومنزلتها كصاحبة النزل، بحيث راحت ترشو الجنود حول الخيمة بالوجبات والكلام المعسول حتى تمكنت من كسب ودادهم، وصارت تدخل وتخرج إلى خيمتنا بأي ذريعة، قذفت إليّ لحافاً صوفياً، وقدمت لي وجبة عشاء دسمة مختلفة عن وجبات الأسرى الآخرين، ثم جلست قربي هامسة بفجيعة:

ـ ماذا فعلت يا مجنون؟

همست باكتئاب:

ـ لا أدري، لقد رسمت أقداري بواسطة أشخاص قدماء مجانين يحسبوني أشكل خطراً على البلاد والأمراء، هل تصدقين ذلك يا لوزة؟

ـ لا، لا أصدق ذلك!

ـ وأنا أيضاً لا أفهم شيئا، الأمر ملتبس وغريب، لكن هذا ما حدث، وهؤلاء هم أقاربي، أبي وشقيقاتي.

قالت بصوت خافت بعج قلبي نصفين:

ـ اسمع، هناك شيء يتحرك في بطني، وأنت لا تجهل ما يعني ذلك، أنا حامل بجنين منك.

قلت هامساً بفجيعة:

ـ جنين!

ـ آه، أنسيت ما حدث في غرفتنا؟ سأموت على أيدي اليهود.

ـ اسمعي يا لوزة، لا تضاعفي همومي، أنا معاقب، ولا أظن أنني سأنجو، عليك أن تتزوجي قبل فوات الأوان، أو افعلي أي شيء آخر، أرجوك، لا تحقدي عليّ، لو كنت طليقاً لن أجد امرأة أشهى منك، كنا سنتزوج ونقيم في أي مكان.

تأثرت وسقطت دمعتان من عينيها وقعت على ظاهر كفي، ثم تسللت يداها، وشدّت على يدي، وهي تقول مازحة بأسى:

ـ أيها الماكر، أنا عاجزة عن فعل شيء من أجلك، عليك أن تتذكرني على الأقل، سأتزوج بيهودي يلاحقني منذ زمن طويل.

ـ بوركت يا لوزة، أتمنى أن أراك إن قدر لي النجاة.

بكت وانصرفت، تأثرت كثيراً، مسكينة هذه المرأة، إنها تكبرني بأعوام، لكنها تبدو صادقة مثل أم تشاهد فتاها يقاد إلى المحرقة، دون أن تستطيع إنقاذه، ظل أبي يزن ويئن ويتهم الجنود بالمحاباة، لكنه لا يجرؤ أن يخاطب اليهودية لوزة بفعل وجود مريمة إلى جانبه رغم رغبته في التودد إليها، على الأقل ليحظى ببعض الامتيازات، رأيت ذلك في عينيه، ثم صب عجزه وحقده على رأسي قائلاً:

ـ كنت أحسبك فتى نقياً بعيداً عن النساء، لكنك تبدو زيراً كبيراً.

لم أقل شيئاً، نابت عني مريمة بالجواب إذ قالت بتهكم:

ـ الولد سر أبيه.

صمتنا، كان قلبي يتآكل حقداً على الجميع، فكرت أنهم اشتركوا في تلك المهزلة لتظليلي وإيقاعي في مصيدة الأمراء، على الأقل كانوا سيكفون عن معاملتي بذلك الجفاء والبغض، يا لهم من جبناء وأوغاد، ها هم مثلي يساقون أذلاء، لا أدري ما هو مخبأ لنا في الغيب، لكن يبدو أن الوغد الأكبر أعد العدة لتمزيقي وقتلي ببطء كما فعل مع معلمي، لا أدري أي قلوب حجرية يحملون! لم يذوقوا سوى النعيم وبحبوحة العيش، لم يصبهم أي عناء، لم يجربوا أصغر إجهاد يصيب الفلاحين في الحقول والعمال في الأبنية والجنود في المواقع، لم يخدش لهم ظفر، ولم تغرز شوكة في باطن أقدامهم، يظنون أن العذاب والألم هما جزء من العمل المناط بهم، وهو الحل الشافي لجميع مشاكلهم وأحقادهم، يا لهم من طغاة! جلس أبي يتململ في موضعه يئن من البرد والآلام التي تحدثها القيود في قدميه، قال بعد أن فتك به صمتي:

ـ سعد، سامحني يا بني، لقد أجبرت على ذلك.

لم أنطق بحرف واحد، كان صمتي هو جواب شافٍ لما يتأجج في داخلي من حنق على البشر أجمعين. فأضاف وأسنانه تصطك:

ـ قل شيئاً يا بني، اشتمني، العن آبائي وأجدادي، لك الحق في فعل كل شيء ماعدا البقاء في حالة صمت تام.

حين لم أنطق بأي حرف صرخ بشدة:

ـ عليك اللعنة يا سعد، لم أسعد يوماً منذ رأيتك، هل تدرك ذلك أيها الوغد اللعين؟

دخل الحارس، وركله على رأسه، قائلا بسخط:

ـ نم أيها العجوز، أنت تثرثر كثيراً.

نام أبي، أو غشي عليه إثر الضربة، سمعت مريمة وشقيقاتي ينشجن بأصوات مختنقة، فقلت لنفسي: الناس يبكون في الأوقات التي يصبح فيها البكاء بلا جدوى.

في الصباح جلب لنا الفطور، واختلست لوزة مني قبلة شحنتني بالعزاء عن البغض الذي ألمسه في وجوه الآخرين، ثم خرجنا تشيعنا لعنات أهالي رصابة، ودعوات لوزة وحمامة كانت تطغى على كل البغضاء، لكن هذا كان خارجاً عن المألوف، لأن لوزة كانت تمثل ذلك الحب الأمومي الذي لم أشعر بشيء آخر سواه، لعلها تمنت أن ترزق بطفل مني يشبهني يعوضها عن فقدي، طارت بنا الخيول والبغال والحمير، واستقبلنا الأهالي في أرجاء القرى بالشتائم، وهتافات الحرق والتمزيق، صعد النداء من القلاع القريبة نحو صنعاء: "السحرة قادمون في الطريق مكبلون بالقيود كالعبيد العاصين لأسيادهم".

جاء الرد بضرورة السرعة، فأسرع الجنود يضربون الحيوانات التي تحملنا، فكانت الأحصنة تخب، لكن البغال والحمير كانت أقل سرعة، سمعنا أصوات لهاثها وصفير أنوفها كما لو كانت تحرث وسط حقول متماسكة التربة، ما جعل الخيول تنتظر لتساير سرعة الحيوانات البطيئة، ألهبت السياط أجسادها، ولامست أجسادنا، صرنا نصرخ ألماً والجاويش المتبختر يقول بصوت صارم:

ـ أنتم أيها الأوغاد تحاولون إبطاء سيرها بأسحاركم، إن لم تفكوا السحر عن أجساد المواشي ستنالون أشد العقاب.

نزلت علينا السياط، فكان أبي يصرخ من الألم ويقول مشيراً إلي وإلى قاسم الوضري:

ـ لست بساحر، ليس هناك سوى الفتى وذلك الكهل.

زاد الضرب علي وعلى الكهل المسكين، فلجأ إلى تعويذة تليين القلوب، فأمسى الحراس يعاملوننا بلطف، ويمشون ببطء رأفة بالحيوانات، ولما دنا البغل الذي يحمله مني قلت له هامساً:

ـ أيها الشيخ، لو قرأت هذه التعويذة على الأمير ربما تغير الحال.

نظر إلي بغيظ وأجاب:

ـ أنت ساذج حقاً، لن تؤثر في جسده أي تعويذة، لأن الكراهية والحقد مختلطان في دمه، ناهيك أن لديه سحرة يرافقونه، مازال هناك كما أعلم عيروط والفاطمي ونور الدين وحمقى آخرين سوف يبطلون ما نصنع.

ـ سيحرقهم في نهاية المطاف.

ـ أعرف، سيفعل ذلك، عائلاتهم في قبضته.

في قرية ضاف نصبت خيمتنا للمبيت والنوم، تكورنا على لحف ممزقة، وأكلنا ما جاد به السكان المحليون، خبز بائت خشن لم ينزل إلا بصعوبة وتحت ضغط الجوع، بحيث جرح حلوقنا، وأصاب بطوننا بالمغص، جلسنا دون أغطية، وحين جن الظلام غزتنا الحشرات الصغيرة كالبق والقمل والكتن التي خرجت من بين شعيرات اللحف القذرة، قضينا الليل قاعدين، نهرش أجسادنا حتى نز الدم منها، ناهيك عن البرد الذي يفتك بالعظام، لم نستطع التبرم لأن الجنود كانوا يوسعون الشاكي ضربا وركلا بعد أن انتهى مفعول تعويذة الكهل، عند الفجر صعدنا باتجاه المدينة وخلفنا وراءنا الهضاب الكبيرة المحيطة بصنعاء، نعست على ظهر الحصان، أفقت حين ظهر سور المدينة، ارتعدت عظامنا ووجفت قلوبنا حين رأينا المآذن تبرز كأنياب الوحوش، كانت حشود الأهالي تظهر كالجراد على سطوح المنازل، كما امتلأ البر المحيط بالبوابة بحشود هائلة من الجنود والعربات والمدافع، لاحظت زيادة عدد مواقع وملاجئ الحراسة على السور القديم، كذلك ازدادت عدد المآذن بالمدينة، ظهرت وجوه الناس مكسوة باللحى الطويلة، والقمصان المسترسلة إلى الكعبين، حتى وجوه المراهقين والصغار كساها الوقار والحزن والقسوة، أخيرا تجلى ذلك الوجه المتكلف للأمير متوحشاً مكسواً بالشعر الكث الأصهب، لمعت عيناه الخبيثتان الحادتان كعيني الصقر الصيَّاد، كان في يده كرباج يهزه بتوتر واضح، كانت معظم الوجوه المتجهمة التي رأيتها في المرة الماضية حوله، أوقفونا أمامهم، وجثا الجاويش المتبختر بخنوع قرب قدمي الأمير الأكبر قائلا بصوت صغير خانع:

ـ الأسرى المطلوبون أيها المبجل.

اقترب الأمير الأكبر مني وضربني بخشونة على ظهري، وهو يقول بتهكم:

ـ أهلاً بالأمير سعد.

صحت بامتعاض:

ـ ماذا تريدون مني؟

صاح الأمير الناصر متلفتاً حوله باستغراب:

ـ انظروا هذا الأحمق يظن نفسه جاهلاً بما يدور.

صمت قليلاً ثم أردف:

ـ هناك بيان سوف أقرأه بنفسي على الشعب، حتى لا يظنون أنني أقوم بقتل وتعذيب الآخرين لمجرد الاستمتاع برؤية الدماء والرؤوس المقطوعة والأجساد المحروقة، هذا ما تقوله منشورات البلدان البعيدة الواقعة خلف البحار، رغم ذلك هم الذين يصدرون لي الأسلحة وأدوات التعذيب.

عب الهواء ملء رئتيه وتابع:

ـ هذا أمر مشروع، لقد تزودت بفريق متخصص وآلات عجيبة للتعذيب، رأفة بالجلادين الذين ينهكون، لن يكون هناك دماء مقززة، سيكون هناك ألم محض، وكل هذه الخبرات استوردتها من هذه البلدان البغيضة التي تنتقد حكمي وحزمي.

ـ ماذا اقترفت أيها المبجل؟ صحت

ـ وهل أنتظرك حتى تزيل سلالتي وعائلتي؟ ثم إنك سحرت عينيّ وجئت متنكراً وقتلت عدوي.

ـ هذا صحيح، لقد حررت معلمي العجوز من آلامه، أنت تتلذذ بالتعذيب أيها الأمير، وهذا لا يجوز.

ـ اسمع، لن أبدد وقتي في محاجَّتك، ذنوبك سوف يسمعها الناس، وسيقرأ القاضي الشرعي الحكم عليك، كما ترى أنا رجل مؤمن لا أتصرف وفق هواي كما يتردد عني.

ـ هذا خطير أيها الأمير، الآلام تجر إلى الكوارث.

صاح في وجهي بنزق:

ـ لا تتكلم أكثر أيها البغيض، ألم أكن رحيماً حين بعثت للإيقاع بك أجمل الأميرات، وعملت لكما زفافاً لا نظير له على نفقتي الخاصة؟ لقد عشت عاماً من الهناء والسعادة، لكنك عبثت بطهرها وغرست فيها ثمرة قذرة منك، ما كان يجب أن يحدث ذلك.

مكث قليلاً يتحرك ويهز الكرباج بقلق ثم أردف بصوت شق قلبي إلى نصفين:

ـ الآن عليك أن تفسخ زواجك بالأميرة كاملة، لأنها لا تريدك.

قلت باضطراب:

ـ لا، لن أفسخ زواجي، لقد غدرت بي ولا ألومها.

ـ هل تظن أنها ستظل في عصمتك أيها الحثالة؟ إنها من سلالة طاهرة شريفة.

ـ البشر سلالة واحدة، ملونين فقط كالخضر والفواكه.

ـ بالتأكيد، نحن كالتفاح والمانجو، وأنتم كالثوم والفلفل وأبشع أجناس الحمضيات التي لا تؤكل.

أطلق الرجال الذين حوله قهقهات مصطنعة قوية، فنهرهم مضيفا:

ـ اسكتوا، أنا لا أمزح، اجلبوا الفتاة لتفسخ عقدها بهذا الشاب المتحذلق.

انبعجت روحي حين أدركت حضورها، لم أكن أرغب في رؤيتها رغم توقي الشديد إلى ذلك، كان التفكير بغدرها يكاد يقتلني، وحين أحاول أن أتلمس لها الأعذار، لا تطاوعني نفسي لاعتقادي بأنها تحتقرني، رغم ذلك بقيت مرتبطا روحيا بحبها، لكن هذا الأمير المتسلط قادر على إجبار الجبال على ترك مواقعها والتحول إلى مواضع أخرى، كنت أعرف ذلك، كان يحز في نفسي أنني بالفعل جنس غريب بعيد عن هذه السلالات الأميرية التي يظن أنها مميزة، أعرف أن ارتباطي بأميرة لا يمكن أن يحدث في الأحلام، وقد لعنت اللحظة التي وقعت عيناي عليها، وتمنيت لو كانت تلك الفتاة متعجرفة وغير رقيقة، لا أدري حقا، ربما تكون متعجرفة، لكن اضطرارها إلى القبض على عدو عائلتها جعلها تبدو ملاكاً.. انقطعت أفكاري حين أتت الأميرة كاملة تحف بها أميرات صغيرات مراهقات، بحيث تضوع المكان رائحة وجودها.

بدا الأمير متضايقاً بسبب جمالها العاصف ولفتها أنظار الرجال، كان مضطرا لتطبيق الفسخ على رؤوس الأشهاد، لم أرها للوهلة الأولى، لكني أحسست بحضورها وروحها تحلق في الأثير المحيط بي، كانت الدموع تشكل غشاوة على عينيّ، عجزت أن أتخلص منها رغم إيماني أن هذه الفتاة لن تكون من نصيبي، فأنا لا أستحقها لأني لست من عالمها المترف، أما مسألة السلالة الطاهرة التي يتشدقون بها فلا أهتم بأمرها، ولعل ما يقوم به هذا الأمير اللعين يدع الشياطين يبدون أكثر طهرا ونزاهة، كنت أحاول أن أصرف ذهني عنها بأي حال، لكنها أتت ووقفت أمام قاضي الشرع، لا

أدري كيف كان وقوفها، لحسن الحظ استطعت أن أتخلص من الدموع، مسحتها بأناملي بسرعة، وحل موضعها لهيب مؤلم تعذر علي أن أزيله، كانت توليني ظهرها، واقفة بانحناء لا أدري أهو بفعل الخجل من ارتباطها بشخص مثلي، أم لغرابة الموقف الذي وجدت نفسها فيه؟! سألها القاضي الشرعي بصوت عالٍ:

ـ هل تطلبين فسخ زواجك من سعد بن سرحان الطحّان؟

ترددت قليلاً، ثم قالت بصوت خفيض:

ـ نعم.

لم أسمعها، نظر القاضي إليّ، وحين رآني غير مندهش خاطبها:

ـ ارفعي صوتك يا بنيتي حتى يسمعك الزوج.

صاحت بصوت أرفع قليلاً:

ـ نعم.

ـ أكملي يا بنيتي حتى يكون كل شيء واضحا للجميع.

ـ أطلب الفسخ.

سمعت صوتها الصغير، ليس فيه أي حرارة أو حماس، بعد أن دون القاضي إفادتها على الورق، كتب اسم شاهدين قفزا من الحاضرين إلى أمامه، ثم انصرفت الأميرة بخطوات سريعة ناكصة رأسها، ولم تلتفت إلي، كأن دورها انتهى عند هذا الحد. لقد تخلصت من مهمتها لتكون أشهر امرأة في البلاد، داخلني شعور بالحزن والخذلان لم أشهد له مثيلاً من قبل، تمنيت أن أكون وحيداً لأطلق لمشاعري العنان، أن أصرخ وأبكي كما يحلو لي، أما هناك فلا مجال لإظهار الحزن، كان الجميع ينظرون إلي ويضحكون

محاولين استثارتي واستفزازي، أشحت وجهي بعيداً وأرجأت التفكير بهذا إلى وقت لاحق فيما لو كنت قادراً على التمسك بأعصابي، توقعت أيضاً أنها أجبرت على الزواج والفسخ، ليس لها خيار في كل ما جرى، مثل الكثيرين، وإن كان هناك شخص يمكن أن يلام فهو أنا، لا شك أن تعذيبي جاء بالفعل نتيجة حتمية لمخالفات وسوء تدبير متلاحق، كان قلبي متورماً، بحيث عجزت عن إخفاء الوجوم الذي افترس وجهي قسراً، لمحت البغض الذي ظهر في وجه الأمير الأكبر، لعله شعر أنني نلت أكثر مما أستحق من تقدير، والآن تم فسخ عقد قراني من أجمل أميرة في سلالته، لكن ذلك لم يشفِ غليله، عرفت أنه قادم على اتخاذ مواقف متصلبة قاسية ضدي، لقاء سعادتي وتمتعي بشيء لم يكن علي أن أقاربه، لم أعد أكترث، في تلك اللحظة كنت أتمنى الموت للجميع، وأنا في مقدمتهم، قطع الأمير الأكبر أفكاري صارخاً بثورة:

ـ اسمع أيها اللعين، لا يبدو أنك مكترث بأي شيء، سأرمي عائلتك في المحرقة بتهمة السحر حتى شقيقك الصغير.

عوت مريمة نائحة مثل كلبة جريحة، وشهق أبي بفظاعة وراح يرفع ذراعيه في الهواء طالباً الرحمة، قلت له بثورة مماثلة:

ـ افعل ذلك حالا، قدم لي معروفا، احرقهم أمام عينيّ، لأنهم خانوني وغدروا بي، أرجوك افعلها، احرق أيضا جميع الأهالي، لا تبق أحداً في هذه البلاد.

صاح أبي بانفعال:

ـ اللعنة عليك يا سعد، لقد عرفت أنك تكرهني، لهذا وشيت بك ومهدت السبيل للقبض عليك، أنت أكبر غلطة عملتها في حياتي.

صاح الأمير بعصبية:

ـ اسكتا عليكما اللعنة.

أجبرنا الجنود على الصمت، فتابع الأمير:

ـ أنا من يقرر هنا، وقاضي الشرع، ولن أفعل ما يفرحك.

ثم نظر إلى الجنود وأردف آمراً:

ـ ارفعوا النداء إلى عامل يريم أن يزيل قرية سرحان من الأرض، وأن يضم أملاكه للأوقاف، واخلوا سبيل جميع الأسرى.

صاح والدي بانهيار:

ـ لا لا، قريتي، أملاكي، لقد ابتعتها من حر مالي، ما هكذا الاتفاق أيها المبجل.

سلب الجنود من أبي خنجره الباهظ الثمن الذي يفخر به على الناس، ونزعوه عن الفرس البيضاء دون مقاومة، ورموه جانبا مثل خرقة بالية، فاستلقى على الأرض دون حراك، وهبت مريمة لمساندته، وشقيقاتي، ولم أرهم بعد ذلك، لأن الأمير الأكبر أمر الجنود أن يجلبوني إلى الباحة، كانت الأذرع والأقدام والرؤوس المقطوعة طرية على الجدران، وكأنه الأمس القريب، الجديد المتغير في الساحة هو إضافة بناء مسجد صغير قرب السور بقباب خضراء وأربع منارات عالية مطلية بالنورة البيضاء، ارتفاعها لا يتناسب مع حجم المسجد الصغير الذي بني من أجل الجلادين وجنود المحرقة الذين يحبذون أن يقيموا الصلوات في مواعيدها، ناهيكم عن ظهور حديد ناصع على سقالة المحرقة، وبكرات حديثة وسيور من النايلون الملون، كما أزيحت بعيداً عن جدار السور حتى لا يتلطخ بالسخام الأسود الذي ينجم عن حريق الأخشاب، وقفنا بينما صعد الأمير وقرأ وثائق جده المستكفي، كان الألوف من

الرجال محتشدين في الباحة وعلى سطوح المنازل المطلة على الباحة، فيما ظهرت أجساد النساء مغلفة بالملابس السوداء يقفن بخوف في الزوايا البعيدة والنوافذ المواربة، كن أيضا يسترن وجوههن بقطع سوداء من القماش، يبدو عليهن الخجل والاحتشام الكاذب، فقد غدا عدم ظهورهن على الرجال عرفاً دينياً سارياً في عهد الأمير الناصر.

أتت حشود إضافية من جميع المناطق المجاورة للمدينة، فقد أطلق المنادون نداء القبض على أخطر ساحر في الأرض، ذاك الفتى الساحر الذي بشرت به الوثائق القديمة، وصلت للتو مجاميع غريبة ضخمة من المتفرجين أغلقت منافذ الشوارع والأزقة القديمة، وساد الزحام والصراخ والتهليل والتكبير والشتائم، ولم يعد أحد يسمع ما يقولون، لكن ذلك لا يخرج عن طلب إحراق الساحر، والتخلص من شروره، لكن الأمير خيب آمالهم وقرر تعذيبي مدة طويلة لأذوق الآلام التي كنت سأخلفها في ذريته فيما لو استطعت أن أفنيهم، وذلك جزاء عادل على تدميري المحتمل للبلاد والناس، أجاز هذا القرار القضاة الشرعيون المتسربلون بمعاطف سوداء والمكللون بعمائم خضر مميزة، كان هذا أغرب حكم يصدر ضد إنسان على جرم لم يتحقق، والأدلة التي ساقوها وعرضوها للشعب كانت عبارة عن وثائق من ورق البردي القديم توشك أن تتحلل بفعل البلى، لأجل ذلك قادوني إلى حيث كان معلمي مصلوباً، هناك رأيت مدفعا ايطاليا يسير بواسطة إطارات مطاطية، ظننت في البداية أنهم خدعوني وسيطلقون علي النار بواسطة ذلك السلاح الجبار، كان عنقه طويلاً يساوي ارتفاع السور، سرعان ما انضم مدفع ثانٍ وتوقف قرب الأول بحيث صار العنقان متوازيين مائلين، شدوني بالسيور الملونة من ذراعي إلى العنقين، حتى صرت أتأرجح في الهواء، شعرت أن ذراعي سينسلخان بفعل ثقل جسدي

الضاغط عليهما، إثر ذلك خرجت فرقة الجلادين من غرفة جانبية صارت سكناً لهم، أمسى هناك مطبخٌ قريبٌ وطبَّاخون يطبخون وجباتهم، كان بمعيتهم كلاب شرسة مربوطة بسلاسل طويلة، كادت أن تقفز لتمزق جسدي لولا أمسكوها بسواعدهم المتينة، ما لبثوا أن أخرجوا أدوات عجيبة من كراتين، أغلبها من الحديد، قضبان تنتهي بخطاطيف وكلابات ودبابيس حادة وسكاكين صغيرة عجيبة وكمّاشات وعصي غريبة ومقامع وسياط مظفورة وخناجر وأدوات أخرى مجهولة، كانت أشكال الرجال مخيفة لحاهم طويلة مقوسة وأنوفهم تنفخ كأنوف الثيران، يتكلمون لغات مجهولة، عرفت فيما بعد أنهم مرتزقة من البنغال وروسيا وأفغانستان، تلقوا تعليمهم في أقسى السجون والمعتقلات الشرقية، بمجرد أن خرجوا سمح للناس بالنظر إليهم، فازدحموا في ذلك المجال الضيق حتى اضطر الجنود إلى إطلاق قذيفة هاون في الهواء.

شعرت بقلبي يقفز للأعلى مثل كرة مطاطية، صرت ارتعش كسنبلة تهزها عاصفة، إثرها فر الناس وسط الأزقة وتبخروا، أصبحت الباحة خالية من المتفرجين، بقي فقط لفيف من الجنود، والجلادون الآسيويون الذين كانوا خمسين رجلاً ضخام الأجساد، يلتهم أحدهم خروفاً مشوياً دون أن يتجشأ، أدركت أنهم اختاروا هذين المدفعين العملاقين لجعلي لا أغمض عينيّ، لا أدري كيف فطنت إلى ذلك، لن أطيل شرح آلامي ووسائل تعذيبي لأن عيونكم لن تكتحل بالنوم، فقد صاروا يضعون في جسدي أجهزة سمعت الجنود يطلقون عليها اسم الكهرباء، عرفت لاحقا أنها تضيء الشوارع والمدن في البلدان الأخرى، لم يذق معلمي شيئاً من العذاب، مقارنة بما ذقت، في الأيام الأولى صارت صرخاتي تبلغ مسامع السكان في صنعاء، وتيقظهم من سباتهم العميق، راح الأطفال يتشبثون برعب في ملابس أمهاتهم، صاروا يشتكون من

صيحات ألمي، ويطلبون من الأمير الأكبر إخمادي، ليهنئوا نومهم، لكن الأمير الأكبر لا يعير نومهم أي اهتمام، لأن تلك الصرخات كانت مصدر سعادته وابتهاجه، ظل الأمر كذلك حتى رأيت ملاك الموت يقترب مني ملوحاً بكفيه طالباً من روحي الاقتراب، لكن الخبثاء طلبوا إيقاف التعذيب ريثما يعتنون بجروحي، راح الناس يأتون بعيون وارمة يتفرجون على حجم الفتى الذي كان يطلق ذلك الصوت الهادر، لا يجدون أمامهم سوى شاب متوسط الطول، خُلع جلده وقشط بالأجهزة الغريبة، ونتفت أجزاء من لحم فخذيه وعنقه وبطنه، وأزيلت أظفاره، واقتلعت معظم أصابع قدميه وكفيه، سمعتهم وهم يداووني يهمسون بصوت خافت ويقولون إن الأميرة شوق طلبت العائلة للاجتماع لمناقشة أمري، طلبت من الأمير الأكبر إخماد أنفاسي من أجل راحة البال، لأنهم لم يعودوا يستطيعون النوم بسبب الصراخ، لكن الأمير الناصر ظل يردد الآية القرآنية: "كلما نضجت جلودهم بدلناهم بجلود غيرها ليذوقوا العذاب" ارتفعت أصوات جريئة تخاطب الأمير بصراحة إن العذاب انتقل إلى مضاجع نوم أطفالهم الذين رأوني منتوف اللحم كديك تم فرمه، صاروا لا يستطيعون الأكل، باتت بطونهم تلفظ ما يدخل إليها، لقد أوضحوا له إنها مسألة بقاء، وإنهم في طريقهم إلى الموت وأطفالهم، استمر الحال حتى نهض محمد بن القاسم والد كاملة، ومد كفه بعنف إلى وجه الأمير الناصر مهدداً.

***

ذات يوم فر أحد البنغاليين حاملاً صوراً مرعبة لجسدي صورها بكاميرا خاصة لا يعرفها الجنود المراقبون، وهناك باع الصور بثمن باهظ لإحدى الصحف الغربية الكبيرة، فانتشرت تلك الصور

في أرجاء الأرض، وتم إيقاف صفقات الأسلحة التي وقعها وزير الحربية المحلي مع بعض دول أوروبا، ووصلت الرسائل من كل البلدان تطالب بإيقاف ذلك العمل المخجل الذي لا يليق بالبشر، وقد تكلم الأمير الهارب في إحدى الصحف الكبيرة عما يجري في بلاده، بحيث عرف الناس أن هناك حروب أخرى وحشية تدور ضد أجساد السجناء، وبعثت بعض المنظمات كثيراً من التوصيات السرية إلى الأمير الأكبر بشأن المعتقلين مرفقة بصوري.

عقب هذا تم إيقاف عمل الجلادين بضع شهور وسمح للناس بزيارتي، أقبل الأطفال الفزعون، ورأوني، لم يضحكوا كما كانوا يفعلون حين يشاهدون الأطراف البشرية المبتورة والرؤوس المكشرة، لقد رأوا بقايا إنسان عالق على عنقي مدفعي هاون، رغم ذلك مازال يتحرك بضعف شديد، لا أظن أن امرأة لم تزرني خلال الأعوام الأولى ماعدا كاملة، سمعت أصوات التعجب من أفواه النساء: "انظري مازال يتحرك".

في العام الأخير الذي قضيته في الباحة جاءوا أسراباً، وخصص للنساء ميقات العصر إلى المغرب، شممت رائحة كاملة ورفعت رأسي كما لم أفعل منذ أمد طويل، لا أعرف كيف تنبهت حواسي إليها رغم أنها جاءت متنكرة، لكني لم أنسها لحظة واحدة، وقع نظري عليها كخنجر حاد، فصرخت ووقعت على الأرض منهارة، كانت قد أصبحت امرأة في الثلاثين من عمرها، وجهها منقوش على الريال الأميري الهابط القيمة، لكنها لم تتزوج بعد، ظلت ترفض عروض الزواج الكثيرة، أقبل ساعتها الجنود وضربوني بالسياط كأنني اقتحمت حجرة إحدى الأميرات، لكن الأميرة شوق أمسكت أيدي الجنود، صارت امرأة كبيرة مهيبة في الخمسين من عمرها، عرّفت عن نفسها قائلة: "لا تضربوه، أنا الأميرة شوق،

إنه يوشك على الموت". خافوا أن أموت، ويتعرضون للعقاب، لأن الأمير الأكبر يريدني حياً.

أخذوني بعد أن شفيت وزالت جروحي الظاهرة إلى بدروم أرضي في أحد القصور الأميرية، أراد الأمير الأكبر إبعادي عن العيون بسبب الضغوط التي يتعرض لها، أشاعوا أني هلكت، وقاموا بدفن جثمان متشرد مجهول في مقبرة مهجورة قديمة خارج المدينة، لكن ما لبث الناس أن سمعوا صيحات ألمي المهيلة، كان البدروم ـ موضع تعذيبي الجديد ـ قريباً من قصر الأمير محمد بن القاسم، ومن ثم عادت مشكلة الأرق والسهر تناقش في اجتماعات العائلة الأميرية، تم تحويلي إلى كثير من الأماكن، ثم أعادوني إلى ذلك البدروم، كان ذلك المكان هو أنسب موضع يحبذه الأمير الناصر، فهو قريب من قصره، وبوسعه أن يسمع صراخي كلما عن له ذلك، الشيء الآخر هو أنه بات يخشى فراري، وحبذ أن أكون محاطاً بالحراس، لا أعرف ما يجعله يخشى فرار سجين معذب شبه ميت، مضت سنوات أخرى تطورت فيها تقنيات المعلومات لدى الأمير، صار لديه أجهزة تنصت يدسها في قصور الأمراء والأشخاص الذين يخشى منهم دون أن يشعروا، كما زودت حجرة تعذيبي بكاميرات مراقبة وتصوير.

أصبح الأمير الأكبر أكثر حذرا من المنظمات العالمية التي اكتشف أنها غدت مؤثرة، وأن بوسعها أن تفرض على بلاده قيودا تجارية أو عقوبات، أمرهم أن يسدوا فمي بشرائط لاصقة، وراح يتفرج على مشاهد تعذيبي دون الحاجة إلى أن يسمع صوتي، راح ملاك الموت يتردد علي في أوقات متفرقة، لكنه يعود خائباً حين يهرع الخبثاء لإنقاذي، صرت أناجيه متوسلاً أن يأخذ روحي، لا أدري بما كان يجيب علي، لكني ظننت أنه كان يقول لي كل مرة:

روحك في كف الأمير الناصر، توسل إليه أن يطلقها لتغادر جسدك. صرت أكلم نفسي وأقول رداً على خطابه الوهمي: لا أستطيع أن أكلمه لأنني لم أعد أستطيع النطق منذ زمن طويل، ألست المتحكم بالأرواح كما يزعم المؤمنون الأوباش؟ لِمَ روحي فقط في كف هذا الرجل؟ لا مجيب، حتى ظننت أن الملاك الرهيب أمسى في قبضة هذا الأمير الطاغية.

أدركت أن لا أمل لي ولا منجى من العذاب، عرفت أن ذنوبي عظيمة تفوق ذنوب معلمي بمرات عديدة، لحسن الحظ فقدت عامل الزمن، وفقدت الإحساس بالألم، بدأت خلايا جسدي تموت بالتدريج، وما عاد يتحرك في جسدي سوى قلبي الصغير، راح النتن يصعد من لحمي الأحمر المكشوف، وبدأت نذر الموت تزورني وتبشرني باقتراب الخلاص.

٦

بدأ القدر يصفي بعض حساباته القديمة مع أشخاص أحببتهم وغدروا بي، لكنها للأسف اختارت الأشخاص المفضلين لدي، فقد عاد الأمير محمد بن القاسم إثر مراسلات ووعود من الأمير الناصر بتغيير نهجه في الحكم، ظل عشرين عاماً متنقلاً بين البلدان الأجنبية، بدأ بتشكيل نوع من المعارضة السياسية، لكن نواياه الحسنة بالتغيير الطوعي جلبته إلى بلده، كان يظن إن الإصلاح السياسي سيكون أقل كلفة إن بدأ الحاكم بتنفيذه على أحسن وجه، استقبله الأمير الأكبر متظاهرا بالسعادة، فانتظر عاماً دون أن يتحقق شيء ملموس، ثم ثار ثورته الأخرى في وجه الأمير المتغطرس، لكن هذه المرة قبض عليه الجنود وسيق مصفداً بالقيود، كمتآمر يسعى لقلب نظام الحكم، أظهر الأمير الناصر شريطاً مصوراً يقول فيه الأمير محمد بن القاسم إن القوانين التقليدية والعرفية والدينية يجب أن تزول لتتطور البلاد، هذا كل شيء، سرعان ما أعدم بالرصاص الحي عند سور المدينة أمام زوجته وبناته وأولاده، فجأة وبينما جسدي يذوي نحو الموت، عادت إلى عنقي التميمة المفقودة، فارتد إحساسي إلي، فتحت عيني الوحيدة التي غفل عنها الجلادون الأجانب أو أبقوها عمداً لأرى أدوات تعذيبي، لم أر شيئا رغم أن أحدهم كان يمسك سراجا في يده، ويخاطب شخصا ما قائلا:

ـ أرجوك أيتها الأميرة، غادري فوراً، سنتعرض للعقاب.

سمعت صوت امرأة ترد بتدلل:

ـ هذه زيارتي الأولى، دعني أتأمل هذا الساحر البغيض، أريد أن أبصق في وجهه، أرجوك، انتظرني في الخارج.

ـ لكنك وضعتِ شيئا ما في عنقه، وهذا أمر مريب.

ـ ألا يحق لي أن أسخر منه قليلاً وهو عدو العائلة؟ هيا، انتظر في الخارج.

سمعت قرعات حذاء الجاويش وصوته وهو يقول محذراً:

ـ حاذري أن تقومي بقتله، الأمير الأكبر يريده حياً.

ارتد إلي إحساسي، وارتدت إلي التعاويذ والذاكرة نوعاً ما، لكني جهلت الأميرة التي غدت كبيرة في السن، كما جهلت سبب وجودي في هذا المكان المعتم، فقلت بوجل:

ـ من أنتِ؟ وأين أنا الآن؟

لم تتكلم، كانت تحاول تحريري من القيود، وهي تبكي بمرارة، كانت يداها ترجفان، أخيرا اكتشفت أن القيود مزودة بأقفال ثقيلة، سمعتها تقول بيأس:

ـ المفاتيح لدى الجاويش اللعين، ماذا أفعل؟

شعرت بوجود قيود في قدمي وذراعي، لم أشعر بها حتى سمعت صليلها واحتكاكها بالأرض، فقرأت تعويذة تكسير القيود، فأصبحت مقطعة في كفيها، قالت بفرح:

ـ ها قد عادت إليك مهاراتك، هل تستطيع أن تفر بنا من هنا؟

ـ من أنتِ؟

أجابت باكية:

ـ أنا الأميرة كاملة، لقد احتفظت بالتميمة وادعيت أنها فقدت، أرجوك سامحني، لم أعش يوما بهناء منذ فارقتك، كان صراخك يقتلني كل لحظة، وها قد عوقبت بفعل خيانتي لك، وأعدم أبي بالرصاص قبل قليل.

ـ هل أعرفك من قبل؟

ـ رباه، لا تتذكرني! لا يهم، دعنا نغادر أولا، هل تستطيع أن تجمد الجنود حتى نفر من المدينة؟

أظنها ـ إن لم تخني الذاكرة ـ ساعدتني على النهوض، قادتني بيديها المخضبتين برسوم الحناء، حدث هذا في ظلام قاعة خالية من النوافذ تقع تحت أحد القصور الأميرية الكثيفة الحراسة، ساعدتني حاسة التميمة الحارسة على تمييز بعض الأشياء والتخبط في السير، خلفنا الحرّاس وراءنا مجمدين واجتزنا فناء القصر، كما جمدت الجنود المحيطين بالبوابة، سرنا في الشارع والصراخ خلفنا شديدا، صعب عليّ إبصار أي شيء بفعل بقائي سنوات في العتمة، أخذتني وسط أزقة ملتوية لتظلل المتعقبين، أخذت تقول إن المدينة تحتوي على بضعة أبواب للخروج، وأن بوسعنا أن نسير نحو أبعد الأبواب التي لا يتوقعها أحد، هناك يتحتم أن أجد طريقة للهروب، أظن أني طلبت منها أن تقودني إلى خارج السور عبر أقرب باب، لأني لا أحتمل السير، كان يغطي جسدي المعذب العاري دثاراً صوفياً ملطخاً بالأوساخ، صرت أشم روائحه الكريهة، كما تضوعت رائحة الأميرة الزكية، وروائح أخرى متباينة محلقة في الجو، كانت الأميرة تلف جسدها بستارة ملونة تلبسها نساء العامة لاسيما كبيرات السن، سمعت الناس يشيرون إليّ ويقولون بإشفاق مخاطبين الأميرة:

ـ ماذا حصل لهذا الشيخ المسكين؟

لم تكن تجيب عليهم، البعض اقتربوا وقدموا إلى يدي بعض البُقش كصدقة، فكنت أرميها، لأني غير معتاد على لمسها منذ زمن بعيد، همست في أذني قائلة بسخط:

ـ لا تقذف ما يقدمه لك الناس حتى لا تثير الشكوك، إن صورتي منقوشة عليها.

قلت بنزق:

ـ يحسبونني شيخاً مريضاً.

ـ أنت كذلك.

ـ أنا لست شيخاً.

قلت ذلك باستنكار، ردت علي بصوت حاد خافت:

ـ ألا تستطيع أن ترى جسدك؟ عشرون عاماً قضيتها معذبا.

ـ الضوء يطفئ نظري.

قالت مخففة من حدة نبراتها:

ـ كيف نستطيع الفرار مادمت بهذا الحال؟

ـ لا عليك، لدي تعويذة الأرض المنطوية، اخبريني حين نخرج من المدينة.

سمعتها تقول أن بوابة الخروج غدت قريبة، ويتحتم أن أتظاهر بالهدوء، سرنا قليلا، وفجأة توقفت قائلة بفجيعة:

ـ يا ويلي، الجنود ينتشرون أمام البوابة بكثافة ويفحصون الناس بأنظارهم.

قلت بصوت فاتر:

ـ لا يهم، سأقرأ تعويذة التخفي، قوديني دون أن تصدري صوتا.

قرأت التعويذة، وطلبت منها أن تسير، وبالكاد وافقت، لم تكن واثقة أننا في وضع التخفي، ساقتني وجسدها يرجف، وكادت أن تصطدم بالجنود، في النهاية وصلنا إلى مكان هادئ شعرت فيه بحرارة الشمس تلفح جسدي، هناك قالت بارتياح:

ـ نحن خارج السور الآن.

شكرتها قائلا بسذاجة:

ـ هل ستعودين إلى المدينة؟

صاحت بكدر:

ـ كلا، سأذهب معك، ألم أخبرك بذلك؟ لا أستطيع البقاء هنا، سأعدم بالرصاص.

ـ لا بأس، تشبثي بجسدي، سنمر على مراحل، لا أدري أين سنتوقف.

مكثت أقرأ تميمة الأرض المنطوية، صرخت الأميرة وهي ترى الأرض تتحرك تحت أقدامنا ونحن ملتصقان بثبات، أوشكت أن تمزق لحم جسدي الضعيف العاري بأظفارها الحادة، أرخت قبضتيها بعد أن طلبت منها ذلك، سرعان ما أمتعها الأمر، بدأت تشرح لي ما حدث، والأرض تجري بنا دون توقف، راح عقلي يستعيد بعض الذكريات الأليمة المشتتة، ظهرت لعيني السليمة بعض المناظر السريعة للجبال الجوفاء مموهة كالأطياف، في المرحلة الأولى وقفت بنا الأرض تحت نقيل يسلح، مِلْنا إلى ظل شجرة، وأغاثنا فلاح ببعض اللبن والخبز البايت بعد أن شكوت له من الجوع، رفعت الخبز بطريقة ما إلى ثغري المفتوح، لكني

عجزت عن تحريك فكيّ الخاليين من الأسنان، أخبرتني الأميرة كاملة بذلك، طلبت منها أن تقطع الخبز وتلوكه حتى يصبح عجينة لينة، فصاحت في وجهي بامتعاض:

ـ ماذا تقول؟ هذا الخبز يبعث على الغثيان، ولن أضعه بين أسناني.

قلت بعجب:

ـ لكني أراه شهياً، أشهى من أي طعام آخر.

ـ هذا لأنك أكلت ما هو أسوأ منه، لقد أطعموك البراز والديدان والصراصير، وشربت البول ومياه البرك الراكدة الخضراء و...

مالت جانباً وجعلت تتقيأ وتبكي، فقلت باهتمام:

ـ لا أذكر ذلك، كيف تعرفين؟

ـ كانوا يوافون أمي بجميع الأخبار، كنت أسمعها تتحدث إلى أبي، كان هذا يجعله غاضباً مهتاجاً، المسكينة لا شك أنها تتمزق حزناً وألماً.

صحت بشكل مفاجئ:

ـ أرى طيفك يتحرك.

ـ هل تراني بوضوح؟ سألت بفرح.

ـ لا.

ـ هل تذكرني؟

ـ أذكرك، أنت رفيقتي في الهضبة.

صرخت بجنون:

ـ أيها المحتال، ذاكرتك تعمل، لكنك لا تذكر إلا اللحظات السيئة.

ـ بل أستطيع أن أتذكر كل شيء، لكني لا أريد ذلك.

أضفت باغتمام وفي نفسي خوف شديد:

ـ هل هناك شيء تريدين إخباري به ؟

ـ نعم، ثمرتنا أسقطت قبل نضوجها، ركلوني في بطني، لقد بكيت بشدة، وتمنيت أن أخبرك، كما أني لم أتزوج.

حزنت كثيراً، وقلت باهتمام:

ـ ألا تطعميني الآن؟

أخذت تمضغ الخبز بتأفف، وتقدم لي العجينة اللينة، فشعرت ـ والحق يقال ـ كأنها غمست بالعسل المحلي، كنت أراها بكثير من التركيز تصرف نظرها بعيداً، كان هذا يدفعها إلى التقزز، قلت بضيق:

ـ أتتأففين مني؟

ـ ليس منك، لو كنت أتأفف منك لن تجدني بجانبك، لأن جسدك يدعو إلى التأفف حقا..

ـ لا أتأفف من خبز الفلاحين، انظري، إنهم يكدحون ويدفعون الزكاة إلى الخزينة، ويأكلون مثل هذا الخبز السيئ ليعيش الأمراء ببحبوحة.

أحسست بوجومها فقلت مضيفاً:

ـ لا يهم، لن نتخاصم من أجل خبز الفلاحين.

شربت الحليب، وهي صامتة تتحرك بقلق وخوف، فاستأنفت:

ـ لا تقلقي، كل شيء على ما يرام.

ـ كيف لا أقلق وأنت ستقضي على عائلتي!

ـ أي عائلة تقصدين؟ لقد قضى الأمير الناصر على والدك، وسيقضي على الجميع.

ـ أنت محق في ذلك، هيا بنا ننجو بأنفسنا.

قمت بصعوبة وشرعت أتلو التعويذة، فسارت بنا الأرض مرة أخرى، شرعت أنظر خيال الحقول الخضراء على جانبي قاع جهران، وقفت بنا الأرض في ضاحية جرداء، رأيت ظلي على الأرض غريبا، بدأت أشعر بألم شديد في أرجاء جسدي، كانت القروح تملأني، لم نجد في المكان الذي وقفنا عنده أي شجرة، فالحقول لا تصنع ظلاً، وصادف أن كنا قريبين من سوق رصابة، أمسى شكله مختلفاً حين اقتربنا منه، صار واسعاً محاطا بمبانٍ وعمارات مبنية بالحجر والاسمنت، تجوب شوارعه مركبات عديدة محملة بالناس والبضائع، أشرت على الأميرة كاملة أن تأخذني لأتداوى في نُزل اليهوديتين إن كان مازال قائماً، مضت تسندني حتى رأينا النُزل.

تغير شكل نُزل لوزة، لم أره بشكل واضح، لكن وقع قدميّ على الأرض أكدت لي ذلك، بدا الفناء مرصوفا بشكل جيد، وخيال النوافذ مختلف والواجهة الأمامية، رغم ذلك كانت لوزة في موضع استقبال القادمين، رأيت خيالها، تغيرت كثيراً، هذا ما ظننت، اعترضت طريقنا كما يعترض تاجر بخيل طريق شحاذين يدخلون إلى حانوته، قالت بجفاء:

ـ ماذا تريدان؟

قلت بارتباك:

ـ موضعاً نأوي إليه قليلاً من الوقت.

ـ هل تستطيعان دفع عشرة ريالات أميرة؟

كان ذلك مبلغاً كبيراً، لكن الأميرة كاملة كانت تملك المال، نثرت أمام لوزة عشرين ريالاً بتعالٍ وكبرياء لم يعجبني، لم تقل شيئاً، فقالت لوزة تخاطب الأميرة كاملة متذرعة لصرفنا:

ـ سامحاني، نسيت أن أخبركما إن جميع الغرف محجوزة.

صرخت الأميرة كاملة بغضب:

ـ كيف تقولين ادفعا ثم تتراجعين؟ أتظنين أنَّا غير قادرين على الدفع؟

هتفت لوزة بصوت متلعثم:

ـ في الحقيقة أخشى أن يكون مرضه معدياً، لأن النزلاء لا يحبون أن يناموا في غرف نام فيها المرضى.

قلت بانكسار:

ـ هذا أنا يا لوزة، الدرويش.

صمتت قليلاً كأنها تتذكر، ثم هبت من موضعها بفزع، واقتربت مني وهي تقول بلا كلفة:

ـ أين كنت منذ عشرين عاماً أيها الأحمق؟ إنك تبدو عجوزاً، ظننتك هلكت.

ـ كما ترين، لقد نجوت، أنا الآن على قيد الحياة.

قامت لوزة تتحرك وتصيح باهتمام، ظهرت حمامة بملابسها اليهودية، وفي حجرها طفل، فطنت أنها تزوجت، خاطبتها لوزة وهي تبكي:

ـ الدرويش سعد ها هنا يا حمامة، ضعي طفلك جانباً وتعالي نفرش له غرفتنا.

ـ حقا؟ أنا قادمة.

سألتني الأميرة بغيرة واضحة:

ـ هل تعرف اليهوديتين من قبل؟

ـ منذ زمن طويل.

عادت المرأتان، ودعوننا للصعود خلفهما، قالت لوزة أنها ستسخن الماء، وتجلب المناشف والمراهم، اضطجعت بالغرفة العلوية ذاتها، مازالت تفوح منها الروائح الزكية كما عهدتها، لكنها صارت واسعة مبنية بالآجر، بعد قليل من الوقت ظهرت لوزة، جعلت تغمس المناشف النظيفة بالماء الساخن، وتدعك طبقة من الأقذار لصقت على جروحي، كنت أصرخ بألم، غدت راحتاها خشنتان، ظلت الأميرة كاملة صامتة واجمة تراقب ما يحدث بارتياب ولا تحرك ساكناً، اقتربت لوزة من فخذي، فضغطت الأميرة على الدثار، ونظرت إلى المرأة باستهجان، كمن يقول لشخص ما: أين تذهب أيها المجنون؟ لكن لوزة كانت مخلصة في عملها، فقالت ناظرة إليها بحنق:

ـ أنا طبيبة، ولا يحق لك إعاقتي عن عملي، ثم أنني أعرف هذه المناطق التي تخشين منها.

حملقت الأميرة كاملة إليّ باندهاش، وارتخت أناملها، ما أتاح للوزة أن تواصل عملها بلا اكتراث، مضت تقول بتقزز وهي تتوغل في ذلك الموضع الذي نال حصة كبيرة من الأذى:

ـ لقد عذبوك الكلاب، وا مصيبتاه، كيف يفعلون هذا بإنسان كان في ريعان شبابه؟

صاحت الأميرة كاملة:

ـ أنت تنظرين إلى الفرج بلا حياء.

ـ يا لك من مغفلة! لم يعد هذا فرجاً، لقد أضحى جحراً للفئران، ثم من تكونين حتى تقفين في وجهي؟

ـ لا تتكلمي معي بهذه الطريقة أيتها اليهودية، اسمي منقوش في العملة التي تلمسينها طوال الوقت، لِمَ لم ترحلي مع من رحلوا من اليهود؟

ـ هذه بلادي ولن أرحل عنها بأي حال.

قلت بيقين:

ـ آخ، هذا صحيح، إنها بلادنا جميعا، أرجو أن تتوقفا عن الصراخ، أنا أتألم.

نظرت إليّ الأميرة كاملة بعينين ناريتين، فأغمضت عينيّ متوجعا، كانت لوزة مثارة تدعك جروحي بشدة، ثم أضفت بسخط:

ـ توقفا عن الصراخ، أنا رجل ميت.

في تلك الوهلة جاء صوت شاب كبير:

ـ أمي، أمي.

ـ تعال يا بني، أنا أداوي جروح هذا الرجل.

ظهر الشاب، لا أدري كيف فز قلبي من موضعه حين رأيته، نظرت إليّ لوزة والدموع تتراقص في عينيها، وبالكاد قالت:

ـ اسمه سعد، ظننت أنك لن تعود، أسميته باسمك رغم معارضة شمعون، فهذا الاسم غير مألوف لدى اليهود.

مددت ذراعي إليه، ففزع من شكلي وخرج، نظرت إليه الأميرة كاملة وهتفت بفجيعة:

ـ رباه، إنه يشبهك، أنت خائن حقير.

خرجت مهرولة، ولم أكترث، فرحت لوزة وقالت بانفعال:

ـ من تكون هذه المرأة المتعالية التي تخفي وجهها خلف النقاب؟

ـ إنها الأميرة كاملة، هي من أوقعت بي ومن أنقذتني.

سكتت لوزة ممتعضة، وراحت تدعك بقوة، فسألتها باضطراب:

ـ أهو ولدي؟

أجابت بغيظ:

ـ وهل تظنه ابن الجيران؟

ـ الحياة ظالمة حقيرة، لا شك إنه ينتمي لرجل آخر.

ـ إنه كذلك، كان شمعون مرتابا حين وضعته بعد سبعة أشهر من الزواج، بالكاد اقتنع أن هذا يمكن أن يحدث.

في تلك الوهلة صعد النداء من أعالي الهضاب بالقبض على الفارين، رجل جريح وأميرة ترافقه. اندهشت لوزة، لكنها لم تتوقف، كانت تضع المراهم على الجروح حين عادت الأميرة

كاملة مرتاعة، لم يمنعها الخطر أن تبعث إلى غريمتها رسالة مغيظة، كشفت نقابها متذرعة بإعادة ترتيبه، فظهر جمالها الناضج المربك، وانسدلت خصلات شعرها الحريرية الرمادية بتمرد مثير على طول متنها، ضغطت لوزة بقوة فوق خاصرتي وهي تقول بنبرات حادة:

ـ ها قد انتهينا، الآن صرت شبه إنسان، تذكر الفتى دائماً، فهو جزء منك، بقي عليك أن تخرج بملابس لائقة.

قذفت لي ملابس غليظة من شغل اليهود تخص زوجها شمعون الذي لا أعرفه، ولا أريد أن أسألها عنه، انصرفنا، رأيت الشاب سعد عند المدخل واقفا وقفة رجل حقيقي، لم أر شكله كما يجب، لأن نظري مازال مشوشاً ضعيفاً، تقت إلى الوقوف عنده ومحادثته عن كثب، لكن الأميرة كاملة دفعتني بعيداً خارج الفناء متذرعة بالعجلة، كانت أشعة الشمس تؤذي عيني الوحيدة وتصيبها بالعمى، اضطررت أن أضع معصمي سقفاً يحميها من الوهج اللاذع، أخذت الأميرة كاملة تتحدث بنزق عن حظها السيئ في الارتباط بشخص مخادع مثلي، له في كل سمسرة ونُزل خليلة أو خليلتين وأطفالا، سألتني عن الشاب، وعلاقتي ولوزة، وكم أملك من أبناء الزنا، أوضحت لها إن ذلك كان قبل أن أراها في الهضبة، وأنه تم دون تخطيط أو عاطفة حب حقيقية، لم تحب أن تسمع القصة، في الخارج ملنا إلى موضع هادئ خلف السوق، وهناك قرأت التعويذة، فانطلقت بنا الأرض، وقطعنا مرحلتين إلى الهضبة، في ضواحي قضاء يريم نبهتني مريمة إلى حشد من الرجال يقفون فوق هضبة صغيرة تطل على المدينة، أدركت أن النداء وصل إلى هناك، وأن العامل في انتظار مرورنا، دق في أعماقي مؤشر الخطر، ما يعني أنهم فطنوا إلى عبورنا.

٧

وصلنا مع وصول قذائف الهاون، أو ما كنت أطلق عليها بسذاجة اسم الكرات النارية، صاحت الأميرة كاملة بغيظ:

ـ ما أغباني! أتيت معك لأنجو، وها هي القذائف تتعقبنا! كان يجب أن أسألك عن جدوى عودتنا إلى هذا المكان البغيض.

كنا مختبئين في تجويف شجرة التالق الضخمة التي عجزت الفؤوس أن تنال منه، لأني عززته بتعويذة الصلابة الكبرى التي لا تزول، ظلت القذائف تسقط حولنا وتثير غباراً هائلاً، حزَّت كلماتها الأخيرة في نفسي، وجرحتني في الصميم، فقلت لها بسخط عجزت عن تخفيف حدته:

ـ أتيت برفقتي للنجاة بنفسك، أليس كذلك؟

ردت باضطراب:

ـ هناك سبب آخر، لكني غاضبة منك ولا أريد أن أفصح عنه.

امتلأت نفسي بالغرور فقلت:

ـ لا تخدعيني ثانية، إن أردت النجاة وتخافين من عواقب رفقتي، سأخفيك في مكان آمن لن تكتشفه الشياطين وأحيطك بالتعاويذ. ثم أصارعهم وحدي.

قالت بغيظ مخفف:

ـ لا تتهمني بالخداع، لقد كنت مجبرة في كل شيء حتى حين طلبوا مني فسخ الارتباط بك.

ـ هل مازلنا مرتبطين الآن؟

ـ أظن ذلك، لا أدري حقاً، لكني عقدت العزم على إنقاذك منذ ذاك، لم تسنح الفرصة إلا هذا الصباح حين انشغلوا بوالدي، أرجو أن تسامحني.

لم اقتنع بجوابها المراوغ، كنت أريد أن أكسر من حدة غرورها واعتدادها بسلالتها التي تظن أنها شريفة مميزة، فقلت بكدر حقيقي:

ـ لا أريد جواباً مراوغاً أيتها الأميرة، أريد أن أعرف هل تنتمين إليّ أم أني لا أليق بشرف سلالتك؟

صاحت بحدة:

ـ صحيح، أيها الدرويش الأحمق، لازلت زوجتك، لقد أحسست ناحيتك بالارتياح مذ رأيتك أول مرة في الهضبة، لم يكن مطلوباً مني أن أتزوج بك، لكني فعلت ذلك.

ـ أريدك أن تعلمي أنك لست أميرة في صحبتي، أنت هنا كاملة وحسب.

ذعرت ثم انتبهت أنها بالفعل لم تعد كذلك، إنها الآن جواري في الهضبة، وعليها أن تضحي باللقب، تبسمت وقالت:

ـ هذا صحيح، أنا كاملة، لم يعد للقب أي معنى، أنا سعيدة هكذا، سأكون أسعد حين نتجاوز هذه المحنة.

ـ الآن لا أبالي بقذائف المدافع وبالجنود، نستطيع الإفلات منهم، لن أدع الناصر يمس شعرة من رأسك بأذى.

كنت فرحاً للغاية، متأهبا لأقاتل جيوش الأرض قاطبة مادامت إلى جانبي، انزعجت حين قالت:

ـ هناك طائرات حربية بات يملكها الأمير الأكبر، وسيوجهها إلى هنا لقصفنا، إنه رجل معتوه لا يتراجع، لا فائدة، سنموت.

احترت، ودق في نفسي نذير الخطر، أيقنت أن تعاويذي لن تصمد في وجه هذا الطاغية وآلياته الحربية، كل شيء سيحارب في صفه، البشر والحجر والحديد، كل شيء، فجأة ارتد إليّ بصري وإدراكي في تلك اللحظة، حينها فقط اكتشفت أنني فقدت أهم أعضائي الحيوية، أذناي، إحدى عيني، أسناني، وشفتيّ، انتبهت أخيرا إلى جسدي، رأيت التشوه الكبير الذي لحق به، لم يعد لدي من أصابع يدي ورجلي سوى الإصبع الوسطى في كفي الأيمن، تم الإبقاء عليه لسبب ما، ربما ليذكرني بما كان لدي من أصابع، أو تركوه ليبدو كطفل عاجز نجا من كارثة نفق فيها جميع أفراد عائلته، لم تخبرني كاملة أو لوزة بدافع من الشفقة، يبدو أن بصري ووعيي وخدري تحالفت على تظليلي.

كنت سعيدا بخروجي، وهذا جعلني غافلا عن الأضرار المريعة في جسدي، لا أدرك متى أتلفوا أعضائي، شيء واحد لازلت أتذكره جيدا، وهو حين أوشكوا أن يقطعوا ذكري، حدث هذا في أول مراحل التعذيب، أرادوا قطعه لأنه اندس في فرج أميرة من العائلة الشريفة، لحسن الحظ أن إحساسي عاد في اللحظة التي جذب الجلاد العضو بشماله الخشنة، في حين أمسك بالأخرى مدية تبدو مسننة لكي تترك ألماً فظيعاً، قرأت عليهم تعويذة الإيهام الكبرى السريعة، وهيئ لهم أنهم أزالوه من منبته، مازالوا يعتقدون ذلك حتى اليوم، فعلت ذلك وأنا أجزم أني لابد أن ألقاها مرة أخرى، ليس بوسعي أن آتي دون هذا الزائدة التي لن تتحمل أي امرأة أن تعيش معك دون أن تراها.. غضبت كاملة بشدة حين سمعت مني هذا الكلام البغيض، ادعت أن هذه الزائدة السخيفة

ليست ما يدفعها للجري خلفي، لأنها رفضت الزواج من أمراء كثر ربما يملكون زوائد أكبر من زائدتي، لكنه أمر آخر في أعماقها يدفعها إليّ، شيء لا تستطيع أن تعبر عنه بالكلمات وحدها، وهذا جعلها تتعذب مدة طويلة، وهو ما جعلها تخاطر بحياتها رغم أنها لم تكن تظن أن بوسعها إنقاذي، كانت تريد فقط أن تفعل شيئاً يخفف من ذنب خيانتها، ومن ثم تموت بضمير مرتاح، شرحت طويلاً عن معاناتها وبكائها وهي تسمع صراخي، كانت تتمنى لو تستطيع الصراخ بصوت عالٍ، فرحت وامتلأ قلبي بالعرفان والغرور وأنا أسمعها تشكو عن معاناتها الخاصة، قلت لنفسي: إن آلهة البهاء والحسن معي، كيف وافقت النزول من عليائها لترافق بقايا رجل؟ ما لبثت أن قلت وقد أحرني القهر:

ـ انظري، ما فعلوا بي يا كاملة، أنا رجل ناقص مشوه، ولا يليق بك البقاء مع شخص مثلي.

قالت باضطراب:

ـ أخيراً، اكتشفت ذلك، أعرف أنك صرت مشوهاً وقبيحاً منذ سنوات، أتحسبني لا أرى ذلك؟

ـ لِمَ لم تخبريني؟ غريب أن أظل جاهلا فظاعتي، هل أشفقت علي؟ أهذا ما يدعوك للبقاء معي؟

ـ على كل حال أنا امرأتك وذلك الفسخ باطل، أنا أريدك وحسب.

لم أصدق ذلك، بدأت الذكريات السيئة تحاصرني من كل جانب، صور آلات التعذيب، مدفعا الهاون، وجوه الجلادين، صور وصور لا نهائية، انتابني رعب عظيم، لا ريب أنهم قادمون لاستعادتي وتعذيبي، ذلك الأمير الأحمق يستمتع بآلام وصراخ المعذبين، أولئك الأوغاد يبعثون له بالأسلحة والجلادين والآلات الرهيبة، لا

أحد ذاق الألم الذي ذقته، لن أعود ثانية إلى الجلادين، سأتبع وصايا معلمي العجوز الذي ذاق الآلام الشديدة، سأخالف وصايا أسلافنا السحرة، وليذهب الناس إلى الجحيم.. اعتراني الرعب والغضب، وصرخت منتحباً بحرارة:

ـ لن أدع ذلك الأمير الأحمق ينجو بفعلته، لن أدع إنسانا في هذه الأرض بمنأى عن الأذى، لقد صنعوا آلات التعذيب من أجلي ودربوا فرقاً للتعذيب، والمدافع صنعت لقتلي وتدميري، لا أدري ما يخططون ويصنعون أيضاً، لن أدعهم يقبضون علينا ثانية بأي ثمن..

ـ هذا غير صحيح، لست وحدك، هناك أشخاص يتعذبون، حدثني أبي أن هناك حروب في بلدان بعيدة يضرب الناس بعضهم بهذه المدافع وبالطائرات أيضاً...

ـ انظري إليّ جيداً، هل حدث هذا لإنسان من قبل، لن تلبثي أن تكرهيني، لأنني مسخ قبيح.

ـ هذا يكفي...

ـ سأفعل شيئاً عجز عن فعله جميع السحرة.

ـ ماذا تنوي أن تفعل أيها المجنون؟

ـ سأدمر العقل الذي ابتكر ذلك، سأتبع وصايا معلمي.

صعد في رأسي قرار أعمى مميت، قمت بعزم، واقتربت من حفرة كتب معلمي الخطيرة، فككت عنها التعاويذ الحامية واستخرجتها بصعوبة بواسطة إصبعي الوحيد، وحين رأتها كاملة بين يدي كان وجهي ملبداً بالسواد، سألتني بقلق:

ـ ماذا تفعل؟

ـ اتبعيني وحسب.

سارت خلفي متخبطة بجهلها، لا تدري ما اعتزمت على فعله، دخلنا هضبة أبي الصغيرة، كانت مدمرة عتيقة، ومنزل أبي صار محطماً، درت حوله، وكاملة تدور خلفي متسائلة عما أريده من بناء خرب مدمر، وجدت باباً يؤدي إلى حجرة مفتوحة على السماء تحيط بها جدران مهشمة، كان هناك جزء من سقفها مازال عالقاً بأعجوبة، صانعا ظلاً يمكن الاحتماء تحته من حرارة الظهيرة القاتلة، قالت كاملة:

ـ أنا جائعة وعطشانة، لِمَ أتيت بنا إلى هنا؟

نقرت صدري بإصبع راحتي المشوهة قائلا بيقين:

ـ بعد غروب الشمس سوف تأكلين أشهى الوجبات.

نظرت إلي باندهاش، كانت تشك من سلامة عقلي، كنت أعرف ذلك، مع ذلك صنعت لها دائرة سحرية حارسة، وصنعت لنفسي دائرة قريبة منها، وأخرجت أحد الكتب الرثة من المخلاة، وقلت لها وأنا أرتجف بتوتر:

ـ كاملة، بقاؤك معي هنا يمنحني القوة، سأعطيك الخيار بين البقاء معي أو المغادرة.

ـ ماذا تريد أن تفعل؟

ـ سأستحضر الشياطين.

ضحكت، وهتفت بانسجام:

ـ أنت تخيفني، لا أظنك جاداً، ومع هذا لنرى ما ستفعل.

ـ ليست مزحة، سأقفل دائرتك، عليك أن تغمضي عينيك، لا تفتحيهما إن كنت خائفة، لن يمسك أي سوء، وإن فتحتِ عينيك ورأيت أشياء غريبة لا تفزعي.

ـ هيا، استحضر شياطينك يا مولانا الدرويش.

ـ هلا تقولين لي شيئاً رقيقاً محفزاً قبل المعركة؟

ضحكت وهي تظن الأمر لعبة مسلية، قالت بجذل:

ـ أنا معك، لن أدعك أبداً، وهذا المساء نقضيه في عناق حتى الصباح.

ترقرقت دمعة عرفان من عيني الوحيدة، كنت بعوز شديد أن أسمع مثل هذه الكلمات الواعدة، قمت وأقفلت دائرتها، وقبلتها بصعوبة في فمها، ثم فتحت الكتاب الرث وأنا أقول بنبرات حادة:

ـ أغمضي عينيك، احذري من الكلام، لأن هذا ينبه الأرواح الشيطانية إليك.

لم تفعل، ظلت تضحك، عرفت أنها تظنها مزحة، لكن بعد أن فتحت كتاب المندل السليماني، لم يعد هناك مجال للتراجع أو التحذير، عليها أن ترى بنفسها أني لا أهزل، بمجرد أن قرأت الرمز الأول، اهتزت الأرض، كانت القذائف مازالت تسقط على هضبتي كالمطر، كانت كاملة تستطيع النظر من مكانها إلى حيث تقف الشجرة، لعلها ظنت أنها تستطيع مخاطبتي بحرية أثناء القراءة، فقالت وهي تشير إلى الهضبة:

ـ شجرتك تحترق.

لم أكترث، قرأت عدداً من الرموز، وانبثقت الشياطين الغاضبة، ظهرت من بين الأنقاض، فصرخت كاملة ووقعت على الأرض

مغشياً عليها، في الأوقات العادية كان قلبي سيسقط قربها حدباً، لكني لم أكترث، فأي ميلان في الإحساس أو ضعف في التركيز، يعني النهاية، حتى مجرد انحراف بؤبؤ العين قليلاً عن الكلمات والرموز سيكلفني غالياً، لا أدري ما رأت كاملة، لم أشغل نفسي بذلك، بل من حسن حظها أنها فقدت الوعي، لولا ذلك كانت ستصيبها صدمة تلازمها طول حياتها، اقتربت مني أفظع الشياطين، لكن تميمتي ودائرتي كانت تعيدها خائبة، صرت أسمع صراخها المهيل خارج المنزل المهدم حتى توقعت أن تسقط جدرانه المتبقية فوق رأسي، أخذت الكائنات المخيفة تربكني وتكاد تفقدني تركيزي، تصدر ضوضاء رهيبة حولي، تناديني بأصوات أبي وشقيقاتي ومريمة، هيئ لي أن أمي سلطانة واقفة قربي تخبرني أنها كانت تتمنى أن تعيش لتقف إلى جانبي لتحميني وتعوضني عن هجران أبي ونكرانه، مع ذلك لم أتزحزح أو ألتفت رغم تهيج عواطفي.

ظلت المدافع تهدر، كما سمعت أزيز الطائرات في السماء، راحت تُسْقِط مواد متفجرة حارقة على كل شبر في هضبتي، كانت تروم حرقي وتحويلي إلى قطع متفحمة، تلقت الهضبة التي كنا فيها بعض الضربات الرهيبة، أظنها وقعت بالخطأ لأنها لم تتكرر، لقد غفلوا عن وجودي في هذا المنزل المحطم، لم يتوقعوا أن أكون هنا، صرت قلقاً متكدراً أبذل جهداً للسيطرة على تماسك أعصابي، هناك كاملة الصامتة لا أعرف ما جرى لها، هناك خطر قدوم الجنود، وسقوط القذائف والمواد الحارقة على رأسي، فالدوائر السحرية تحمينا من الشياطين وحسب، لذا قرأت الرموز بسرعة مذهلة مدفوعاً بمخاوف عديدة، كانت الرموز تقفز إلى رأسي بشكل عجيب، صارت شفتاي المقطوعتان تتحركان ولساني يدور في فمي كراقصين يؤدون رقصات سريعة متناغمة، لم يمض وقت

العصر حتى فرغت من المندل السليماني، حين التفت إلى كاملة وجدتها على حالها لا تتحرك، رأيت الأرض من حولي والسماء مغلقة بالشياطين الخاضعين، سمعت أصواتهم الصارخة:

ـ اطلب يا سيدنا ما تشاء، هل تود السيطرة على الأرض، أم تود أن ندمر الجيوش القادمة لمحاربتك؟

ـ أين يكونون الآن؟

ـ كتائب قضاء يريم تحاصر الهضبة، وخمسون ألف جندي نازلون لتعزيزهم من المرتفعات الشمالية، إنهم الآن بعرباتهم في قاع جهران.

ـ لا تدعوا أحداً يقترب من موضعي.

ـ أمرك يا حاكمنا.

امتلأت بالفخر وسألتهم:

ـ من أنتم وكم عددكم؟

قالوا بصوت واحد:

ـ نحن ثلثي شياطين الكون، خُدّام المندل السليماني، ليس هناك إحصائية وأرقام دقيقة، هناك بشر وشياطين يولدون هذه اللحظة، ومع ميلاد أي كائن بشري يولد شيطان.

ـ انتظروا أمري حتى استحضر الثلث الآخر.

كانت في أعماقي طاقة شيطانية إضافية، فأخرجت كتاب شمس المعارف الكبرى، وصرت أقرأ رموزه، فتصاعدت النيران، والزعيق من أرجاء المكان، وأقبل الشياطين من كل أرجاء المعمورة راكضين غاضبين يحاولون ثنيي عن استحضارهم

والعبث بهم، كانوا يخافون من البشر كما عرفت لاحقاً، ويكرهون هذا النداء الذي يجعلهم لقمة سائغة في أفواه رجال قذرين مفعمين بالشر والدمار، أكثر ما يخشون منه هو ألا يتم تفريقهم إلى أوطانهم، فالبشر يستعبدون بعضهم البعض، ويفوقون الشياطين شراً، وهكذا جاء شياطين كتاب شمس المعارف الكبرى مضطربين صارخين بخضوع:

ـ أمرك حاكمنا، هل تود أن نرمم جسدك ونعيد إليك أعضاءك المفقودة؟

صحت قائلاً:

ـ هذا صحيح، افعلوا ذلك، واستعيدوا وعي رفيقتي.

ـ سنجلب لك أعظم أطباء البشر في الأرض، فهم يصنعون هذه الأعضاء.

صحت بيأس:

ـ لكن البشر يصنعون أدوات الدمار والخراب في الأرض، أنتم أكثر منهم تقدماً وشراً!

ـ هذا غير صحيح، البشر يملكون عقولا متطورة نافعة، ويتحتم أن تدوم وتزدهر.

ـ كلا، أنتم أكثر تطوراً، حين يبتكر أي بشري شيئاً أو يقوم بعمل غريب نقول له أنت شيطان، هل تفهمون؟

صاحوا بجنون:

ـ نحن صناعة بشرية، هل تدرك ذلك؟ عقول البشر ابتكرت كثير من الغيبيات ونحن على رأسها.

ـ انظروا إلى جسدي، هذه نتيجة من نتائج العقل البشري، ينبغي أن أزيل هذا العقل.

فوجئت بهم يصرخون ضارعين:

ـ لا تفعل أيها الساحر العظيم، هذا قرار مدمر، أنت بهذا ستقضي علينا، نريد أن نعيش في العقول البشرية ونتغذى على أفكارها الشريرة.

ـ ها أنتم تعترفون أنهم أشرار، نفذوا الترميم، واحبسوا القذائف في حناجر المدافع والطائرات، لا أريد أن يزعجني أحد، أعيدوا شجرة التالق إلى ما كانت عليه وحيواناتي الشاردة وحصاني الأبيض. ثم عودوا إلي لأصفي حسابي مع الأمير الناصر.

ـ لن تصحو الصبح حتى ترى في جسدك أعضاء جديدة، وحيواناتك وشجرتك، هل هذا كل شيء؟ نرجو أن تضع مطالبك مرة واحدة، ثم تصرفنا.

ـ مطالبي كثيرة، وأفضل ألا أضعها دفعة واحدة.

كان الشرر يطير من أشداقهم، فأجابوا:

ـ نحن ننتظر هنا، لا نستطيع المغادرة، وأنت تعرف عواقب التلكؤ في صرفنا.

ـ لم أعد أكترث.

أفاقت كاملة، وقفزت إلي بغتة ودفنت نفسها في صدري وهي تنشج كأي امرأة تخشى المفاجئات الرهيبة، قلت لها مهوناً:

ـ انتهى كل شيء.

ردت باضطراب:

ـ مخلوقات هائلة مرعبة، أخشى أن تمزقنا إلى قطع صغيرة.

ضحكت وأجبت:

ـ إنهم يخشون من البشر أيتها الساذجة، هل تصدقين ذلك؟

مضينا نمشي بثقة عالية، رأينا شجرة تالق مختلفة نوعاً ما، وحيوانات ترتع على الهضبة، مأوى كبير وآخر صغير، وحصاني الأبيض، أو آخر يشبهه، لأنه لم يكن وديعاً، حين اقتربت منه رفس في الهواء، فابتعدت عنه، وأنا أفكر في أن الشياطين جلبوا هذه الحيوانات من عالمهم، نزلنا إلى مأواي الكبير، أخذنا فراشاً، كان شكله جديداً منفراً تفوح منه رائحة شيطانية، رغم ذلك يعطي النتائج نفسها من الدفء والراحة، نسينا الأكل والشراب حتى أعلنت كاملة عن جوعها، فصحت في الفراغ بثقة كبيرة، كأنني سلطان عثماني أصرخ على الطهاة والخدم في قصري:

ـ هاتوا أفضل طعام وشراب.

فرشت أمامنا مأدبة كبيرة، ليس من طعامنا المألوف أي طبق، أكلنا القليل من كل شيء، وشربنا من قوارير أنيقة شراباً معتقاً، لم ندرك تأثيره القوي على جسدينا، نمنا والشياطين تحرسنا وتحاصرنا من جميع الجهات، كنا نشعر بأنفاسهم الحارة وحفيف أجنحتهم المتحركة بقلق، كانوا مجبرين على طاعتنا، آملين أن يعودوا إلى أوطانهم البعيدة، أثناء الليل هيئ لي أنني في حجرات مكيفة محاطة بأجهزة غريبة لم أرها من قبل، يدور حولي أشخاص مكممين عليهم أردية خضراء، بينما أيديهم تقوم بالعمل الدؤوب على جسدي، حين أفقت كانت كاملة تصرخ باستغراب:

ـ هيه، انهض وانظر إلى نفسك.

قمت بتثاقل كشخص خرج من وعكة صحية، فردت راحتي في الهواء كما لو كنت أوشك على مصافحة شخص ما، رأيت أصابع اصطناعية صلبة تشبه الأولى في الشكل، أصابع قدمي كذلك مصنوعة من نفس المادة الصلبة واستطيع تحريكها، أمسكت أذني بتلك الأصابع الغريبة، كانتا لينتين نوعا ما، ليس لهما من هدف سوى التجميل، وإيهام عيون الآخرين أنها حقيقية، عيني المفقوءة لمستها وقلت بنبرات كسولة:

ـ أهذه تقنية بشرية؟

أجاب صوت ضخم غريب:

ـ نعم، إنها كذلك.

ـ البشر يتقنون كل شيء.

ـ نعم، ولا يجوز إعدام عقولهم.

ـ كيف أستطيع أن أرى ملامحي؟

نصبت أمامي مرآة عريضة لامعة، نظرت إليها بدهشة، كأنها أعظم اختراع بشري، عكست وجهي الغريب المُجّمل، لم أكن أعرفه من قبل، لذا لم استطع أن أدرك الاختلاف الذي طرأ على قسماته، لكني غدوت كبيراً في الأربعين من عمري، نظرت إلى كاملة بحيرة، فقالت بجذل:

ـ لا فرق كبير، عينك الشمال لامعة قليلاً.

انتشيت وقلت لنفسي: البشر في البلدان الأخرى يبتكرون ويصنعون، في حين يبني الأمير الناصر المساجد ويطارد السحرة ويستورد الأسلحة من الدول الشريرة، ثم صحت بنبرات كسولة:

ـ اجلبوا قهوة بالحليب.

جلبت القهوة البيضاء في أبريق أنيق، لا أدري كيف صنعت وفي أي بيت نار غلي ماؤها، وضعت أمامنا الكؤوس الزجاجية المنقوشة بالأزهار، صرت أمسك الكأس في يدي وأدنيه من فمي مستلذا بتضاؤل الفارق بين الأصابع الحقيقية والاصطناعية، بقي علي أن اعتاد على شكلي الجديد، فكرت أن أصفي حسابي مع الأمير الناصر، وأريح الناس من شره، وأن أفتح هذه البلاد المقفلة وأكشفها للعالم الخارجي الذي يجهل وجودها، أردت أن يستمتع الناس بمباهج الحياة، لأجل ذلك عزمت أن أهد المساجد الفائضة التي بناها الناصر، لأنها بنيت على وقع صراخ المعذبين، قلت لنفسي: سوف أدع الشياطين يعملون على شق الطرقات، وبناء المدارس والمستشفيات والمصالح المعروفة في البلدان الأخرى، التي لا أعرف أسماءها، لكنها موجودة هناك، تعود بالجدوى على البشر، بشكل مباغت أجاب الشياطين وكأنهم يقرؤون أفكاري:

ـ نحن نساعد على تعمير دور العبادة فقط، لأنها أعلنت عن وجودنا منذ القدم، والكتب المقدسة بشرت بنا.

ـ والمصالح الأخرى.

صاحوا بصوت واحد:

ـ يمكنكم الاستعانة بخبراء من البلدان المتطورة.

فكرت قليلاً وقلت:

ـ أريد أن تجلبوا لي الأمير الناصر.

قالوا بصوت واحد:

ـ في الحال.

جُلب التعيس بواسطة جنود صفر الوجوه، أصابعهم وأظافرهم طويلة، وأزياؤهم غريبة، قادوه وهو يرتجف كالمحموم بفعل ظروف اختطافه الغريبة التي لا أعرف عنها شيئاً، لكن لا ريب أنه نُزع قسراً، وها هو يبدو مندهشا لأن هناك من تجاسر على انتهاك حريته، إنه من الأوغاد المتباهين الذين يظنون أن كل تصرفاتهم حكيمة مهما كانت قاسية ولا إنسانية، كنت أحتضن كاملة من الخلف لأبالغ في تمزيق قلبه الحجري، غدا كبيراً في السن، لكنه مازال قوياً قاسياً مثل جميع الأشخاص الطامعين بالحياة الدنيا والآخرة، عندما رآني فتح ثغره مندهشاً ودعك عينيه كأنه يريد أن يتأكد أن ما يراه حقيقيا، ما لبث أن قال بتغطرس مقطباً جبينه:

ـ أنت الساحر الشرير الذي نبحث عنه! أنت سجين هارب ومطلوب...

قاطعته بأنفة عمياء:

ـ وأنت مطلوب أيضاً.

ـ لكنك غير مؤهل للحكم، لأنك ساحر سافل من رعاياي.

قلت ببرود مخيف:

ـ أنا كذلك، لكنك الآن صرت سجيني.

صاح الأمير الماكر على الجنود الذين يقيدون حركته:

ـ دعوني أتحرك بحرية، لأريه شيئاً ما.

قلت بغباء لأثبت سيطرتي على جنودي:

ـ دعوه .

انسحب الجنود قليلاً، فأدخل يده في جيبه وأخرج مسدساً صغيراً لم أره من قبل ولم أتوقع وجوده، دق ناقوس الخطر في نفسي، وصحت بأعلى صوت:

ـ امسكوا به.

أطلق الخبيث رصاصة وقعت في ظهر كاملة التي التفتت نحوي، لأنها لم تجرؤ على مواجهته والنظر في وجهه، سقطت على الأرض، وخرجت منها الدماء دافئة لتخضب بناني المرتجفة، صحت بأعلى صوتي:

ـ أنقذوا كاملتي.

كان الخبيث يضحك باستمتاع، فقلت بحقد أعمى:

ـ اربطوا هذا اللعين عارياً على جذع شجرة التالق، ضعوا في دبره أشد أنواع الفلفل حرارة.

قاموا بتعريته في الحال، وهو يصيح عليهم نافخا كالثور غير مصدق بما يقومون به، ربطوه على الشجرة، ووضعوا حفنة من الفلفل الحار في دبره، فأخذ يصرخ بصوت باكٍ طالباً الرحمة، لكن قلبي رغم ليونته لم يرق أو يرأف به، فقد أوصاني معلمي أن أفعل ذلك ليذوق طعم الألم، وأعظم من ذلك ها هو يطلق النار على كاملتي ويبعدها عني، طلبت من الشياطين أن يعيدوها كما كانت، لأني لن أفرقهم ما لم يعيدوها إلي معافاة تتراقص كفراشة، أكدت على ذلك، لكني في سري كنت أبيت لهم الشر أيضا، صرت أتابع أخبارها أولاً بأول، فالشياطين أدخلوها إلى قلب أحدث المستشفيات الغربية، لم أحفل بأسماء البلدان أو الأماكن، ما كنت أرجوه هو أن تعود امرأتي لتتحدث إلي.

٨

يردد الشياطين على الدوام أن للبشر خبرات كبيرة في الطب وفي كل شيء، اعترفوا أنهم مجرد طاقات طائرة خفية يجيدون الأعمال الخارقة والتخفي ونقل الأخبار والصعود إلى السماء لاستراق السمع، كما يقومون ببناء دور العبادة لإثارة العصبيات الدينية بين البشر، أعظم ما يخشون منه هو أن يتمكن ساحر من استحضارهم وإرغامهم على طاعته، وفي تاريخهم الرهيب، وعلى مدى فترات طويلة، استحضروا بواسطة القليل من عتاة السحرة، لكن أحدا منهم لم يجرؤ أن يحبسهم طويلاً، لأنهم سوف ينقلبون إلى طاقات شريرة تدخل إلى عقول جميع البشر، فتحرق خلاياها وتعطل مراكز التفكير والتأمل والوعي، ومن ثم تحيلها إلى أعضاء رخوة لا تعمل، هذا يجعل السحرة يعيدون التفكير ويصرفون الأفكار الشريرة عن رؤوسهم، لا يهم، أظن أولئك السحرة لم يتعرضوا للعذاب والألم الذي أصابني، لا أحد، لا أحد..

طلبت منهم أن يدونوا قصتي منذ كنت فكرة معذبة تؤرق رأس أبي بضرورة أن يكون لديه ولد ذكر يزهو به، إلى أن تخلى عني بعد أن دمرت قريته وصار مشرداً، وحتى هذه اللحظات التي أقف هنا أتلذذ بسماع قصص العالم الغريب الذي لا أراه، نعرف أن الشياطين يستطيعون السفر في الأرض بسرعة عجيبة، ويطيرون كالبروق الخاطفة في السماء، ويعودون بأخبار وافية شاملة عن كل شيء يحدث في هذا الكون الفسيح، ورغم ذلك يزعمون أن البشر أدهى وأعظم شأنا وأكثر جلالا، فكرت أنهم يمجدون الجنس البشري ليزيلوا من نفسي أطنان النقمة والغضب ضد أبناء جنسي، لم يغب عنهم أنني بصدد عقابهم على دورهم البغيض في تخريب

عقول الناس وحشوها بالأوهام، كانوا يدركون أنني قادم على استعبادهم وتدميرهم، لا أدري كيف أدركوا ذلك، لعلهم تعقبوا قصتي مذ كنت صغيراً، وعثروا على المقاطع التي تشير إلى وثائق المستكفي، ربما كانت لديهم وثائق خاصة بهم، إنهم شياطين ولا تنقصهم المعرفة في شيء يتعلق بمصيرهم، وسواء كانت الكتب المقدسة صادقة أم كاذبة في تحذيرها منهم، فقد لمست دورهم المشين وسمعت اعترافاتهم البغيضة عن تورطهم في كل شيء سيء يحدث للإنسان.

"هيا اكتب كل ما أقول دون تردد مهما كان مزرياً أو مخجلاً"، هكذا كنت أطلق أوامري في وجه أحد الكتبة الماهرين، فيكتب مذعناً والغضب يتطاير من أنفه الضخم، بدأ يكتب قصتي مرغماً، كان ينبغي أن يأخذها من لسان كل الأشخاص الذين مروا في حياتي، لذا بحثوا عن أبي المتشرد الذي سلبت أمواله ودمرت قريته، عثروا عليه ومريمة وخمسة أولاد ذكور آخرين في سوق أسبوعي خارج قضاء يريم، كانوا يستجدون الصدقات من المتسوقين والمارة، بثياب مزرية وأجساد هزيلة هدها الجوع والتشرد، عاشوا في مأوى حقير على مشارف السوق، غدا أبي مسناً، رغم ذلك مازالت أوهامه باقية بالعودة ليكون كبير قرية ما، كبرت مريمة أيضاً، وظلت طيلة الأعوام الماضية تهدده بالرحيل إلى حيث رحل اليهود، غير أن أبي تشبث بها بقوة، وظل يعدها أنه سيعود إلى سابق عهده كبير قرية ما، وسوف يسترد ما خطف منه عما قريب، مهما طال الأمد سيعود إلى قاع الحقل لينشئ قرية أو حتى يغتصب إحدى القرى بالقوة ويصبح كبيراً عليها، لكنه غدا كبيراً في السن، كما كبر أولاده الذكور الخمسة، غدا إسحاق شاباً قويا يحلم بالزواج، جاء أبي يروي لي ما يدور بينهما من خلاف، أخذ يستجديني أن أحقق أمنيته، أو على الأقل أقنع مريمة بالعدول

عن قرارها في هجره، طلبت منه أن يقف أمام كاتبي ليدون اللحظات التي بزغت فيها فكرة وجودي في رأسه، ورحلاته -التي كان يتشدق بها- إلى الأولياء والصالحين لكي ينجب الولد الذكر الذي سيفخر به، غير أنه تمنى أن تؤسس قريته على الهضبة وتعاد إليه أمواله وحقوله ومنزله الكبير قبل أن يسرد جملة واحدة، عرف حاجتي الماسة إلى سرد أحداث حياتي، لذا تجرأ وطلب أيضاً إنشاء مساكن للأهالي القدامى، ثم عاد وهدد أنه لن يروي شيئاً ما لم يحصل على أهالي يشاطرهم العيش ويكون كبيراً عليهم، لكنهم كانوا قد تشردوا في أرجاء البلاد، وأصبح تجميعهم كالتفتيش عن فصوص صغيرة بين أكوام من الحصى والقش..

كان الأمر قابلا للتفاوض والمساومة، ظهر الشياطين عليه على شكل رجال وجهاء، أخذوا يقايضونه على طلبه هذا بأن يصير عاملاً للقضاء، لكن أبي هز رأسه رافضاً هذا المنصب المغري، ولم يتزحزح عن موقفه، هذا دفع بي إلى توجيه الشياطين لجلب المشردين الذين يريدهم، قرروا أن يجمعوا ما يستطيعون جمعه من المشردين والمتسولين في القضاء، معظمهم لم يكونوا من سكان قريته القدامى الذين ذابوا بشكل غامض، أو بالأصح طردوا من القرى المجاورة، بعضهم هلكوا بسبب الأمراض والبؤس، والبعض الآخر تفرقوا في الآفاق، ماعدا غنية التي ظلت في قرية أهلها تترقب عودة أبي لتسكن قريباً منه، لتراه على الأقل وتشم رائحته من بعيد، غدت عجوزاً دون أن تشعر، وتخشى أن يكون أبي قد نفق بفعل التقدم في السن والتشرد، فرح أبي لأن ما حصل عليه من المشردين كان يفوق ما حلم به، بنيت مساكنهم الجديدة على الهضبة الصغيرة، حاول الشياطين بناء مسجد ضخم لهم، لكني منعتهم من بنائه، طلبت من المشردين أن يبنوا لأنفسهم معبدا صغيرا أو سقيفا مكشوفا للعبادة، وأن يربوا المواشي والطيور أو يفعلوا أي شيء

يعينهم على العيش، لكن أبي الذي فرح باسترداد أملاكه تعهد أن يفكر في سبيل ليخرجهم من البؤس والفقر، لأجل ذلك ظل يأتي متوكئاً على عصا ويروي القصة جاثماً، بينما يدونها الكاتب مستخدماً ضمير الغائب، صرت أشك في صحة ما يرويه، لاسيما في المواطن التي كان يصف فيها نفسه وأفعاله الخارقة، في الأخير تغاضيت وقلت لنفسي إنها مجرد قصة، والقصص التي لا يكتنفها الزيف والغرابة لا تكون في الغالب مثيرة، لا أدري من سيقرأها بعد أن أقوم بتدمير العقل البشري، لا يهم ذلك، لعل الناس سوف يتطورون من حالة اللاوعي إلى مرحلة الوعي، لا أدري كم ستمر من دهور حتى تنشأ أجيال واعية تقرأ قصتي وتدرك أنني سبب مباشر في تدمير عقول سكان العالم الحديث، فكرت أن أكتب اعتذاراً لهم وتبريرات كثيرة لما قمت به، لكني في النهاية رأيت أن أضع القصة كما هي وسوف يدركون ما جرى حين يتصفحون أحداثها، أملت أن تكون عقولهم أكثر نضجاً بحيث يستفيدون من الأخطاء التي حدثت، ويعيشون في عالم جديد خالٍ من الشياطين والسحرة والأنبياء والآلهات.

***

صار على مشردي قرية أبي أن يأتوا كل يوم جمعة ليبصقوا على جسد الأمير الناصر، وعلى مجسم عملاق من الخشب أقمته في جزء بارز من الهضبة يمثل الشيطان الأكبر، رأيت زعفوط ملك شياطين آنس وبلاد الروس و..... في حال من الذل والضعة، صرت أكلفه أن يقوم بتنظيف الهضبة من القاذورات، لاسيما الفضلات التي تخلفها حيواناتي على الأرض وتحت شجرة التالق الضخمة، أظن الشياطين قد عرفوا نيتي المبيتة في القضاء عليهم،

لكنهم مجبرون على مجاراتي وكتابة قصتي حتى النهاية، وكذلك الاحتراس على سلامة كاملة التي صرت أتوق إلى رؤيتها..

بعد زمن طويل أعادوها إليّ، كانت مشلولة بفعل رصاصة خبيثة تسمرت على عمودها الفقري، ظل الشياطين يعقدون لها جلسات كهربائية بين فينة وأخرى، ويجتهدون في شفائها، كانوا يظنون أن تعافيها يعني نجاتهم من المصير المحتوم الذي أعلنته لهم دون مواربة، كانوا يصرخون على الدوام:

ـ ألا يكفيك أننا استعدناها من فك الموت.

أجيب عليهم ببرود:

ـ أريدها كاملة، مثل اسمها.

ـ بل أنت تريد أن تعرض العقل البشري للدمار من أجلها.

ـ هذا صحيح، أنتم ونحن في امتحان عسير، احشدوا كل الإمكانات لتعيدوها كما كانت، هيا، أنقذوا أنفسكم.

كانت كاملة تجلس قربي على سرير فخم أعد لها تحت الشجرة، وهو آخر وأجود ما ابتكره العقل البشري للمشلولين، لعل مريضتي هي أول من حصل عليه، كان هذا السرير مزوداً ببطاريات عجيبة وعجلات، يتحرك في جميع الاتجاهات، ويمكن أن يرفع المريض ويسير به ويوهمه أنه يمشي على الأرض، يحوي مرحاضان مخفيان على جانبيه للفضلات والبول، يتحركان آلياً ويندسان تحت المريض بسرية وعفوية بمجرد الضغط على الزر المطلوب، استمر الشياطين والعقل البشري يجتهدون في جلسات التدليك للعضلات لتليينها، حتى غدت تحرك قدميها ويديها ووسطها، ثم تمكنت أن تضع خطواتها الأولى ببطء على الهضبة مثل طفل

مبتدئ على السير، أخذت أسندها، وأحياناً تستعين بعكازين أنيقين، وتتقدم خطوة أو خطوتين، أثناء ذلك جاءت طائفة كبيرة من الشياطين الغاضبين طالبين أن أفك عنهم الرموز الشريرة التي تضللهم عن العودة إلى أوطانهم، فأضحك بمرارة وهم يقولون بصوت هادر:

ـ ها هي تسير على الأرض، لم يسبق لشخص في حالتها أن تعافى من الشلل، ماذا تريد أكثر من ذلك؟ هيا اصرفنا إلى أوطاننا، إننا مثلك لدينا عائلات.

أجيب عليهم ببرود:

ـ ليس بعد، حتى أرى كاملة تجري خلفي في الهضبة.

ـ أيها البشري الحقير، إنها مسألة وقت حتى تشفى وتجري خلفك. أطلقنا من عبوديتك وإلا...

يتذكرون أنهم لا يستطيعون الاقتراب مني بفعل التميمة الحارسة المحصنة بتعاويذ شيطانية صنعها أسلافهم قبل قرون، ومن ثم يعودون إلى التوسل قائلين بلين:

ـ انظر يا سيدنا، ها هي في طريقها للشفاء، وهذا الملعون الأكبر معلق على الشجرة، وبوسعنا أن نبيد سلالته الخبيثة من وجه الأرض، ولن يمسك أحد بمكروه بعد ذلك.

ـ هناك أناس غيري في أرجاء الأرض يعذبون أبشع مما عذبت أيها الحمقى.

ـ اطلب ما تشاء، هل نبيد المذنبين والجلادين والطغاة في الأرض ونرسي العدل والأمان؟

ضحكت وقلت بتهكم قاتل:

ـ أنتم ستفعلون ذلك لا ريب! ثم يتوالد أشرار آخرون يرضعون أفكاركم في دور العبادة ويسعون لاستعباد البشر رافعين راياتكم وأفكاركم البغيضة.

ـ ماذا لو دمرنا كل ما بنينا بأيدينا ومحونا أفكارنا وتعاليمنا وأعدنا كل شيء إلى نصابه الصحيح؟

ـ لا جدوى.

صرخوا وطار الشرر من عيونهم، ومادت الهضبة تحت أقدامنا حتى سقطنا أرضاً، فزت كاملة مرعوبة، وجعلت تصرخ:

ـ أرجوك يا سعد، أطلق سراح الشياطين، إنهم طيبون كما ترى، افعل ذلك من أجلي.

صحت بأعلى صوتي:

ـ لا لن أفعل ذلك، إنهم يكذبون.

سمعت صوتهم المهيل:

ـ أنت تعلن الحرب علينا.

ـ دعوني أفكر في هذا الأمر، أريد منكم أن تجلبوا تميمة حارسة تشبه تميمتي باسم المريضة، هيا افعلوا ذلك، وسأصرفكم.

ذهبوا لتنفيذ الأمر، سمعت أصوات الشياطين الأشرار ينصحون رفاقهم بصوت حاد:

ـ ماذا تفعلون! إنه يكذب، إنه بشري، والبشر لا يفون بالوعود.

بعد يومين عادوا بتميمة تشبه تميمتي وضعت برفق في عنق كاملة التي كانت هي الحلقة الأضعف التي يمكن أن يؤثروا بها علي، عند

هذه اللحظة انتظروا قراري حابسين أنفاسهم ناظرين إلي بعشم، قلت ببرود:

ـ سأقرر حين تسير كاملة على قدميها وتجري خلفي في الهضبة، هذا قراري الأخير.

مادت بنا الأرض، واشتعلت النيران في الجبال والهضاب القريبة، ودوت الأصوات المرعبة حولنا، ثم سرعان ما تلاشت أصوات غضبهم، وعاد الهدوء مخيماً على الهضبة. ظل أبي يأتي متكئاً على عصاه للتدوين وهو منتشٍ وفرحان بقريته التي غدت أكبر من ذي قبل، كانت أملاكه تتضخم، وأولاده يشبون كل يوم، ومريمة تزداد ضخامة وكبراً، تأتي بين حين وآخر لزيارتنا، صرت أنا وكاملة نشكل ثنائياً هانئاً لا يرعبنا سوى ما ستؤول إليه الأمور بعد أن تنتهي المهلة، كانت الشياطين حولنا مختبئة تحاصرنا من جميع الجهات، وقد أمرتهم بعدم الظهور بصورهم الحقيقية، لأن ذلك سوف يفزع مريضتي ويؤثر على صحتها، وإذ ذاك لن أكون ملزماً بصرفهم إلى أوطانهم.

رفيقتي في الهضبة صارت تنظر في الظلام وتتمتع بنفس المهارات التي أتمتع بها ماعدا قراءة التعاويذ التي يعوزها بعض الحفظ والتدريب، فهي رموز وأسماء غامضة لا يتكهن أحد سبب تأثيرها وقوتها ومعانيها، صار شفاؤها يؤرقني مع اقترابه رغم شوقي أن أراها تجري كالحصان في الهضبة، استمرت الشهور تجري، وحال كاملة يتحسن، حتى استغنت عن أحد العكازين، كنت أشعر بتأثير ذلك على الشياطين المترقبين، أحس بزخم أنفاسهم ولهاثهم، إن بمقدورهم الإمساك بالأرض وسحقها بأيديهم الضخمة الشريرة، لكن يبدو أنهم محكومين برموز وقوانين ما، ليسوا مثل البشر لا يتقيدون بأي قاعدة أو عرف، مع ذلك اقتنعت أن أنفذ

وصية معلمي التي أوصاني بها قبل أن يموت على يدي، لهذا لازلت أبيت الشر للعقل البشري الذي يريدون إنقاذه بأي ثمن، كما يحاول أي منا إنقاذ منزله من حريق أو كارثة، فهم لا يسكنون في أي موضع آخر غيره، بل لا يستطيعون العيش من دونه يزرعون فيه الشر ويتغذون مما ينتج عنه من شرور، أجمل قصورهم يشيدونها في عقول المؤمنين الذين يؤمنون بوجودهم، وقد تمكنوا عبر مراحل التاريخ في المساهمة بنشر الديانات التوحيدية، وحاولوا احتكارها وتعميمها وإلغاء الأديان الأخرى الوثنية والفلسفية التي لا تعتمد على فكرة الإيمان المطلق. سخروا من الآلهات الإغريقية، وحرضوا حركة طالبان على تحطيم تمثال بوذا، ودفعوا ملالي الشيعة للمناداة بمحو قواعد زرادشت العظيمة من الألواح المقدسة، واستطاعوا أن يزرعوا القصص الخرافية كحكاية آدم والشيطان في عقول قطعان واسعة من البشر بواسطة الكتب المقدسة، متظاهرين بأنهم العدو الرئيس للإله التوحيدي الذي لا يراه أحد، لأجل ذلك يستحقون أن يبادوا ليعود الناس إلى فطرتهم الأولى، بوسعكم أن تسألوا كيف استطعت الحصول على هذه المعلومات البغيضة، عن تحالف الإله والشيطان لتدمير البشر، هذا هو سري الكبير الذي ألقاه عليّ معلمي ذات يوم، وهو كذلك حصيلة سنوات من العذاب الأليم الذي تجرعته على بعد خمسين متر من المسجد الذي كان الجلادون يرتادونه خمس مرات في اليوم لأداء الصلاة، ولولا التميمة التي أحملها، ورغبتهم في العودة إلى أوطانهم -التي ليست سوى العقول البشرية المؤمنة- لن تجدوا قصتي هذه بين أيديكم، لأن بوسعهم تمزيقي وحرقي ونثر رمادي في البحار البعيدة، على هذا النحو، ركد في أعماقي حقد عظيم على هذه الكائنات اللعينة التي صنعناها لكي تؤذينا وتهيمن على عقولنا وأرواحنا، قررت ألا أدعها تفلت من العقاب حتى لو أدى ذلك إلى

إعطاب عقولنا الخاوية من كل شيء، إلا من الخزعبلات والأفكار الروحية والوساوس الشيطانية، هاأنذا أبرر قضائي على العقل البشري بعد أن قررت في جزء من القصة ألا أفعل، كل هذا لأنني مثل غيري لازلت أؤمن بالشياطين وأتعامل معها، إنها للأسف أكذوبة تهددنا، رغم ذلك تنتظرني أن أصرفها إلى أوطانها البعيدة، إلى عقول البشر، لكن هيهات.

***

كانت شجرة التالق مسرحاً لتعذيب الأمير الأكبر أو الشيطان الأكبر والحقيقة أن تعذيبه لم يعد يسعدني، لأن الإنسان أحيانا سرعان ما ينسى الحقد بمجرد أن يزول غضبه، لقد باتت الشياطين تعذبه، وهي تظن أنه السبب الرئيس الذي دفع بي إلى جمعهم وإبعادهم عن أوطانهم، ناهيكم عن إطلاقه النار على المرأة الوحيدة التي أحبها، أما أنا فقد اكتفيت بتلك الحفنة من مسحوق الفلفل الحار التي طلب معلمي أن أضعها في دبره ليذوق العذاب الذي كان ينزله به، لكنه أخذ ينفخ بعناد كالثور الهائج بعد أن سكن هياج وجعه الرهيب، كانت عيناه وارمتين حمراوين ذرفتا كثيراً من الدموع، بدا صوته متلاشياً متحشرجاً لفرط صرخات الألم التي أطلقها، حين رأيته بذلك الحال تأثرت وانقبض قلبي، فكرت بنفسي وأنا أمارس نفس الدور البغيض الذي كان يمارسه، فكرت أن أطلق سراحه أكثر من مرة، لكنني خشيت أن يعود إلى تعذيب الناس وقتلهم، لأن الشخص الذي أدمن صناعة الألم لا ينام قبل أن يسمع الصراخ ينطلق من أفواه المعذبين، عندما اقتربت منه مشفقا، مد إصبعه مشيرا إلي قائلا بتحدٍ صارخ:

ـ أنت تحفر قبرك بيديك حين تمس جسد الأمير المؤمن المجاهد، أنا من عائلة تمتد جذورها إلى النبي.

أجبت عليه ببرودي المألوف:

ـ أنت لم تعد أميراً، أنت الآن أسير، لا أكترث إن كانت جذورك تمتد إلى الله أو الشيطان.

نظر إلي بحقد أعمى وأجاب مكوراً قبضته في الهواء:

ـ الجيوش الآن تبحث عني، سوف ترى الآلاف منهم يحاصرون الهضبة، وستقادون جميعا إلى السجن.

أغاظني حديثه المتعنت المتوعد، كنت في تلك الفترة مقهوراً ناقماً بفعل إطلاقه النار على كاملة، كنت أظنها نفقت، وأن الشياطين يخفون عني الخبر، لم تحقق حفنة البسباس الحيمي التي أُعطِيت له أي نتيجة، كنت أريده أن يؤمن بواقعه الجديد كأسير وقع في قبضة أحد المُعذَبين الناقمين، وأن يبدي بعض الشعور بالذنب، دفعني ألمي وحزني أن أطلب من الشياطين أن يضاعفوا له جرعة الفلفل، ووقفت كجلاد آثم قرب جسده الذي يتلون بألوان عديدة، أخذ يقضم بأسنانه شفته السفلى حتى أدماها، وهو يحاول كبح صراخه، ثم انفجر صائحاً رافعاً ذراعيه في الهواء مستسلما، سال خيط رفيع من الدم متغلغلاً وسط لحيته الكثة، حتى تساقط على شكل قطرات متتابعة سريعة أرجوانية اللون، طلبت تسكين جروحه ليتسنى لي سماع كلامه، كما أمرتهم أن يحولوه من وضعية الخفاش إلى الوضعية الطبيعية للإنسان، قال بعد أن هدأ وجهه:

ـ ليس في قلبك رأفة، أنت وحش على شكل إنسان.

ضحكت وقلت بانسجام:

ـ هذا صحيح، لقد صنعت مني وحشاً أيها المبجل.

سألني بصوت متماوت متحشرج:

ـ لم أذق الألم من قبل، لذا لا أستطيع تحمله، كما ترى أنا رجل عجوز.

جثا تحت قدمي وهو يقول بضراعة:

ـ لا تعاملني بالمثل.

ـ لِمَ لا أفعل؟

ـ لأنني سأموت خلال فترة وجيزة.

قلت له بنبرات شديدة:

ـ ماذا يعني موتك؟ ألا تدرك أن أمثالك من الطغاة يفرح الناس لموتهم ويطلقون الضحكات في الهواء؟

نظر إلي بامتعاض وأجاب:

ـ لكني أمير يا بني، وموتي يجعل البلاد مهددة بالزوال.

أجبت بتهكم:

ـ هذا صحيح، سيخسر الناس الطرقات والمصالح التي بنيت في عهدك، في الحقيقة، لم تفعل شيئا يجعل الناس يبكون على موتك.

ـ هل تفكر في قتلي؟

أجبت بصراحة:

ـ لا.

ـ هل تود أن تحررني ؟

ـ لا.

ـ ماذا تريد أن تفعل بي إذا؟

ـ عشرون عاماً من العذاب تحت الشجرة حتى تتكسر فروعها.

صاح بصوت مستغيث:

ـ بشرف آبائك وأجدادك أن ترأف بي، فأنا شيخ كبير.

ـ ليس لآبائي أي شرف، أنا من عائلة حقيرة وضيعة، كما ترى، لم يأت العذاب الحقيقي بعد، تلك مجرد حفنات من الفلفل، معلمي كان شيخاً طاعن السن أيضاً.

انصرفت وهو يبكي، لم أكن جاداً في وعيدي، لأني ذقت الألم، أعرف ما يعني التدلي بوضعية الخفاش مدة من الزمن، إذ يتسرب الدم من القدمين والجذع إلى الرأس، ويشعر المرء بضغط هائل في الرأس وخدر رهيب في الأطراف، وهكذا ظل شهوراً دون عذاب، يُعطى الطعام الذي نأكل منه، ويُدثر جيداً، وننام سوياً تحت الشجرة، لم يكن فراره ممكناً، فالشجرة أحيطت بدائرة سحرية تحمل اسمه وصفته وصارت مقفلة عليه، لذا نزعت عنه الأغلال، وجعلته يسرح ويمرح حول الشجرة، كما أحطت أنفسنا بدوائر عند النوم، لكنه فكر في الهرب في اليوم ذاته الذي عادت فيه كاملة من الغرب، صار مهتاجا، وأظنه كان يمقتها أكثر من أي كائن في الوجود، لأنها ببساطة خانت العائلة الأميرية كما يظن، وساعدت على فرار العدو الذي بشرت به الوثائق القديمة، لم يكن يفهم أن الحب ليس له عائلة أو هوية، لا يؤمن بهذا النوع من العلاقات الإنسانية، لذا أراد أن يفر بعيدا عنها، رأيته يرتطم بحاجز الدائرة، ويعود خائباً، كنت أراقبه عن كثب دون أن يشعر، فجأة أخذ حجراً ضخماً وتقدم متسللاً من كاملة النائمة على سريرها الوثير، فقمت

بتجميده بواسطة التعويذة، وأعدته إلى وضعية الخفاش، وطلبت من الشياطين أن يضاعفوا جرعات ألمه، كنت انتفض غيظاً وخوفاً، لم أتوقع أن يفكر في القيام بقتل كاملتي بذلك الحجر بعد أن حررته ومنعت عذابه شهوراً عديدة، عرفت أنه خطير وجاحد ولا يمكن أن نركن إليه.

لم تكن هناك أي محكمة في الهضبة ولا قضاة، لذا حكمت عليه بالعقوبات الشاقة مدة عشرين عاماً نظير تعذيبي ومعلمي ولأجل الذين أحرقوا والذين قطعت أطرافهم ورؤوسهم وصلبوا على سور المدينة، حتى لأجل أولئك الأطفال المميزين الذين نزعهم من أحضان أمهاتهم وقتلهم بدم بارد حين كان وليا للعهد كما روى أبي، وهكذا زاد صراخه وبات مصدر إزعاج لا يوصف، أصبح عبئاً علينا وعلى الحيوانات، باتت ضروعها شحيحة الحليب بشكل مفاجئ، أمست تجفل من أتفه صوت، سرعان ما تراجعت عن قراري، وطلبت إيقاف عذابه ريثما تخطر لي فكرة بشأنه.

أمرت الشياطين أن يعتقلوه على جذع شجرة شوكية في أقصى الهضبة، لكن هذا لم ينفع، ظل صراخه يرتفع في كل وقت، طلبت منهم إيقاف عذابه والاحتراس عليه من الفرار، مرت بضع شهور، حتى دب الصراع وعدم الثقة بيني وبينهم، وفي هذه الحالة، صاروا يسومونه أشد العذاب، دون أن أسمع صوت صراخه، لا أدري أي وسيلة اتبعوها حتى أصموا أذني، نسيت أمره، وسرت أتابع بفرح وقلق تحسن حال كاملة. باتت تسير دون عكازين، تجتاز مسافات قصيرة ببطء وحذر، حتى تتعب وتتألم، ثم تعود بعدها لتستلقي على سريرها الوثير، صرنا نعيش حياتنا دون منغصات كزوجين متآلفين، كانت كاملة أحيانا تشعر بأنها حامل، وحين تخبرني أشعر بالقلق بسبب الظروف الكريهة التي نمر بها،

لا أود الحصول على طفل ينمو على صراخ الشياطين، وفي حين آخر تخبرني بحزن أنها كانت مخطئة، أصبح قلقي الوحيد أن تعود الشياطين لمطالبتي بصرفهم عقب المهلة المحددة، كان أمر اختفاء الأمير الأكبر بظروف غامضة قد أثار الناس وجعلهم يتحدثون طويلاً، البعض زعم أنه اغتيل على أيدي أقاربه، وأخفيت جثته في قبو، أو أسقطت في بئر قديم مهجور، وهناك من زعم أن ما تبقى من السحرة دبروا له مكيدة وحولوه إلى أتان باعوه في أحد الأسواق، مع مرور الأيام والشهور طمره النسيان مثل كثير من الأشياء التي ينساها الناس، وإن تظل في رؤوسهم ذكرى غامضة غريبة عنها تبزغ من حين إلى آخر حين يتحدثون عن الماضي والأحاجي التي لم يُكشف عنها.

في يوم جاء أبي إلى الهضبة وعدد من أهالي قريته الشيطانية، كان قد أتم روايته للأحداث الخاصة به، ولم يعد يأتي إلا لبعض الأمور الهامة، أصبح حاله أفضل مما كان، لكن الشيخوخة التي لا شفاء منها جثمت على جسده، بات منحنياً متعباً وجهه مليء بالتجاعيد، شعره الأبيض غمر رأسه رغم حرصه الشديد على إخفائه تحت عمامة الوجهاء التي يلبسها ويحيطها بذوائب، لحيته المشذبة كذلك وخطها الشيب، مع ذلك لا يفصح عن سنه أو يظهر عجزه، حين سؤل عن ابيضاض شعره ادعى أن ما مر به من مصائب ومشاكل ليس قليلاً، جاء هذا اليوم يشكو من صراخ ينبعث من الهضبة، صراخ وحشي لشخص معذب أو مجنون، ظن أنني عدت لعلاج الممسوسين وطرد الشياطين عن أجسادهم، لا يدرك أن شياطين الأرض صاروا يحاصرون الهضبة ويهددون بتدمير عقول الناس، كان يعلم فقط بوجود وجهاء مجهولين ذوي أجساد غريبة، إضافة إلى كاتب ذي مظهر شاذ يظن أنه بشري مصاب بالخرس، لأنه يكتب الأحداث التي يمليها عليه بصمت، لا يدرك أبي أن قريته قد

تُهجر قريبا، لا يعرف ما يدور حول هضبته ماعدا هذا الصراخ المزعج، فوجئ بي أصرخ في الفراغ:

ـ اجلبوا الأمير الأكبر.

صاح أبي بغضب:

ـ ماذا تقول أيها المعتوه؟

ـ لا شيء، اسمع وحسب.

انبثق الأمير الناصر فجأة على جذع التالق في وضعية الخفاش، قفز أبي مندهشاً متشبثاً بي مشيراً إلى الشجرة، كان الأمير في وضع مشين، محروق الجسد يسيل القيح من أطرافه ووجهه، غمرني الغضب بشدة، لأني كنت أريده سليماً من الأضرار، فقلت بنزق:

ـ ضعوا الرجل على الأرض، وحرروه من قيوده، ها أنتم ذا تخالفون وصايا السحرة القدماء، وسوف تعاقبون على جرمكم.

أعادوا الأمير الناصر إلى الأرض، فتكوم خامداً متدلي الرأس كالميت، أدركت أن جلادي الشياطين قساة أيضاً، انحنيت على الجسد الهامد ورفعت رأسه ونظرت في عينيه، استبشرت أنهما في وضعهما الصحيح ما يعني أنه حي، لم أجرؤ أن أتحسس نبض قلبه، أخذت مخلاتي، ونثرت مسحوق دواء الجروح على كل جسده، سأل أبي بذهول:

ـ من هذا الرجل؟

قلت بكدر:

ـ ألم تتعرف عليه؟

ـ كلا، ماذا يدور في الهضبة يا سعد؟

ـ هذا الأمير الناصر.

هز أبي رأسه متبسماً، كأني ألقيت أمامه مزحة ثقيلة العيار، نظر إلى الأهالي الذين حوله بخوف، ثم وضع سبابته على شفتيه المزمومتين محذراً من البوح بما سمعوا، صار يخشى المتاعب، ويلتزم الحذر كثيراً، نائياً بنفسه عن كل شيء يكدر عيشه، لقد عاش أعواماً طويلة متسولاً، وأوشك أن يفقد حياته في صنعاء على يد الأمير الناصر الذي لا يرحم، وما نجا سوى بفضل مناشدتي الأمير أن يتخلص من عائلتي، كنت أعرف أن الأمير سوف يطلق سراحهم حين أطلب منه قتلهم، وقد حدثني أبي لاحقا عن امتنانه على هذه الحركة التي قمت بها سواء جاءت عن قصد أو دون قصد. وهكذا ظل وهلة يتصفح الرجل المجروح الذي تغيرت ملامحه، ما لبث أن صاح مداريا سخطه:

ـ أنا راحل إلى قريتي، لا أريد أن أسمع مزاحك الثقيل.

رفع عصاه في وجهي محذراً على نحو متعمد لا يوحي بالجدية، ثم انصرف والرجال إلى قريته وهو يقهقه بصوت عالٍ ليوحي أن للمزاح في الهضبة نكهة خبيثة، بعد ساعة من الزمن عاد وحيداً، ظهر مباعداً خطواته متجهماً كأنه مقبل على مواجهة حاسمة مع شخص ما، حين وصل قال لاهثا بصوت طافح بالكدر:

ـ أحذرك يا بني أن تمزح أمام هؤلاء المشردين في قريتي، فألسنتهم ثرثارة.

ـ أنا لا أمزح، هذا الأمير الناصر.

ـ كيف جاء إلى هنا؟

أغضبني جهله بالأمر، فقلت سائلاً:

ـ كيف جئت أنت وأنشأت قريتك؟

ـ جاء أناس غريبو الأشكال، وأخذوني وعائلتي وجلبوا المال والعمال وشيدوا القرية، ببساطة، أنبئوني أن أستعيد أملاكي، توقعت أن الأمير الناصر شعر بالذنب.

ـ كلا لم يشعر بالذنب، أولئك الأشخاص هم من الشياطين. هل تريد أن أظهرهم عليك؟

صاح متوسلاً:

ـ كلا يا بني، أنا أصدقك، لكن كيف حدث ذلك؟

ـ أجبرني هذا التعيس أن أستحضر الشياطين بالمندل السليماني وشمس المعارف الكبرى.

اصطكت أسنان أبي ومضى يقول بتلعثم:

ـ رأيت عملية الاستحضار التي قام بها معلمك، وا مصيبتاه. ألم تصرفهم بعد؟

قلت بصراحة:

ـ ليس بعد.

انصرف أبي وهو يتخبط في مشيته ويتلفت وراءه وكأن هناك من يتعقبه، توارى في هضبته، لقد تخلى عني مرة أخرى، كنت أريده إلى جانبي، على الأقل، كان ينبغي أن يشير علي كيف أتصرف مع الأمير الأكبر والشياطين، لذا قررت أن أتصرف منفرداً.

٩

صرت أحث كاتبي الشيطان على تدوين تلك اللحظات الحاسمة من حياة الهضبة، وأمنيه بتحريره، وأقول له على الدوام: اكتب بضمير المتكلم بحيادية ومصداقية كل ما أمليه عليك، عن أتراحي وأفراحي وأحوالي الغريبة، حتى عن رغبتي الملحة أن أعيد الحياة إلى بدايتها، اعتبر نفسك كائنا غريبا محايدا ، لا شيطانيا ولا بشريا... كان أحياناً يتلكأ عند بعض المقاطع والعبارات التي تشير إلى نواياي الخبيثة في تدمير العقل البشري، بحيث ترتسم الكآبة على قسمات وجهه الزائف الغريب، يهز رأسه بخبث كمن يدرك أنني أغذيه بالأكاذيب، مع ذلك يواصل الكتابة بارتباك وإخلاص، ما بقي من وقتي أمضيه قريباً من كاملة، أحفزها أن تتخلص من خوفها وقلقها، وأخبرها إن كل شيء تحت السيطرة.

باتت تخشى النظر في وجه الأمير الناصر، أخذت أشجعها أن تلقي في وجهه نظرة ازدراء وتحدي، كانت تبتعد عن الشجرة بفزع، معتقدة أن مسدسه مازال محشواً مختبئاً بين ثيابه، كنت أؤكد لها إنه موثق المعصمين والقدمين متدلٍ على الشجرة كخفاش صغير.

أخذت تتماثل للشفاء دون أن أشعر، حين رأيتها توشك أن تهرول طلبت منها بلؤم بشري أن تتظاهر بالمرض، حذرتها من الجري خلفي في الهضبة، لأن عيون الشياطين ترصدها وتنتظر تلك اللحظة بنفاد صبر، تعاهدنا على أن تثق بي، وتوافق على جميع خطواتي وأفعالي، حتى وإن بدت لها غريبة وخرقاء، مدت راحتها البضة وأقسمت على أن تقف إلى جانبي، دهشت كيف فعلت ذلك

دون أي تردد أو خوف، ذات يوم استطعت أن أقنعها بالاقتراب من الأمير الناصر، لكنها لم تقترب حتى نفضت ثيابه أمام عينيها، كنا جالسين نتحدث بصوت خافت عما نعمل به، هل نحرره أم نبقيه أسيراً في الهضبة أم ندع الشياطين يلقون به في صحراء نائية أو جزيرة مهجورة؟ كان الأمير الناصر آنذاك مفكوك الأصفاد مكوماً على الأرض كالميت، ولم تندمل جراحه بعد، وإذ ذاك سمعنا المنادي يهتف من هضبة والدي:

" يا أهالي قرية سرحان، لقد قررت العائلة الأميرية الشريفة في اجتماع البارحة أن يكون الأمير إسماعيل بن القاسم أمير البلاد الأكبر، وصار في يده الأمر والنهي، فالولاء الولاء والحذر الحذر، على الجميع السمع والطاعة للأمير المبجل إسماعيل بن القاسم وقد أعذر من أنذر ".

فوجئنا بالأمير الناصر يفز من غيبوبته الطويلة مرعوباً، فاتحاً عينيه إلى الآخر، ثم نظر إلى مصدر الصوت صائحاً باستنكار:

ـ كيف ينصبون أميراً على البلاد وأنا حي!

أخرستنا الدهشة، أدركنا أنه يمثل علينا دور المعذب الخائر القوى، ويجعلنا نظن على الدوام أنه غائب عن الوعي، لا أحد يدري ما كان يروم أن يفعل، ما لبث أن نظر إلينا بلؤم مردفاً:

ـ انظرا أيها الخبيثان كيف ساءت الأمور بسبب إصراركما على اعتقالي وامتهاني.

قلت ببرودي المعهود:

ـ أي سوء في أن يختاروا أميراً أكثر اقتداراً منك!

صاح بصوت خارق وهو يوشك على البكاء:

ـ أي اقتدار في إسماعيل بن القاسم، إنه ضعيف رعديد فاقد العزم.

ـ لا أظن ذلك صحيحاً، لن يجتمع رأي أمراء العائلة الأميرية على شخص رعديد.

ـ فليواجهني إذا، وستريان أني على حق.

صحت بصوت آمر:

ـ اجلبوا الأمراء والأميرات المؤهلين للاجتماع.

قفزت كاملة من موضعها بحركة سريعة مفعمة بالحماس، وقالت بفرحة عارمة:

ـ أحسنت صنعاً يا سعد، أريد أن أرى أمي وأشقائي.

تلبد وجهي جزعاً، ليس بفعل الخطأ غير المقصود بجلب جميع الأمراء والأميرات المؤهلين، مع أني أردت فقط المشاركين في الاجتماع الذي تم فيه تنصيب الأمير إسماعيل أميراً للبلاد، بل جزعت بفعل تلك القفزة التي قفزتها كاملة، أيقنت أن الشياطين اليقظين لن يغفلوا عن هذه القفزة السريعة، وسيأتون مطالبين بتحريرهم حسب الاتفاق.

فجأة تكلم الأمير الناصر موجهاً عينيه نحو الأرض:

ـ لن تستطيعي أن ترين أحداً منهم.

تشنجت عضلات فكيها ولم تستطع أن تحري جواباً، فقلت بسخط:

ـ لِمَ تقول ذلك؟ أستطيع أن أجلبهم إليها الآن.

ـ لا تستطيع، لأني تخلصت منهم جميعاً.

قال ذلك بهدوء وبساطة كأنه تخلص من كوم أثاث متهالك، قلت بالكاد:

ـ والأطفال.

ـ الجميع.

صحت بملء صوتي:

ـ أعيدوه إلى وضعية الخفاش، انكشوا جراحه القديمة وغطوه بطبقة من الفلفل المحرق.

سقطت كاملة مكومة على الأرض بلا حراك، هرولت إليها واحتويتها بذراعي، وألقيتها بلطف على سريرها، جلست أتحسس نبضها، وأفرد أصابعها، وأدس أصابعي المتوترة وسط خصلات شعرها الناعم، كان جسدي يرتجف حقداً وخوفاً، لم أمر بموقف مثل هذا من قبل، صرت أسمع صوت صراخه وعويله كأغنية تغذي روحي بالسلام والارتياح، بعد قليل جلب الشياطين مائتين أميراً وأميرة إلى الهضبة، صحت بحقد مرير:

ـ علقوا الذكور دون السبعين عاماً على الشجرة، دعوا الأمير إسماعيل قرب اللعين الناصر.

تنحى جانباً خمسة وعشرون شيخاً وخمس وتسعين امرأة، مالوا نحو الأميرة كاملة وحفوا حولها مبتهجين ومندهشين بسبب المفاجأة، في حين طار ثمانون أميراً إلى فروع شجرة التالق، كانت وجوههم قاتمة ذاهلة بفعل اختطافهم بطريقة سريعة غريبة ووصولهم إلى مكان مجهول قرب شجرة مهيبة عملاقة، سرى الهلع في وجوههم عندما علقوا على فروع الشجرة الضخمة بطريقة غامضة، صاروا مكدسين هناك كالخفافيش العملاقة، ظلوا

يصرخون مصوبين نظراتهم المقلوبة نحوي، ويتحدثون إلى بعضهم متسائلين عما يجري، فجأة رأوا الأمير الناصر، وجرى حوار غريب بين الأمير الأكبر السابق والأمير الأكبر الجديد، بدأ الأمير الناصر الكلام صائحا بألم مخاطباً الأمير إسماعيل:

ـ هكذا يا إسماعيل، تجرؤ على احتلال منصبي.

رد الأخير قائلا بنزق:

ـ أخبرني ماذا يجري هنا أيها الأمير الغائب!

ـ هذب ألفاظك يا إسماعيل حين تخاطبني، أنت تتحدث إلى أمير البلاد.

ـ أنت مضحك حقاً، لازلت تظن نفسك أميراً للبلاد، بينما أنت متدلٍ كثمرة عبثت فيها العصافير بمناقيرها الحادة.

ـ وأنت أيضاً متدلٍ كالخفاش وجميع المتآمرين.

ـ كف عن هذا الهذر الفارغ، انظر إلى نفسك، ها قد صرت عاجزاً ضعيفاً، لم يعد هناك من يناصرك أو يتذكر شكلك.

ـ هل تبارزني ومن يتغلب على الآخر يكون أميراً للبلاد؟

أوشكت أن أضحك حين سمعت ذلك، وصحت آمراً:

ـ ضعوهما على الأرض لكي يتبارزا.

استقاما على الأرض، ظلا دائخين للحظات، ولما عاد توازن جسديهما، أمسكا بعضهما كالأطفال النزقين، وصارا يتدحرجان على الرمل وسط دهشة الأمراء الذين فكروا أن من كان يحكمهم طيلة أعوام طويلة هم أشخاص على هذه الشاكلة حمقى مثيرون للشفقة، تبادلا اللكمات والركلات، وكل منهما نفض حقده على

الآخر بكل ما يملك من قوة بدنية، حتى كلّت سواعدهما ووهن جسديهما فصارا يتبادلان العض والخمش بالأظافر حتى سالت منهما الدماء، هذا ذكرني بقتال دار بين ديكين فتيين في قرية الرباط، ظلا يتقاتلان بعناد ومكابرة من الصباح إلى المغيب، حتى لاحظ الأهالي وشكلوا حلقة كبيرة حولهما، في النهاية أتى صاحباهما وسحباهما بعيدا قبل يصيرا عشاء الثعلب.

طلب الأميران الراحة قليلاً، ثم استويا يقتتلان بضراوة أكبر من ذي قبل، قتال ممتزج بالحقد وحب السيطرة لم أر مثله البتة، لا يشبهون الأطفال الذين سرعان ما ينسون الشجار بعد لحظات، ومن ثم يعودون للعب ثانية، لكن القتال هنا استمر، اتضح أن كلًا منهما يملك قوة موازية مماثلة لما يملكه الآخر، كلاهما اتسم بالعناد والقوة والمكابرة، عجبت كيف مازال في جسد الأمير الناصر ذلك الزخم الكافي من القوة رغم شيخوخته وما أصابه من عذاب على أيدي الشياطين، كان يقاتل مستميتاً على منصبه مثل لبؤة تحمي أشبالها من نمر جائع، حتى أوشكت أن أظنه شيطاناً متنكراً.

بعد مضي ساعات من العراك الجاد أنهك الأميران معا، بدا جسداهما خائرين عاجزين عن الاستمرار، نظرا بتوسل نحو الأمراء ليفصلا بينهما، لكنهم بدوا جامدين غاضبين يفكرون في تمزيقهما إربا، سرعان ما رمقاني بإعياء لأوقف القتال، كانا يريدان ذلك من صميم قلبيهما، لم يجرؤ أي منهما أن يبادر بإعلان تراجعه حتى لا يعد ذلك تقهقراً وانتصاراً للطرف الآخر، حين رأيت أنهما نالا حظهما من الذل تقدمت نحوهما، وفصلتهما باشمئزاز، قائلا باستهجان:

ـ أنتما مهزومان سوياً ولا تصلحان لقيادة عدد من القطط المنزلية، (والتفت إلى الأمراء) على من يرغب في ترشيح نفسه ليقود البلاد أن يتقدم..

رفع عشرة أمراء أيديهم وتقدموا إلى الأمام، طلبت منهم أن يتبارزوا، فحدث بينهم قتال ضارٍ حتى سالت الدماء وغمرت أجسادهم، وظل الصراع قائماً دون أن يحسم، في تلك الأثناء، فطن الشياطين إلى خطتي في إلهائهم عن حقهم المستحق في تحريرهم بعد أن تعافت كاملة ورأوها تقفز تلك القفزة السريعة، فجأة ارتجت الهضبة بشكل عنيف فوقعنا جميعاً كفروع أشجار تهوي على الأرض، اشتعلت النيران في أرجاء المكان، وارتفعت أصوات الشياطين الفجة المتوعدة حتى شعرنا برؤوسنا تتناثر إلى أجزاء صغيرة، ظن الأمراء الذي يجهلون ما يجري إن اليوم الموعود قد حان، وأن ملاك الصور قد نفخ بالبوق مؤذنا بالنهاية، لم تهدأ الأمور حتى صحت بأعلى صوتي قائلاً:

ـ أمهلوني لحظات قلائل، ضعوا الأمراء العشرة على الشجرة.

فكرت في تلك المهلة الوجيزة أن الشياطين عرفوا ما يدونه كاتبي، ظننت أيضا أنه أفشى أسراري، ثم عدت إلى نفي هذا الاعتقاد، لأنهم مكلفون بطاعتي بموجب الرموز التي قرأتها في المندل، ولا يجرؤون على خيانتي، لكن الشياطين لم تحمل اسمها من فراغ، فهم صنيعة بشرية، ويستطيعون التلون والتمثيل والخداع مثل البشر، لأجل هذا خشيت على أوراقي من السرقة أو المصادرة، فالبشر يفعلون ذلك، يصادرون الكتب والأوراق التي لا يجدون فيها ما يتواءم مع أفكارهم ومعتقداتهم، هكذا فكرت، لذا صحت طالباً الكاتب، وأمرته أن يسلم الأوراق التي في حوزته، ففعل بخنوع عجيب، وهو مطأطئ الرأس كالمذنب، قلت له:

ـ أنت حر الآن، سأكتب أوراقي بنفسي، سأواصل كتابة الجزء المتبقي بضمير المتكلم.

كان نذير الخطر يدق في أعماقي، صنعت دائرتين سحريتين متجاورتين بعيداً عن الشجرة، لأنها أصبحت سجناً للأمراء المتصارعين على حكم البلاد، حملت كاملة المنهارة إلى وسط دائرتها، وصحت على الشياطين الطيبين الذين مازالوا تحت طاعتي:

ـ أعيدوا الأميرات والأمراء الشيوخ إلى قصورهم.

علا صوت رهيب رج الهضبة رجاً:

ـ كلا، لن نفعل، أعيدنا إلى أوطاننا.

ـ أريد أن تفيق كاملة.

ـ حاضر، سنجعلها تفيق.

سرعان ما فتحت عينيها، فظهر أولئك الأشرار بصورهم الحقيقية الرهيبة، بحيث تساقطت قطرات البول من أجساد الأمراء المعلقين على الشجرة، كانوا مازالوا في وضعية الخفاش لا يرون بشكل صحيح، يشاهدون صوراً معكوسة لكائنات مخيفة عملاقة تملأ الهضبة، ما إن رأتهم كاملة حتى عادت إلى حالة الغيبوبة السابقة، فطنت أنهم يحاولون إهلاك رفيقتي والضغط علي لأرضخ، رحت أصرفهم بالتعاويذ، لكنهم سرعان ما يعودون صارخين متنمرين أكثر من ذي قبل، في النهاية رفعوا هاماتهم فصاروا بارتفاع الجبال الشاهقة، حاملين بأيديهم صخرات بحجم منزل أبي العملاق، صرخوا معلنين الحرب عليّ، أضحت الهضبة تميد بنا كأنها واقفة

فوق مرجيحة، وخشيت ألا تصمد الدائرتان السحريتان، وأن نسحق تحت الصخرات، فضممت كاملة إلى صدري ورحت أصرخ:

ـ حتى تفيق، حتى تفيق.

ترددت أصواتهم الهادرة:

ـ أنت تماطل أيها الساحر اللعين.

ـ تمهلوا، الأمر صعب علي.

صرخوا بهوس:

ـ كيف تجمعنا دون أن تعرف رموز تفريقنا؟ أنت مخادع، أنت كاذب، أنت ساحر لعين.

قذفوا صخرة عملاقة تجاوزتنا ووقعت على الشجرة، سمعت صرخات المعتقلين الأخيرة، عرفت أنهم انسحقوا تحت ثقلها، صحت عليهم بسخط:

ـ أنتم مجانين.

ـ بل أنتم ستتحولون إلى مجانين.

قذفوا صخرات أخرى لكن تميمتي وتميمة كاملة كانت تصدها، فتقفز في الهواء بعيدا عنا، صحت عليهم بعنف:

ـ لا تستطيعون النيل منا.

ـ سننال من أهاليكم وجنسكم البشري، هل ستحررنا؟ هذه مهلتك الأخيرة.

هززت رأسي بعناد:

ـ لا، لا أبالي بالعقل البشري الذي دمر جسدي.

ـ انتظر أيها الساحر اللعين.

في تلك الأثناء نصبوا على الهضبة شاشة عملاقة من صنع البشر، ظللوها بظلالهم الرهيبة، فأصبح النهار ليلاً وكأنهم حجبوا الشمس بأجسادهم، وتابعوا مرعدين:

ـ سنريك عواقب فعلتك السوداء، سوف نعطب عقول البشر، إذا أردت أن نتراجع يمكنك أن تأمرنا بالتوقف.

ـ أنتم تنتحرون.

ـ لا يهم، سترى عودتكم إلى حالة البله الأولى بواسطة هذه الشاشة التي ابتكرتموها أيها الحمقى، ستضيع عقولكم ثم تنقرضون، على رفيقتك أن تشاهد ما يجري، فهي أرق قلباً منك.

ضحكوا بهستيريا وتشفٍ، وقاموا بإنعاش جسد كاملة، فأفاقت وهي تتلفت حولها باستغراب، فجأة أضيئت الشاشة وأول مشهد رأيناه هو قرية والدي سرحان، ظهرت صور الرجال وهم يعملون في الحقول باطمئنان، والنساء وهن يجلبن الماء من البئر القديم، صوروا ضحكات الأطفال وهم يلعبون بالطين ويتسابقون في الباحات الصغيرة، ظهر أشقائي الستة وهم يلعبون بالكرة قرب المنزل الكبير، استمر المصور الماكر يعرض وجوههم مركزا على إبراز تعبيرات ملامحهم وضحكاتهم وفنونهم في اللعب وتسديد الكرات بأقدامهم ورؤوسهم، سمعنا أصواتهم البريئة، ببساطة كانوا جاهلين بما يجري، انسحق قلبي، حين اقتربت منهم أشكال ضخمة رهيبة كتب تحتها بخط عربي واضح:

ـ الانتحاريون الذي سيعطلون عقول أشقاء الساحر اللعين سعد.

ظهرت صورة أمهم مريمة على النافذة، وهي تراقبهم بإعجاب، كان قلبي يتمزق داخلي، لأني لم أجد الوقت الكافي لمقابلتهم والتحدث إليهم كما يليق بالأشقاء أن يفعلوا، حملت هذه الرغبة في صدري منذ سنوات، أظنهم فكروا بشقيقهم الساحر الشقي، لكن الظروف كانت تحول دون اللقاء، هل حان لهذه الآصرة الإنسانية أن تنقطع بزوال العقل؟ لا أعلم، بكيت حين هجم الشياطين الانتحاريون عليهم، تحولوا إلى دخان أصفر متناثر، وتسللوا عبر أنوفهم وآذانهم وأفواههم المفتوحة، تغلغلوا في رؤوسهم رويداً حتى اختفوا، راح أشقائي يتخبطون على الأرض فأقفلت عيني مشمئزاً، وصرخت كاملة عليّ بصوت فظيع:

ـ أيها اللعين، ماذا فعلت بعقول الناس؟

صحت بصوت متشنج:

ـ أين كانت عقولهم حين ساموني العذاب، وقتلوا عائلتك؟ البشر مجانين أصلاً، يسحقون بعضهم بعضاً، هذا العقل البغيض يصنع الآلام والشقاء، هناك ملايين المشردين يلتحفون الأرض في الليالي السوداء الباردة، وهناك من ينامون على فُرُش من فرو الحيوانات ويملكون آلاف القصور الخاوية، لذا ينبغي أن نعود جميعا إلى رحم الأرض لنتأهل من جديد، ونتطور بشكل لائق، ونعيد رسم عاداتنا وتقاليدنا بشكل سليم.

صاحت بغضب:

ـ وما أدراك؟ لعلهم يعودون على شاكلتهم الأولى!

ـ إن لم يستفيدوا من تجاربهم سيأتي شخص معذب آخر ليعيدهم مرة أخرى إلى رحم الأرض بلا عقول أو مال.

ـ أنت مجنون.

ـ هذا صحيح، الجميع مجانين، لن ينجو أحد.

لاحت مريمة وهي تصرخ باكية فوق أجسادهم المرتعشة طالبة المساعدة، ثم ظهر أبي متسائلاً، وانطلق نحو الباحة مترنحا رافعاً عصاه في الهواء مثبتاً سلطته وكبرياءه، فاعترض طريقه شيطان انتحاري، ورأيته يتخبط على الأرض، ثم تحولت الصورة إلى مريمة، رأيتها تتخبط أيضاً، أقبل الأهالي لإنقاذهم، وهم يجهلون ما يجري، فأخذت الشياطين تصطادهم حتى آخرهم، رأيناهم فاغري الأفواه كالبلهاء، نظراتهم ضبابية طائشة، يقفزون ويتنططون على الأرض دون هدف، ما لبثوا أن مزقوا ملابسهم كأنها تشكل عبئاً عليهم، أو تظهرهم على نحو غير لائق، حتى أضحوا عراة يسيرون ببلاهة، أخذ البعض يصعدون على الأشجار الشوكية ويأكلون أوراقها بشهية مفرطة كما كانوا يأكلون من قبل الكعك المعجون بالبيض والسمن والحليب، البعض الآخر صعدوا على سطوح المباني وهم يطلقون الصفير والإشارات الغريبة، حتى مئذنة المسجد صعدوا عليها.

كشفت الصور بمزيد من التبجح والتشفي طريقة تبولهم وتغوطهم وقوفاً كالبهائم، صوروا أعضاءهم التناسلية، وتناسلهم، أظهروا الرجال يتنافسون ويتعاركون حول مؤخرات النساء البضة، حتى حشروا أعضاءهم في فروجهن دون مواربة أو خجل، كان العراك يدور دائما بين الذكور الأقوياء، حتى يفوز أحدهم بالأنثى الجامحة فيما يتراجع الآخرون فارين باحثين عن نساء أقل جموحا وإغراءً، ظلت الصور تصعد نحو قرى أعرفها مثل مزنة وقتاب والخربة وسيلان، أظهروا صور شقيقاتي عاريات، يغتصبهن الذكور الأقوياء، راح الشياطين يهجمون بالمئات على أجساد أشخاص

مجهولين في قرى ومدن غريبة، رأيتهم في رصابة يهجمون على نزل المسافرين، ويعطبون عقلي لوزة وولدي سعد وحمامة والنزلاء، على هذا النحو تمر الصور ويزيد عدد الشياطين المنتحرين، وعدد البشر المعتوهين، كنت أعرف أنهم يتناقصون من الهضبة، ويموتون، وتتوالى صور المدن والقرى والمتخبطين بسرعة أكبر، حتى تحولت مثل أشعة الشمس الساقطة على الشعاب والجبال وقت شروقها، لم تمض ساعة من الزمن حتى صاح الشياطين قائلين بصوت مهيل:

ـ انتهينا من بلادك.

انتقلت الصور إلى البلدان المجاورة، وتوقفت في مكة عند البيت المقدس ليبالغوا في إيذاء مشاعرنا كمسلمين، رأيت الآلاف من الحجيج المؤمنين يرمون ملابسهم البيضاء ويسيرون عراة حول بناء مكعب الشكل موشى بكسوة من الحرير الذهبي، ما لبثوا أن مزقوا الكسوة المقدسة وتسلقوا البناء الموقر، ونثروا بولهم على جدرانه المنقوشة بالآيات الكريمة، ثم عاشروا النساء على سطحه الجليل، توقفت الصور على هذه المشاهد المؤذية، حتى انتحبت كاملة وصاحت بصوت مخنوق:

ـ إنهم يعيثون فساداً في الكعبة الشريفة، وهي أكثر المعابد قداسة في المعمورة، لقد زرتها ووالدي قبل سنوات قلائل.

لم أكن أعرفها، لكن مزيجاً من الحزن سيطر عليّ، ربما انتقل إلي من جسد امرأتي المحزونة، فقلت:

ـ ما أهمية الحزن لأن كل شيء سيعود إلى أصله.

صرخت بانكسار:

ـ أنت تتحمل مسئولية كل هذا الدمار.

ـ بل الأمير الأكبر، وأنتِ، ومعلمي، وكل شخص في الأرض مسئول عما يجري، حتى الشياطين.

علت ضحكات من تبقي من الشياطين في أرجاء الهضبة، فتابعت مبرراً فعلي العنيد:

ـ الآن رؤوس هؤلاء الناس خالية من جميع الخزعبلات والأوهام، نظيفة من القذر.
سألت كاملة بغضب:

ـ ماذا تعني؟ هل تظن أنني سأجرؤ على التحول إلى كائن عارٍ معتوه كهؤلاء؟

ـ على كل حال، لن تجرؤ الشياطين على الاقتراب منا بفعل التميمتين اللتين نحملهما في عنقينا.

قالت باهتمام:

ـ هذا أمر يبعث على الاطمئنان، لن نتخل عن تمائمنا.

ـ لا أعرف! لا أظن أن بوسعنا الاحتفاظ بعقلينا وسط هذا العالم المجنون.

ـ إن شئت أن تُجَن هذا شأنك، أما أنا فلن أتخل عن تميمتي.

ضحكت الشياطين ثانية، ثم عرضوا علينا أجمل المدن في الشرق، وأكثر المنتجعات والسواحل جمالاً، كذلك المعابد البوذية واليهودية وكنائس الأرثوذكس العملاقة وقصور القياصرة الروس التي يحف بها الجلال والأبهة، والمدارس والشوارع المكتظة بالبشر والمركبات، وكل شيء. كانوا يكتبون أسماء الأماكن على الشاشة

الضخمة، لكن لم يكن هناك وقت لمتابعة المسميات والأشكال، انتقلوا بعد ذلك إلى مدن الغرب، أحزنني مشهد التلاميذ الآمنين الذين يقيمون طوابير الصباح على أفنية المدارس، شاهدت مناظر سياحية خلابة أصبحت فجأة عديمة الجدوى، وأطباء في المستشفيات يتحولون ومرضاهم إلى عراة، بحيث يغادر المرضى أسرتهم زاحفين ببطء وسط الممرات في طريقهم إلى العراء دون أن يكونوا قد تماثلوا للشفاء بعد، هاجموا الناس في المطاعم والحمامات العامة ودور الأوبرا والحدائق والمراكز التجارية، ثم لاحقت الشياطين البشر إلى فوق مركبات طويلة كتب تحتها لفظ القطارات، وأعطبوا عقول سائقيها فخرجت عن خطوطها الحديدية، واصطدمت بقطارات أخرى وتناثرت أجساد رُكّابها.

أخيرا يدرك المجتمع الغربي أن هناك حالة غريبة غامضة تحدث في العالم، فترتفع أصوات صفارات الإنذار في كل مكان، وتنطلق الطائرات المقاتلة من المطارات العسكرية، وتتحرك الأساطيل في البحار، وتطلق البوارج صواريخها في الهواء لإنذار الغزاة الفضائيين بالابتعاد، وتنزل الجيوش بعدتها وعتادها الثقيل قاطعة الطرق مقيمة الحواجز على مداخل المدن الكبرى، حين ذلك، تتقدم فرق المسوح البيولوجية لتسلط إشعاعاتها المبتكرة وعدساتها الدقيقة على الأجساد الخفية والدخان الأصفر الذي يتصاعد في الهواء، بغية اكتشاف ماهية هذه الأدخنة، ومصادر انبعاثها وأضرارها وتأثيراتها على البشر، لكن تلك الغمام الأصفر الكثيف لا يمهلهم ثوانٍ عديدة لاكتشاف ماهيته، بل أعطب عقول أولئك الباحثين في لمح البصر، ورغم عدم إيمانهم بهذه الظواهر، فقد تكهنوا أن مصدرها قوى شيطانية غامضة، بحيث شرعوا يفكرون باستيراد خبراء روحانيين من دول شرق آسيا، أو من الهنود الحمر للكشف عن سبب هذه الظاهرة الغريبة التي تصيب الناس بالتخبط

والجنون، وانطلقت طائراتهم للبحث عن أشهر السحرة والروحانيين في العالم، لكن طائرات المبعوثين لم تصل إلى وجهتها، بل سقطت في مياه المحيطات، لم تلحق معظم وسائل الإعلام للتطرق ونشر الخبر بين المواطنين، شاهدنا المذيعين يتخبطون وسط شاشاتهم الصغيرة التي كتب أسفلها بخط صغير:" تحذير عاجل، فيروس مجهول يضرب الأرض ويصيب العقل البشري بفقدان التوازن والجنون، على الجميع إقفال النوافذ والأبواب وفتحات التهوية والبقاء في منازلهم ومتابعة وسائل الإذاعة والتلفزيون حتى تزول هذه الظاهرة الغريبة".

في مصانع الحديد الصلب شاهدنا الحديد الذائب وسط قوالبه الضخمة يصب وسط خزانات كبيرة، ثم ينقل على زحّافات عملاقة ذات إطارات كبيرة نحو مصانع الأسلحة، رأينا مدافع الهاون التي شردت حيواناتي وحطمت شجرتي، وهي تتشكل وتصنع بواسطة آلات ميكانيكية معقدة، كان العمال حولها يلبسون ملابس غريبة، ويعتمرون الخوذ على رؤوسهم، لم يكن عليهم في الغالب سوى توجيه الآلات الضخمة وضغط بعض الأزرار، كم كانت فرحتي وهم يتخبطون، ابتسمت بتشفٍ وفرح، لكن الشياطين قطعوا الصورة سريعاً، لأنهم لم يفعلوا ذلك لكي أكون سعيداً، بل ظنوا أني سأظل حزينا على كل شخص يفقد عقله في العالم حتى لو كان عاملا فنيا في مصنع سلاح! انتقلت الصورة إلى قمرات القيادة في الطائرات المدنية التي مازالت تحلق في الهواء وعليها مسافرون آمنون من بلدان مختلفة ينعسون في سكينة، أو يطالعون الصحف والمجلات أو يتابعون أفلاما على شاشات صغيرة نصبت أمامهم للتسلية وقضاء وقت ممتع لحين ساعة الوصول، لكن الشياطين الماكرين لم ينتظروا حتى يهبطون بل تقدموا نحو الطيارين، ودخلوا رؤوسهم، ورأينا الطيارين البلهاء يحطمون الشاشات

والأزرار التي أمامهم بجنون، أصابني حزن كبير حين كانت تلك المركبات الطائرة تهوي، كان ركابها المرعوبين يصرخون، فأغمضت عيني تفاديا لمشهد اصطدامها بالأرض، كما هاجم الشياطين المصطافين في الشواطئ، وهم خليط عظيم من الرجال والنساء الذين استلقوا عرايا دافنين أقدامهم على الرمل مستمتعين بالدفء الذي يأتي من الشمس وباطن التربة، كذلك غزا الدخان الأصفر الشوارع القذرة والمشبوهة والمواخير ورؤوس المومسات الملطخات بالمساحيق الواقفات على الأرصفة بانتظار أصحاب المركبات الفارهة الذين لا يجيدون صنع العلاقات الحميمة مع النساء، أو لا يجدون الوقت لفعل ذلك.

دخلوا أيضا إلى رؤوس السكارى والراقصين الذين يتمايلون بهوس على وقع موسيقى صاخبة، لم يفعل الشياطين سوى القليل لإعطاب عقولهم القريبة من الجنون، فألقوا ملابسهم وأخذوا يتخبطون برقصة جديدة هي الأغرب بين جميع الرقصات، ظهرت الشياطين بسخرية قرب شاشات كبيرة نصبت على جدران صالات عرض كبيرة مكتظة بمتفرجين يجلسون في صمت مطبق وسط عتمة مفرطة يشاهدون آخر الأفلام السينمائية، عرضوا علي وكاملة مشهدا من صالة سينمائية تبث فيلم فنتازيا عن كائنات خفية تهاجم المدن الأمريكية الكبرى، في حين يسعى أبطال الفيلم لإنقاذ الحياة البشرية، وإيقاف الكائنات الشريرة، مقدمين في سبيل ذلك تضحيات جسيمة بشرية ومادية، فيُصاب بالسوء أناسٌ مجهولون يسيرون في الشوارع باطمئنان، أما الأبطال فلا يصابون سوى بجروح طفيفة، ثم يخرجون منتصرين، وينتهي الفيلم بالتقاء البطل وحبيبته أو امرأته وأطفاله ويخططون لقضاء الصيف في إحدى جزر الكناري أو هاواي.

كان الجمهور في الصالة مستمتعاً متوتراً بالأحداث القريبة الشبه بما كان يدور في تلك البرهة بالأرض، فجأة تظهر أمامهم الشياطين البشعة كأنها انبثقت من الشاشات المضيئة، لا يصدقون عيونهم وهم يشاهدون الكائنات الشريرة التي يتفرجون عليها تلوح أمامهم، يظنون أنها خدعة سينمائية، حتى تنطلق أولى صيحات الفزع في القاعة، حين ذلك يفرون نحو المخارج، ويقضى البعض دهساً تحت الأقدام، تحدث فوضى عارمة بغية النجاة، لكنهم لا ينجون من الجنون، قلت لنفسي بإشفاق: يا له من عالم متوحش، اللعنة على الشياطين. فجأة ظهر على شاشة الهضبة رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وهو يدلي بتصريح مثير أمام وسائل الإعلام، مؤكداً أن ما سيقوله ليس جزءاً من فيلم هوليودي مرعب، بل ظاهرة حقيقية غريبة غامضة تتعرض لها الأرض، وستقوم الولايات المتحدة الأمريكية بدورها الفاعل في الكشف عن مصدر هذا الفيروس، هل هو بيولوجي صنع في بعض الدول الإرهابية المعادية للديمقراطية كالصين وإيران وكوريا الشمالية؟ أم طبيعي نتج عن سلسلة من التفاعلات في دورة الحياة؟ أم غازات سامة غريبة تطلقها كائنات فضائية أكثر تطوراً من البشر تعيش على كواكب أخرى مجهولة، و.....

لم يكمل الرئيس، إذ أصيب بهذه الحالة وصار يتخبط ويمزق ملابسه، بالكاد استطاع المصورون إبعاد العدسة عن جسده، احتراماً لهيبة المنصب السياسي، وتفادياً للفزع الذي سيثيره هذا في نفوس المواطنين الأمريكيين، كما ترون صرت أعرف كثيرا من المصطلحات الحديثة في عالم البرمجيات والحاسوب، وهذه المعلومات زودتني بها الشياطين قبل أن يقدموا على الانتحار، حدثوني عن خلايا حساسة وذاكرات تحفظ المعلومات تشبه إلى حد ما الذاكرة البشرية، حين تكون هذه الذاكرات ممتلئة أو مصابة

بالفيروسات، يتحتم إزالة محتوياتها وتهيئتها للعمل من جديد، عرفت أن الشياطين تقوم بإزالة محتويات العقل البشري، لكن دون أن تحتفظ بمعلوماته القديمة، بل تمحو الصالح والخبيث من الأفكار، وتصبح الذاكرة البشرية خالية مهيأة لاستقبال معارف أولية بدائية، ومن ثم يبدأ الناس حياتهم من الصفر.

لا أخفيكم أنني كنت أشعر بالندم حيناً وأحياناً بالتشفي، وكنت أدون ما أراه على الورق، ولا أصرف بصري وتفكيري عن الشاشة العملاقة، لا أدري من سيقرأ قصتي بعد أن يصاب الناس بالجنون، لكني دون شك مجنون، لأن كتابة قصة في لحظات دمار العقل البشري هو الجنون ذاته، ربما فكرت فيما بعد أن أترك هذا الأثر للأجيال المتطورة القادمة التي آمل أن تساعدهم أفكاري على تجنب أفكار البحث عما بعد الحياة، أتمنى أن يبتعدوا عن الغيبيات ويتخلوا عن فكرة الخلق والإله، وألا يفسروا الظواهر الطبيعية على أنها من صنع الغيب، أقصى ما أتمناه هو أن يدعوا الحياة تسير بشكل فطري دون الحاجة إلى مُثُل أو قيم أو نزعات أخلاقية أو إصلاحية، لأن عقولنا دمرت بفعل ارتفاع صراخ المصلحين والزعماء الروحانيين واحتدام وتيرة دعوات الخير والإحسان، وفي كل الأحوال، لم يفلح دعاة الفضيلة في تأليب قوى الإنسان نحو إقامة مجتمع بشري صالح، يستمد طاقاته من قوة كونية عليا غير مرئية، ذلك أن وجود البشر بلا أحقاد أو مشاكل لا يعطي للحياة أي معنى، لكن على الأقل يجب أن نهجر فكرة الإيمان، ونتحاشى صنع العادات قدر ما نستطيع، على الأقل يمكن أن يعيش الناس بلا حديد، بلا مدافع هاون، وبلا عقائد، دار هذا في ذهني بألم، فجأة صحت على من تبقى من الشياطين:

ـ أريد أن أدلي بتصريح لمن بقي من الناس.

صاحوا بتهكم مرير:

ـ أيها الساحر البغيض، أتريد أن تقول أنا آسف على ما لحق بكم من دمار، لم أفعل هذا، بل الشياطين هي من قامت بذلك؟

ـ لا، سأقول الحقيقة. أنا من فعل ذلك.

صاح الشيطان الأكبر آمراً أتباعه:

ـ نحن ملزمون بطاعته حتى آخر لحظة، انصبوا معدات التصوير وبثوا اعترافاته السقيمة للعالم، هذا أفضل.

جلبوا معدات تصوير غريبة، يمسكها شيطان يشبه مراسل قناة فضائية إعلامية بشرية، وجّه عدسات التصوير نحوي، ووضع ميكرفون الصوت أمامي، فقلت في تصريح مباشر أنطق به لأول مرة:

" أنا سعد، أخطر ساحر في الأرض، أحب أن تفهموا ما يدور فيها الآن، لأن لا شيء أصعب من جهل شيء غريب كهذا، ما يحدث لا علاقة له باليوم الآخر الذي يتشدق به رجال الدين، لقد فعلت ذلك بعد أن ضاقت بي السبل وحوصرت كحيوان جريح يجد نفسه محشوراً داخل حفرة، لقد ضربوا هضبتي وحيواناتي بأسلحة بشعة جاءت من بلدانكم التي كنت أجهل وجودها، دربوا فريقا كاملا من بلدان مختلفة لتعذيبي، أفلحوا في تدمير جسدي بواسطة معدات صنعت في أرضكم، لعلكم رأيتم صوري التي سربها أحد الجلادين، لم يحرك أحدٌ ساكناً، لأنكم لستم سعد، وأنا لست نجل أحدكم، اكتفيتم بتعليق صفقة السلاح لمدة وجيزة ريثما سكن غضب الناس، أنتم لا تعرفون الآلام التي تصنعها العصي الكهربائية، لم تنتف أصابع أطرافكم ولحم أفخاذكم وآباطكم بالكمّاشات المدببة، لم تجدع آذانكم وتقتلع أسنانكم وتُفقأ إحدى عيونكم، لم تجربوا مسحوق

الفلفل على جراحكم وأدباركم، لم تأكلوا الديدان والفضلات البشرية، ولم تشربوا المياه الراكدة والبول والقيح، لم تذوقوا شيئاً من الألم الذي تذوقه المعتقلون في سجون الأمير الناصر الذي لا يستطيع النوم إلا بعد سماع صراخ الألم من أفواه المعذبين، أنتم تنامون على ألحان الموسيقى الهادئة، وينام أطفالكم بعد سماع حكايات مسلية عن الملكات المصريات التي نقشت قصصهن على جدران الأضرحة في وادي الملوك، لا داعي لسرد تفاصيل كثيرة لأنني كتبت قصتي وسأدع الشياطين يلقون بها في موضع سيتم الكشف عنه بعد حقب زمنية قادمة، أتمنى أن تنشأ عقول أخرى وأمم وحضارات خالية من كتب السحر والدين لأنها ـ كما قال الساحر عوفان في إحدى وصاياه ـ تفرض على البشر الإيمان المسبق بما جاء بها، وهي أيضاً تفترض وجود الشياطين وتساعد على نشوئهم في عقول البشر، لهذا لا أحس بأي ذرة لوم أو تأنيب ضمير على ما فعلت، أنا نفسي متأهب للرضوخ لهذه التجربة الفريدة في العيش سواء بسواء مع جميع الكائنات الحية، أحب أن نعود إلى رحم أمنا الطبيعة متجردين من عبء تواريخنا السوداء وأوهام الخلود والعذاب والفردوس المنتظر، إننا سنصير أحراراً بجلود سمراء تلفحها الشمس وسينمو عليها الشعر وسنتكيف مع الطقس والفصول المتعاقبة، سوف نعيش في منزلنا الكبير الأرض بعيداً عن الجدران والأبواب والنوافذ، مع الحيوانات والأشجار التي ستنمو بحرية بعيداً عن الفؤوس والمناشير، إنها حقاً تجربة فريدة لا أريد أن يشكرني عليها المشردون الذين يعيشونها، ولا أن يمقتني الأثرياء الذين يظنون أنني نزعتهم من فوق أسرتهم وفُرُشهم الوثيرة... أتمنى لكم حياة سعيدة خالية من الأحزان والأفكار المريعة التي يخلقها عضو رخو شديد الحساسية والتعقيد يتخندق وسط الرأس، على الأقل سوف نرى أجسادنا على حقيقتها،

ونكتشف أكاذيب الدعاة والرسل والشياطين والآلهات، سوف ندرك أننا كائنات حية غير مقدسة، وأننا لم ننزل من السماء، وأن مكاننا الطبيعي، في رحم الأرض، وتلك المدافع والأسلحة المصنوعة من الحديد سوف تتجمد وتتحول إلى أشكال فريدة من الصخور، وربما تعثر عليها الأجيال القادمة إن قدر لها البقاء والتطور، ومن ثم تدرك إن هذه الأسلحة أدت إلى انقراض أسلافهم، سوف ينظرون إليها كما ننظر نحن إلى المتحجرات المتبقية من الديناصورات والكائنات القديمة التي عاشت في الأرض قبل البشر، سيتكهنون الحروب الشرسة التي دارت بين الشعوب والحضارات، أظن إنهم سيحملون أسماء أخرى غير لفظي "بشر" و"ناس"، وربما يتطورون بشكل مختلف إن قدر لهم البقاء، على رجال الدين ألا يظنوا أن هذا هو يوم القيامة الذي كانوا يوهمون الحمقى بقدومه وعلاماته، ما حدث هو حالة انتقام طائش من ساحر استطاع أن يفعل ما لم يجرؤ على فعله أسلافه القدامى، لأنه لم يكن مؤمناً بأي شيء على الإطلاق... نزع الشياطين الميكرفون من يدي وأبعدوا أدوات التصوير، صارخين بغضب:

ـ لا تعطلنا عن القضاء على ما تبقى من عقول البشر، دعنا نموت بسلام.

أجبت بصوت مفعم باليأس:

ـ لا أدري هل سمع الناس هذا التصريح، أريد ألا يقاوموا القدر أو يحزنوا، لأن فقدان العقل يعفينا من كثير من الالتزامات.

وأعقبت بارتياب:

ـ مع ذلك أخشى ألا أكون على صواب.

انفجر الشياطين ضاحكين بمرارة وغضب، أخبروني أن هذا ليس وقت الشك والتفكير بالعواقب، ما فائدة أن يفكر شخص يحتضر بأنه سيموت، ثم صاحوا بصوت هادر:

ـ أنت تتحدث عن المدافع والسلاح المصنوع من الحديد كأنه أعظم ما ابتكره الإنسان في المجال الحربي.

قلت بدهشة:

ـ وهل هناك سلاح آخر أخطر منه؟

انفجروا ضاحكين، ونظروا إلى بعضهم البعض متلذذين بجهلي، لهذا استحقوا كراهيتي الشديدة وسعيي في تدميرهم أيضاً.

***

لكي يثبتوا سذاجتي، قام الشياطين بتصوير أبشع ما ابتكره العقل البشري من سلاح مدمر، أظهروا مصانع كبيرة سرية، ومعامل ضخمة مستطيلة فيها أشخاص مكممون يرتدون ملابس واقية بيضاء، يقومون بتجارب غريبة مرعبة، ثم يحولون أفكارهم ونتائجهم الشريرة بواسطة شرائح صغيرة إلى الأقسام الصناعية، كان الشياطين الانتحاريون يرتعدون وهم يتسللون بحذر متقدمين في ممرات ضيقة معتمة، كتب على الشاشة بخط صغير:

ـ هناك عشر طبقات من البناء تحت الأرض.

دخلوا من فوهات حمامات وقنوات الصرف الصحي، وراحوا يصورون ما يدور في الداخل، ومجرد أن داس أحدهم على شيء ما انطلقت صفارات الإنذار من كل مكان في ذلك البناء الغريب، فاضطروا إلى الانسحاب، سرعان ما ظهر المئات من الجنود

المكممين بالملابس الواقية، وسلطوا الإشعاعات الخفية على الممرات المعتمة للمجاري، ثم راحوا يطاردون الأطياف بأسلحة غريبة، فخرج الشياطين في حال من الذعر، وراحوا يكتبون على الشاشة العملاقة ما يشبه المناشدة كأنهم يتحدثون إلى قائدهم:

ـ إنذارات المفاعل متطورة أيها الشيطان الأكبر، لذا لم نستطع اقتحام المكان.

كانوا ينظرون إلي كأنهم يوجهون إلي النداء، شعرت بالفخر رغم ما للفظ "شيطان" من تعبير مخجل لبشر صنعوا الشياطين ولا يحبون أن يطلق عليهم لقب شياطين، رغم أنهم يأخذون من صفاتها ويمارسون أعمالها الشريرة، كدت أن أرد محتجا على تسميتي بالشيطان الأكبر، لكن صوتا ضخما أجاب عليهم من الهضبة:

ـ تسربوا من الأعلى عبر منافذ التهوية أيها الحمقى، ادخلوا إلى قلب المفاعل بأي حال، سيطروا على عقول أولئك الأشرار، إنها عقول ذكية نادرة مليئة بالأسرار البغيضة ولا يجب أن تنجو.

دخلوا مرة أخرى عبر منافذ التهوية، متسللين ببطء حاملين معدات تصوير دقيقة يستخدمها البشر لاختلاس النظر إلى أسرار منافسيهم وأعدائهم، كنت أقرأ ذلك على الشاشة الكبيرة، وأدونه على الورق، ضحك الشيطان الأكبر من انكبابي على الأوراق كأنما يود أن يقول ماذا يفعل هذا البشري اللعين ومن سيقرأ ما يكتبه وما قيمة ذلك الآن؟ حقا إن البشر مجانين دون الحاجة إلى إفساد عقولهم! سرعان ما وجه إلي صوته الصارم:

ـ ماذا تكتب أيها الساحر الخبيث؟ انظر إلى الشاشة لترى القذارة التي تقترفونها، ثم تلقون اللوم على الشياطين.

نظرت إلى الشاشة، كانت هناك غرف سميكة جدرانها من الحديد، مليئة بما يشبه قناني ماء صاروخية الشكل، لكنها كبيرة الحجم مصنوعة من الحديد أيضاً، مزودة بحلقات معدنية وبأقفال مموهة ثقيلة، وبشاشات قياس مضيئة، وأشياء أخرى لا أستطيع تمييزها، قلت بغباء:

ـ هذه قناني كبيرة من الماء. أليس كذلك؟

ضحك الشياطين حتى اهتزت الهضبة بأصواتهم الفجة، ثم ارتفع صوت ما يسمى الشيطان الأكبر قائلا بازدراء:

ـ ليست قناني ماء أيها الساذج، لأن في الماء حياة مستديمة.

ـ ما هي أيها الفطن؟

ـ إنها قناني دمار شامل، يسميها البشر قنابل نووية.

لم أفهم كيف بوسع هذه القناني أن تدمر كل شيء، صاح الشيطان الأكبر موجهاً الأمر:

ـ اكتبوا على الشاشة تأثيرات هذه القناني.

رأيت على الشاشة بعض السطور، ولفرط دهشتي من تأثير هذه القناني صارت سطوري تنحرف وأصابعي الراجفة لا تستطيع السيطرة على الريشة الصغيرة التي كنت أغمسها وسط حبر بدائي من سخام الأسرجة، لم أصدق أن بوسع تلك القناني أن تقضي على شعوب بأكملها وعلى كل نبتة وحيوان.

أضاف الشيطان الأكبر آمراً وهو منتشٍ بالذهول والذعر المرسومان على وجهي:

ـ ادخلوا إلى القسم الأخير.

رأيت وجوههم المنتفخة وعيونهم الجاحظة وقرأت على الشاشة:

ـ لن ندخل أيها الملك.

ـ أتعصون أمري أيها الحمقى؟

ـ أنت توجهنا إلى الهلاك.

ـ وهل تظنون أننا ناجون؟ سوف نهلك بأي حال من الأحوال، قوموا بعمل بطولي قبل رحيلكم، أريد لهذا الساحر البشري اللعين أن يرى بشاعة العقل الذي ندمره.

صعدوا في طريق آخر، وظلوا يسيرون في ممرات ملتوية خفية، حتى تسربوا إلى قلب غرفة مضاءة بأضواء شفافة عليها اسطوانات وأنابيب غريبة محكمة الإقفال مكدسة بانتظام على ثقوب ومقابض جانبية وأعمدة قوية، صاح عليهم الشيطان الأكبر:

ـ الآن اظهروا بصوركم البغيضة.

ترددوا قليلا، ثم ظهروا بصورهم المشوهة، فجأة ذابت أجسادهم كما تذوب الشموع وسط النار، ونفخ الشيطان الأكبر وصاح بصوت صاخب زلزل الهضبة:

ـ تلك رؤوس هيدروجينية، ذات إشعاعات تزيل كل شيء حي، هل رأيت كيف أذابت الشياطين؟

صاح عليهم آمراً:

ـ اكتبوا على الشاشة عواقب تفجير رأس واحد منها.

لم يرد عليه أحد، سرعان ما اضطربت خطوط الشاشة، واختلطت الصور، ثم انطفأت فجأة، فأكمل الشيطان الأكبر قائلاً بإحباط:

ـ تلك الرؤوس تذيب البشر والحجر، وتحول الأرض إلى عجينة صغيرة تتفتت في الفضاء، مازال هناك بعض الشياطين ينتظرون فراغ أولئك العمال والخبراء من العمل، وسينقضون عليهم خارج المفاعل (وتابع بيأس) ونحن ننتظركما أنا وأمين سري زعفوط، لم يعد هناك أحد، لقد انطفأت الشاشة من تلقاء نفسها، لن نيأس من الانتظار، لا أظن أنكما من الأنانية بحيث تكونان الوحيدين من البشر اللذين تحتفظان بعقليكما.

نظرت إلي كاملة نظرة معبرة، وقالت بشك:

ـ أشعر بأنك تريد الخروج من دائرتك.

ـ نعم، لن نظل محبوسين في هذا المجال الضيّق.

ـ أنا خائفة أن يحدث لنا ما حدث للأشخاص الذين رأيناهم.

ـ التميمتان تمنعان الشياطين من الاقتراب منا.

خرجنا، وراح الشيطان الأكبر يصيح:

ـ أين تذهبان؟ اجلسا في الهضبة، سوف نعيش سوياً هنا، ونلبي لكما جميع المطالب، نحن الخادمان المخلصان.

سألته بمزيد من الغضب:

ـ ما اسمك؟

أجاب بتهكم:

ـ الشيطان الأكبر، كيف تطلقون علي هذا الاسم ثم تسألونني عنه؟

ـ أنت ملعون لأنك قذفتنا إلى هذا الشقاء، وأخرجت أسلافنا من جنات الفردوس.

ضحك الشيطان الأكبر حتى انبطح على الأرض، تاركاً خلفه حفرة عظيمة على الهضبة، ثم أجاب أخيرا:

ـ وهل تصدق ذلك أيها الساذج؟ أنت متناقض مع أفكارك، نحن بضاعة بشرية، لقد خلقتمونا من العدم.

ثم ظهر القلق في ملامحه وصوته، وتابع بأسى:

ـ كما ترى نحن لا نتحكم في أنفسنا، ها أنت ذا جمعتنا وأحضرتنا صاغرين إلى هذه الهضبة البشعة، ثم قضيت علينا، لكن اسمع...

أخذ الشيطان الأكبر يشكو، لقد اعتادوا على التخفي، وطمروا حياتهم بغطاء سميك من السرية، صاروا يتحاشون البشر -لاسيما السحرة والمؤمنين- ويفرون من موضع إلى آخر، لكن في كل لحظة تتصاعد عليهم آلاف اللعنات من مؤمنين حمقى لا يتدخل الشياطين في شئونهم، هذه اللعنات تصيبهم بالقشعريرة كما تصيب التهم الرجل البريء في قاعة المحكمة، إنها المرة الأولى التي يظهرون فيها على إنسان بشري يرفض أن يفرقهم إلى أوطانهم، مازال بعض البشر يظنون أن الشيطان كائن خرافي نسجته عقول أشخاص مرضى بالريبة والوساوس، لا أحد يستطيع تحمل هذا الوضع القاسي، في أوقات كثيرة يتمنى أن يموت على أن يبقى شماعة للعنات والأقذار، لكن من يستطيع أن ينقذه من هذا الكم الهائل من المؤمنين المحتالين والفاشلين الذين يتكاثرون كل يوم كالأرانب، أفصح أن الوقت حان لينفض كل ما لديه من أسرار وأوجاع، لأن إخفاءها لم يعد ضروريا، من المؤلم أن يجد مجسمه صار رمزاً للشر يرمى بالأحجار، ويبصق عليه في كل لحظة، ببساطة خادعة أصبح الأذى شرطاً من شروط الإيمان بالله، وعند كل صلاة يستعيذون بالله منه ويذكرونه بسوء، يبدون متجهمين متشائمين يبحثون عن المتاعب، يعيشون في الجانب المظلم من

الحياة، ويقولون في النهاية الشيطان أغوانا وجعلنا ننسى ذكر الله، في الحقيقة البشر الذين يلبسون رداء الإيمان يخفون وراءهم شرورا عظيمة، يجيدون الحديث عن الموت والطاعة والمخاوف، معابدهم بنيت لاستعباد البشر وتكبيل أجسادهم وعقولهم بتعليمات الإله الخفي الذي لا يستطيع أحد تبرير سبب اختفائه وغموضه، ستجد أن بيوت العبادة مزينة ونظيفة لكن قلوب مرتاديها كئيبة ومتسخة، أما الرجال الصالحون في هذا العالم فلا أحد يراهم أو يسمع أصواتهم...

قلت له مقاطعاً:

ـ هذا يكفي أرجوك، سامحني على مقاطعتك، كلامك منطقي نوعا ما، لا يهم أن تكون شماعة أو كبش فداء يقدمه المؤمنون لتبرير أخطائهم، لكنك في الحقيقة كائن خرافي لا وجود له في الواقع.

رد بانفعال:

ـ عجبا، كيف بوسعك أن تلغي وجودي وأنا أكلمك الآن، ما أوقح البشر! تعرفون أنني أقدم منكم حضورا وتأثيرا في السماء والأرض.

ـ ما أعرفه هو أنكم جانب الشر في الحياة، وأن ما أكلمه الآن هو طيف الشر، أظن أنني مخدوع حقا، وأن ما أراه وأكلمه الآن.. لا أدري.. لا أريد أن أؤمن بوجودك على كل حال..

قال بصوت هادر:

ـ أيها المهرطق اللعين، هذا يعني أنك لا تؤمن بالإله الخالق؟ لقد قمت بمحو فكرة الإيمان من عقول الناس وحولتهم إلى حيوانات ضالة لكي تنشئ سلالة حيوانية لا تؤمن بشيء.

ـ اسكت، دعني أفكر، أظن أنني أريد إنشاء سلالة بشرية جديدة حقا، لكني لا أعرف أي أفكار يجب أن تؤمن بها.

حين رآني في حال من الضنك والحيرة بدل لهجته إلى اللين والوداد، طلب مني أن أكون مبعوثاً من طرفه إلى الناس لأوضح لهم اللبس الشديد الذي يدور في أذهانهم عنه، وأبدى رغبته في فتح صفحة جديدة مع البشر، والاتفاق على الاحترام المتبادل وحسن الجوار، وأقسم أنه لن يتدخل في شئونهم ثانية، وهم في المقابل لا يتعرضون له باللعنات والشتائم، ولا يلقون عليه أسباب بؤسهم وأخطائهم، يود أن يبرهنوا على حسن نواياهم بإزالة مجسماته المزرية من قرب الكاتدرائيات والمساجد والمعابد الضخمة.

وبعث رسالة خاصة إلى المسلمين الذين يظنهم أكثر الأمم التي تمقته وتلعنه، حتى أهملوا شئون حياتهم الأخرى وانشغلوا بمطاردته، ولولاهم كان الله قد عفا عنه وسامحه منذ زمن بعيد، لكن لعناتهم تطارده دون سبب، على الرغم إن أكثر بيوت العبادة في بلدانهم الفقيرة هو من ساعد ببنائها، على الأقل ليتحلوا ببعض العرفان، ولا ينسبون إليه ما لا يفعل. كان الغضب مسيطراً عليّ، يريدني أن أكون مبعوثاً كأنني أحد عبيده، لن أكون رسولاً لأحد، فأنا ببساطة أكره الناس الذين تسببوا بأذيتي، ولم أعد أستثني منهم أحداً، نعم.. كل الناس... ما أمكر الشيطان الأكبر، انتبهت إلى أنه يريد بعثي رسولاً للناس ليرفعوا مجسماته بينما الناس الآن بلا عقول هجروا المنازل ودور العبادة ويعيشون في العراء بلا إيمان أو معتقدات، ماذا يريد هذا البغيض أن يقول، هل نسي ما فعله أتباعه بعقول البشر؟

صحت بنزق:

ـ هل تستغفلني أيها اللعين؟ لست مغفلاً كما تظن، لم يعد هنالك مؤمنون لأنقل إليهم رسالتك البغيضة.

صاح بأسف:

ـ أوه، هذا صحيح، المساكين فقدوا عقولهم، ما كان ينبغي أن يحدث ذلك.

طرح علي عرضاً مغرياً قائلاً كأنه وجد حلاً لما يشغل بالي:

ـ اسمع، لم يفت الأوان بعد، مازال هناك أملٍ بعودة العقل البشري، لازلت أنت وامرأتك الحسناء، أظن أن بوسعكم التناسل، وسوف نعقد اتفاقا بأن نتعايش بهدوء.

نظرت إلى كاملة بشيء من الحيرة، طامعاً بالرأي الشافي، كنا في ظنك شديد، نظن ألا أحد بوسعه أن ينقذ الجنس البشري عدانا، لم تنطق كاملة بحرف واحد، لأنها كما بدا لي كانت حزينة لا تفهم ما يجري في الحياة من اضطراب، ربما ظنت أنني تهورت في تدمير عقول البشر، في حين كان بوسعنا أن نعيش مثل غيرنا دون أن نفكر في هذا العمل المجنون، لم يعد هناك من الشياطين سوى الشيطان الأكبر وأمين سره زعفوط الذي بقي صامتا طوال الوقت، لا ريب أنهما لا يريدان الانتحار، ونحن لا نحبذ الجنون أو التخلي عن التميمتين الحارستين، فكرت بمهادنة الشياطين، كان اضطراب كاملة وخوفها يبعثان على الشفقة، كيف بوسعي أن أجعلها مجنونة يطاردها فحول القطيع البشري؟ لن تنظر إليّ بمحبة كما تنظر إليّ الآن، لن تعرف شيئاً عن عواطفنا الجيّاشة، وتاريخنا المشترك في الحب والخداع والعذاب، يجب أن أفكر جيدا قبل أن أقوم بخطوتي الأخيرة.. في تلك الأثناء كنا نقترب من قرية أبي، كم كانت دهشتي

حين لاحظت ألا أثر لحيوان أو طير في كل جزء عبرنا منه، تكهنت بأنها هاجرت، وهذا شيء طبيعي...

قطعت كاملة حبل أفكاري قائلة بصوت مرتعش:

ـ هناك طفل في رحمي، هل تريده أن يعيش؟

تملكني شعور معذب مجنون وأنا أسمع هذا الإعلان المتكرر، لم أفرح، لأني لم أكن موقناً من الجواب، لم أكن قد قبلت عرض الشيطان الأكبر بعد، رغم ميلي الشديد إليه. قلت بضجر:

ـ هذا إغراء جديد، من الغريب أن يحدث ذلك الآن!

ـ انظر، بوسعنا قبول عرض الشيطانين، دعنا نؤسس جيلاً من العقول ونشكلها بعيداً عن الخزعبلات التي نمقتها، لا تدعهم يقتلون هذا الجنين، لعله آخر كائن يتشكل في أحشائي، لا أظن أن بوسعي أن أتحمل كل هذا الفقدان.

ـ لكن الشيطان مازال موجوداً.

ـ سنحرر معه اتفاقاً صارماً ألا يدخل إلى عقل أي أحدٍ من سلالتنا.

ـ كما ترين، هذا يعني أننا سوف نعترف بوجوده، ومن ثم نصبح مؤمنين به، بوسعنا أن ننجب حين نفقد عقلينا ويموت الشيطانان.

صاحت كاملة بحدة لأول مرة:

ـ أريد أن أرى طفلي وأشعر بوجوده، لن أعامله برفق لو وضعته وأنا بلا عقل، ربما أدهسه أو أمزقه.

نظرت إليها بفتور وأجبت بعناد:

ـ هذا غير صحيح، لأن جميع الحيوانات تتعامل مع صغارها بمحبة.

صمتت على مضض، كان الشيطانان البغيضان يواكبان خطانا كحارسين شخصيين، طائرين فوق رؤوسنا بأجنحة كأشرعة السفن التي رأيناها على الشاشة المضيئة تمخر البحار، كانا مشوهين وبشعين أكثر من أي شيطان آخر رأيناه.

***

في هضبة أبي بدت المنازل خاوية، سمعنا أصوات الأهالي تنبثق من رؤوس الأشجار ومن أعلى المئذنة، البعض كانوا على الطرقات والشعاب القريبة يتنططون كالقرود، عرايا تلوح أعضاؤهم مسترخية دون خجل، حين رأونا أقبلوا نحونا متنمرين يطلقون أصوات فجة وصفيراً من أفواههم الخرساء، صرخ عليهم الشيطانان بصوت رهيب، فأجفلوا إلى مواقعهم متأهبين للقتال، رأيت أبي يتوسط العراة كما لو كان على عهده الأول كبيراً، لكن هذا لم يكن وارداً هنا وسط هذا الحشد العاري المتجانس الذي تكون القوة والفتوة هما المعياران الوحيدان للسيطرة.

كان البعض يركبون الإناث بوضع مائل، ومريمة إحداهن، في حين يغور رأس والدي بين كتفيه بلا مبالاة، يحاول بيأس أن يصعد فوق جسد أنثى فيطرده الذكور الأقوياء بعيداً بقسوة، لقد انتهت جولاته وصولاته الجنسية منذ كان طحاناً قوياً ثم كبيراً وإقطاعياً، أما الآن فقد صار عجوزاً متصابياً يقفز نحو الإناث بضعف وخوف. رأيت شقيقي إسحاق في ركن بعيد يجري بلا هدف فاغراً فاه، يهز رأسه متمايلاً كأنه يقوم بحركات راقصة عشوائية، ندمت

ندماً شديداً، نظرت إلى الواقع الجديد من جميع جوانبه، كان العالم يعيش بشكل مختلف متخبطاً بين لجج المسرات والبؤس، كم كان ألمي حين رأيت الشياطين يسطون على رؤوس الأطفال! فكرت في أنني حرمتهم من الذهاب إلى مدارسهم، لا ريب أن عقولهم كانت طائشة ومجنونة، لم يكن من داعٍ لإبطالها وتشويهها، قلت لنفسي بأسى: لقد حرمتهم يا سعد من أخذ فرصهم في العيش، ربما كانت عقولهم أنقى من عقول آبائهم بحيث لا يؤمنون بالشياطين ولا يتغذون على أفكارها، لكنك جئت من بلد همجي يعج بالسحرة والمؤمنين، ومن ثم جلبت الشياطين من مواطنها البعيدة، لأنك تظن البشر جميعهم أشراراً مثل أولئك الجلادين الآسيويين. وها هم يهيمون على وجوههم، بلا عقول أو بصائر، لا ذنب لهم سوى أنهم عاشوا في الزمن الذي جئت فيه متنمراً على هذا العالم المتوحش، الآن أهفو إلى استقبال طفلي، فيما ملايين الأطفال في حالتهم الحيوانية متحررين من العقل والشياطين، وها هو الشيطان الأكبر يمارس ألاعيبه وسحره في رأسي، ويغرس في جسدي الخوف على مستقبل البشر، صرت أفكر في الجدوى التي عادت من هدر كثير من العقول البشرية، في حين مازال الخبيث وأمين سره يسرحان ويمرحان، فكرت بأقصى ما أستطيع دون جدوى، كنت أحس بضعف وفتور شديدين في جسدي.

كاملة أيضا كانت تشعر بالخور، وتشكو منه على الدوام، فكرت فيما يجعلنا نخور في عمر مبكر، خطر لي شيئا مريعا للغاية، وتساءلت بقلق، أيكون الشيطانان يقومان بتضليلنا عن الزمن الذي نعيشه؟ استدعيت من ذهني تعويذة الزمن التي لم يسبق أن قرأتها، انزويت جانبا لأقرأها بعيدا عن الشيطانين اللذين شرعا يثيران ضجيجا عارما حولي لتشويشي، لكني تمكنت من قراءتها، اكتشفت أن الأيام القليلة التي قضيناها في الهضبة حولاها إلى عشرات

السنين، جعلانا نعيشها سريعا دون أن نشعر بمرور الوقت، قاما بطي الزمن، وجعلا رفيقتي تتوهم طوال الوقت أنها حامل بينما هي عجوز في أرذل العمر، لقد تلاعب الوغدان بالزمن وخدعانا، وها هما ينتظران موتنا لينجوا من المصير المحتوم، لأن رموز المندل تعفي الشياطين من التلاشي عند موت المستحضرين السحرة، بوسعهم بعد ذلك أن يدخلوا رأس بشري ساذج ويتكاثرون من جديد، لا شك أن هناك بشر نجوا بطريقة ما من الجنون، يقولان إن هناك فتى وفتاة نجيا وشيطانان كذلك، كنت أظن أني أسيطر على الأمور.. فجأة اقتربت كاملة مني، مترنحة منحنية الجسد، قائلة بعجب:

ـ أهناك شيء يدعوك للانزواء بعيدا؟

ـ لا شيء، فقط سئمت من السير خلف الشيطانين.

ـ أنت تبكي أم يخال لي، ماذا يجري؟

قلت بتوتر:

ـ هناك أشياء كثيرة زائفة نخالها حقيقية، لقد ضجرت من العقل البغيض، لأنه لا يتوقف عن التفكير بالمتاعب والأحزان.

ـ حقا، لست على ما يرام يا سعد.

ـ اتركيني قليلا يا كاملة.

انصرفت رفيقتي المسكينة، لا تدرك أنها غدت امرأة طاعنة السن تكاد تسقط من الضعف، لا شك أني أكثر بشاعة وضعفا منها. فكرت. لم أملك الشجاعة في تلك اللحظة لأخبرها بهذا الخبر المريع.. قطع الشيطان الأكبر تفكيري قائلا بارتباك:

ـ أرأيت المجانين كيف يعيشون بطريقة حيوانية بائسة ولا يشعرون بمذاق الحياة؟

نظرت إليه قائلا بغضب:

ـ كيف تعرف أنهم ليسوا سعداء؟

ـ بالعقل نميز الأشياء، أنا الآن أستمد تفكيري من عقلك النبيه، وأنت كذلك توافقني الرأي، لكنك حزين على ما آلت إليه عقول الناس.

ـ صحيح، أنا حزين لأجل ذلك، لكني كذلك أظنهم أكثر سعادة منا، فالعقل عبء على الجسد، لأنه يخزن الكثير من الذكريات السيئة، لم أعد أحتمل العيش محتفظاً بعقلي قربهم.

فز الشيطان الأكبر بفجيعة وقال:

ـ ينبغي ألا تفكر كثيرا، لأن العقل البشري يصاب بالعطب حين تراوده الشكوك والوساوس، كل شيء على ما يرام كما ترى.

ـ اسمع أيها البغيض، ما تفعلانه يعد مخالفة جسيمة لرموز المندل السليماني.

ـ ماذا جرى لك؟ أنتما محميان بالتميمتين، وتستطيعان الإنجاب...

قاطعته بصرامة:

ـ اخبرني بصدق، كم بقي من الشياطين؟

ـ أظنني أخبرتك من قبل! لم يبق إلا أنا وأمين سري فقط، وشيطانان آخران ينتظران خروج فتى وفتاة محجوزين بمكان ما.

ـ اذهبا الآن، دعاني وشأني.

ذهبا، كنت أعرف أنهما يراقباني عن كثب، لم أكترث، رسمت دائرة على شكل كرة، ثم قسمتها إلى أربعة أقسام متساوية بواسطة خطين متعامدين، قبضت حفنة تراب من مركز الدائرة، تلوت عليها تعاويذ غريبة، ثم نفضت التراب على المربعات، ظهر لون أصفر كثيف على الكرة ثم اختفى، وظهرت علامات غريبة أخرى، لمحت حيوانا شريرا وأنثاه، وشابا وفتاة يعيشان في صراع مستميت للبقاء على قيد الحياة، تغير لون الدائرة إلى اللون الأخضر، تراءت لي منطقة قاع الحقل على شكل غابة كثيفة الأشجار، وطيور وحيوانات كثيرة تنتشر في الأرجاء وهدوء تام، شعرت بسلام شامل ومرح وفرح وفنون وجمال في كل مكان. عدت إلى الهضبة الكبرى، دفنت مخلاة معلمي التي تحوي كتبه الخطيرة داخل تجويف شجرتي العملاقة، ثم عكفت على صياغة نهاية القصة في المخطوط كما تخيلتها ورسمتها دون نقصان، واستدعيت الشيطانان قائلا بحزم:

ـ ضعا هذا المخطوط في مكان أمين وسط منزل محلي معزول عن القرى تحيط به بضع حقول ونبع ماء، زودوا المخزن بالمؤن والأدوات التي يحتاجها المرء ليعيش زمنا دون عوز..

ضحك الشيطان الأكبر بصوت عارم وقال:

ـ هل تظن أن بوسع أحد أن يقرأ مخطوطك اللعين بعد انقراض البشر؟

ـ لا يهم، هذا آخر أمر أوجهه إليكما.

ـ نحن ملزمان بطاعتك يا حاكمنا حتى آخر لحظة.

ذهبا لتنفيذ المهمة، ثم عادا سريعا بعد لحظات وهما يقولان بدماثة غريبة:

ـ نحن خادماك المطيعان، سنفعل ما تشاء يا سيدنا، لقد وضعنا المخطوط داخل صندوق في منزل معزول مؤهل للعيش.

ألقيت إلى كاملة نظرة ذات مغزى خاص تغلب عليها النشوة، وقرأت تعويذة المناجاة الصامتة، وقلت لها:

ـ هل تثقين بي؟

ـ كما ترى، يجب أن أثق بك.

ـ هذا جواب جيد، إنها فرصتنا الأخيرة يا كاملتي، دعينا ننضم إلى هذا القطيع المجنون.

ـ كلا يا سعد، يجب أن نستمتع بعقلينا وجسدينا أكبر مدة ممكنة، وننجب بضعة أطفال.

ـ لقد خدعنا يا كاملة، إننا الآن شيخان عجوزان نوشك على الموت، ذلك الضعف الذي نعانيه هو ضعف الشيخوخة، انتظري حتى اثبت لك ذلك، سأدعك تنظرين إلى صورتي الحقيقية، أرجوك لا تصرخي أو تتصرفي بحمق.

قرأت تعويذة كشف الزمن على جسدي، ورأيتها تحملق برعب، وتناجيني قائلة:

ـ ويلاه، حقا أنت عجوز بشع الصورة، ولا شك أنني كذلك، ماذا فعلونا بعقولنا؟

ـ لا أدري، لقد خدعنا وحسب، أتوافقين الآن..

قاطعتني بحدة:

ـ افعلها، لن ندعهما ينجوان.

صاح الشيطان الأكبر بخوف:

ـ لا تتصرفا بجنون. توقفا..

صحت بصوت عالٍ:

ـ لا تكترث، حان الوقت، يجب أن نتحرر جميعا.

خلعت ملابسي بسرعة، ونزعت كاملة ملابسها على استحياء بفعل وجود العقل، ثم نزعنا التميمتين سويا ورميناهما، وسرنا مستسلمين متعانقين تلمسا للأمان، وسرعان ما انقض الدخان الأصفر على رأسينا، ولم ندرك بعد ذلك ما حدث.